إيمانويل تود

بعد الإمبراطورية

دراسة في تفسخ النظام الأمريكي

ترجمة وتقديم

أ.د. رجب بودبوس

أكاديمية الفكر الجماهيري

المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

عبد الله علي عمران

فهرس

تقديم : معركة النظام العالمي الجديد د. رجب بو دبوس......7
افتتاحية......35
الفصل الأول : خرافة الإرهاب العالمي......65
الفصل الثاني : التهديد الديمقراطي العظيم......93
الفصل الثالث : البعد الإمبريالي......111
الفصل الرابع : هشاشة الجزية......139
الفصل الخامس : تراجع العالمية......169
الفصل السادس : مواجهة القوى أو مهاجمة الضعيف......197
الفصل السابع : عودة روسيا......227
الفصل الثامن : انعتاق أوروبا......257
نهاية الجولة......287

لوحة اللوحات......302
أعمال المؤلف......303
أعمال الأستاذ الدكتور رجب بو دبوس......305

مُقَدِّمَة

معركة النظام العالمي الجديد

أ.د. رجب بو ديوس

كثيرون الذين تحدثوا وكتبوا عن نظام عالمي جديد ، غداة انهيار الاتحاد السوفيتي وكتلته الشرقية ، وكثيرون أيضا الذين توقعوا أن هذا القرن سيكون أمريكيا.

لكن عندما نتحدث أو نكتب عن نظام عالمي جديد ، فهذا يعني ضمناً افتراض نظام عالمي سابق ، أو قديم ، ولكي نفهم جيداً ما هو جديد ، إن كان ثمة جديد ، يحسن أن نتطرق إلى النظام الذي سبقه ، لنعرف ما إذا كان ثمة نظام جديد ، غير القديم ، وما إذا كان ثمة جديد يعطي مصداقية للصفة الملحقة بما يفترض أنه نظام عالمي جديد .

لمحة تاريخية تكون إذن ضرورية .

من المتفق عليه أن النظام العالمي ، ظهر غداة الحرب العالمية الثانية ، ونكاد نقول تكون خلالها ، ومن المؤكد جداً أنه تأثر بنتائجها.

الحرب العالمية الثانية ، وإن تمخضت عن انتصار الحلفاء، وضمنهم الاتحاد السوفيتي ، على دول المحور ، إلا أنها تمخضت أيضاً عن انقسام العالم ، تقريباً ، إلى كتلتين ، الاتحاد السوفيتي شكل كتلة متميزة ومناقضة لكتلة بقية من كانوا يعرفون بالحلفاء.

هذا يعني ، ما أن وضعت الحرب أوزارها ، حتى ظهرت كتلتان ، الكتلة الشرقية ، أو الشيوعية ، مجازاً ، والكتلة الغربية أو الرأسمالية يتناقضان أيديولوجيا ، الأولى تعلن عن نفسها اشتراكية ، أو على الأصح اجتماعية ، والثانية رأسمالية . وأن كان سياسياً يتبنيان الديمقراطية النيابية ، إلا أن الأولى تتبنى نظام

الحزب الواحد ، والثانية تأخذ بنظام تعدد الأحزاب ، أو الطبقة الـواحدة ، هـذا يطرح أيضاً ويقوم على تناقض المصالح وطلب النفوذ ، والهيمنة على العالم .

خشية أن تناقضات المصالح والأيديولوجيا ، تقود مجدداً إلى صـراع مسـلح ومدمر ، نظراً للقدرات العسكرية ، الهائلة ، عند الكتلتين، مما يعيد السيناريو المدمر للحربين العالميتين ، ثم بشكل عـام ، التوصـل إلى تفاهمات ، تمنح ، أو على الأقل تقلص من احـتمالات الصـدام المسـلح المباشـر ، تمثل هذا التفاهـم أولا في اتفاقية يالطا ، التي رسمت حدود ونفوذ كلا الكتلتين . فأختص النفوذ الغربي بأجزاء من العالم ، كخط احمر أمام الكتلة الشرقية، الـتي اعـترف لهـا بالـنفوذ علـى أجـزاء أخرى . وتركت مناطق أخـرى مـن العـالم ، خـارج التفاهم ، مجالاً مفتوحاً للتنافس بين الكتلتين ، والتي ظلت ميدان نزاع غير مباشر بينهما .

لكـن لكـي لا يتطور هذا التنافس إلى صدام مباشر ، ولكي يجري النزاع في حدود تحول دون تحوله إلى صدام مباشر ، جرى الـتفكير أيضـا في إعـادة صـياغة وتفعيل مؤسسة دولية ، بهدف تـأطير وتنظـيم العلاقات الدولية ، والحفاظ على السلم العالمي. فأعـيد النظـر في عصـبة الأمـم، والـتي انهارت بسبب الحرب ، هكـذا تأسســت هيـئة الأمم المتحدة ، حيث كل أعضاء الجماعة الدولـية ، متسـاوون قانـوناً . في محاولة بناء العلاقات الدولية ، علـى أسـس تحـول دون الحرب وتحقق الأمن والسلم الدولي ، وتحرم اللجوء إلى القوة في حل النزاعات .

هذه الهيئة ، والأسس التي تقوم عليها ، والمبادئ التي تعلنها، والأهداف التي تسعى نحوها ، تمثل ، إلى حد كبير ، حلم الإنسانية ، الذي طالما راود الفلاسفة أمام مشاهد دمار الحروب.

لكن الوضع القانوني والأخلاقي الذي تستند إليه هيئة الأمم يتناقض ، عمليا مع معطيات الوضع الدولي ، ويشله اختلال موازين القوة الواقعية .

الذين وضعوا تصور هيئة الأمم المتحدة ، وأشرفوا على إخراجه للوجود ، كانوا يدركون ، أنها ربما لن تحول دون صدام القوى الكبرى ، بسبب تناقض المصالح ، واختلال موازين القوة وإن التمتع بقوة عسكرية متفوقة ، يغري بعدم احترام هيئة الأمم المتحدة . إذا ما تعلق الأمر بمصالح بعض الدول الحيوية ، دون أن يكون لهذه الهيئة القوة القادرة على فرض احترامها . احتلال العراق يعطي مصداقية لذلك ، لقد ضربت الولايات المتحدة عرض الحائط بهيئة الأمم ونفذت ما تريد دون أي غطاء شرعي دولي . ذلك أن المساواة القانونية ، التي تفترضها هيئة الأمم بين أعضائها . من دول الجماعة الدولية ، تعيقها اللامساواة الواقعية ، من حيث القوة العسكرية والاقتصادية الفعلية . إن ما منع صدام دولي ، بسبب العراق ، هو غياب مصالح حيوية لدول أخرى ، أو عدم قدرتها على مواجهة عسكرية وتخبط روسيا في آثار الانهيار السوفيتي .

العالم ليس منقسماً إلى كتلتين فقط ، بل أيضا كان منقسما إلى فقراء وأغنياء ضعفاء وأقوياء .

أضف إلى هذا ، أن التفكير ربما كان أيضا ، يذهب إلى كيفية استخدام هذه الهيئة الأممية ستاراً ، وتشريعاً لمصالح بعض دول العالم ، في زمن صارت الشعوب ترفض فيه العدوان .

هذا وذاك تطلب التفاهم بين القوى الكبرى ، أكثر من الأخذ بعين الاعتبار مواقف مجموع دول الجماعة الأممية . هؤلاء الكبار هم الذين يخشى بعضهم بعضا ، وهم الذين يهددون سلام العالم .

هذا التفاهم أدى إلى نشأة مجلس الأمن ، والذي يتمتع بالسلطان الحقيقي في الجماعة الدولية ، على حساب مجموع دول الجماعة الأممية . لقد أعطى الخمسة الكبار لأنفسهم حق الفيتو ، وهذا اعتراف منهم ، بأنه عمليا يستطيع كل واحد منهم، عدم الانصياع لقرارات المجلس ، بل ومنع اتخاذها ، دون خوف من نتائجه إلا بالنسبة لبقية الخمسة الكبار .

هذا يعني في الحقيقة أن التوازن بين الخمسة الكبار ، وحده يدخل في حسابهم ، وأن الأمن والسلم الدولي يتوقف على تفاهم الخمسة الكبار ، ومراعاة بعضهم مصالح البعض ، ولا يؤخذ في الاعتبار بقية دول العالم ، إلا فيما يتعلق بمصالح الكبار. هكذا العالم يدار وفق مصالح الكبار وليس وفق أي قانون دولي وحقوق الإنسان .

إذن النظام العالمي ، الذي تأسس غداة الحرب العالمية الثانية هو نظام تفاهم الخمسة الكبار ، الذين يملكون القدرة الحقيقية ، وليس القانونية ، على قبول أو رفض أي قرار أممي ، وأنهم لا يضعون في الاعتبار إلا القوة التي تكون نداً لهم .

هذا أدى إلى جعل بقية دول العالم تسعى لامتلاك القوة على حساب التنمية وحاجات الشعوب ، العالم الذي أُريد له أن يكون عالم سلام وأمن بُني على أسس تهدد السلام والأمن .

هذا التفاهم الذي تجسد في مجلس الأمن ، وفي امتلاك الخمسة الكبار حق الفيتو فيه ، همش ، في الواقع ، هيئة الأمم المتحدة ، وحولها إلى ما يشبه منتدى دولي ، حيث تعبر دول العالم عن مواقفها دون أي تأثير يذكر في مجرى الأحداث الدولية حولها إلى منتدى أقل فاعلية وقدرة من منتدى دافوس الاقتصادي .

تمتع الأقوياء بحق الفيتو ، في مجلس الأمن ، استناداً إلى القوة العسكرية والاقتصادية ، مع تناقض المصالح والأيديولوجيات بينهم ، جعل الحرب تظهر في شكل جديد ، إنها ما عرف بالحرب الباردة.

الحرب الباردة تختلف عن الحرب الساخنة ، في أنها حرب محكومة بتفاهم مسبق ، على الحدود التي لا يجب تجاوزها من قبل أطراف النزاع ، ذلك لان كل كتلة ، وهي تواجه الأخرى تدرك جيداً خطورة الصدام المباشر بالكتلة الأخرى ، فهي إذن تنازع الكتلة الأخرى ، وحريصة في نفس الوقت ألا يمتد النزاع إلى صدام مسلح مباشر .

الحرب الباردة سمحت لكل كتلة ، بالعمل على مد نفوذها وتحقيق مصالحها . واعية ، في نفس الوقت ، بخط أحمر ، لا يجب تجاوزه على الأقل بشكل مباشر . ومع الحرب الباردة شاعت مناطق التوتر المنخفض .

الحرب الباردة توازن الرعب الذي كان يحكمها ، تناقص مصالح وأيديولوجيات الكتلتين ، ورغبتهما في كسب الأنصار والحلفاء أو الاتباع ، أعطى بعض الفعالية لمجلس الأمن ، ولهيئة الأمم المتحدة ، إذ أن كل طرف ، من الكتلتين ، كان يسعى لتمرير مصالحه وأيديولوجيته من خلال كسب ود وتأييد دول العالم الأخرى ، والأنصار ومناطق النفوذ ، دون المخاطرة بصدام مباشر مع الكتلة الأخرى.

الحرب الباردة حولت هيئة الأمم إلى ما يشبه سوقاً حيث كل كتلة تعرض بضاعتها .

لقد كانت مرحلة ازدهار ، نسبي ، لمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدولة.

توازن الرعب الذي كبح ، إلى حد ما ، جماح الكتلتين ، أعطى بعض هامش الحركة والمناورة ، للدول من خارج الكتلتين، مستفيدة من وجود قوتين عظميين ، وتناقضهما ، وشل بعضها البعض ، فظهرت حركة عدم الانحياز ، في محاولة تشكيل كتلة ثالثة ، ترى أن مصالحها ورؤياها الخاصة ، وظروفها، والتي ليست بالضرورة مصالح ورؤى وظروف أي من الكتلتين ، وان لا مصلحة لها في الانحياز لأي منهما .

وجود كتلتين ، وإن كان تأثيرهما واسعاً ، إلا أنه لم يشمل كل دول العالم ، تناقضهما ، خشية كل منهما الأخرى ، سمح لبعض الدول أن تكون نسبياً على الحياد ، وأن تسعى لمصالحها الوطنية ، تناقض الكتلتين ورغبتهما في كسب الأنصار دولياً ، دون مخاطر كبرى ، كان أداة مساومة في يد الدول غير المنحازة .

في محاولـة كـل كـتلة تحـيـيد الكـتلة الأخـرى ، ووضـع حد لإمكانـيات تدخلـها في دول العالم ، خارج الخط الأحمر ، وضع مـبدأ عـدم التدخل في شؤون الدول ذات السيادة ، غير أن هذا يـترك الـباب مفـتوحاً فمحـاولات كسـب دعـم وتأييد أو تمرير مصـالح إحدى الكتلتين في دول العالم الأخرى . على أن يكون ذلـك اسـتناداً إلى مبدأ سيادة الدول وعدم التدخل في شؤونها ، ولا يمـنع انحيازها أو دعمها لإحدى الكتلتين ، شريطة أن يكون ذلك برضاها .

وحيث ان استخدام القوة العسكرية محفوف بمخاطر الصدام المباشـر ، بين الكتلتين ، فقد جرى كسب هذا الرضى من خلال الضـغط السياسي والاقتصادي خاصة فاستخدمت المساعدات ، بأنـواعها ، والمـنح ، والمواقف السياسية ، للحصول على مناطق نفوذ وهيمنة غير معلنة ، دون اللجوء للقوة العسكرية .

أمـا سياسـيا فقـد اتجهـت الكتلـتان إلى تـدبير الانقلابات ، وتغـيير أنظمة الحكم ، ورشوة الأحزاب ، وتمويل الانتخابات ، ووسـائل الإعـلام مـن أجـل إقامـة أنظمـة عميلة واقعياً ، ذات سيادة نظرياً ، أجهزة المخابرات لعبت في هذا الدور الأساسي .

خـلال الحـرب الـباردة ، وفي ظـل توازن الرعب ، كل شيء مـباح ، مـن أجـل المصالح ، ومناطق النفوذ ، والتبعية السياسية والأيديولوجـية . والاقتصـادية ، شـريطة عـدم اللجـوء للقـوة العسكرية المباشرة ، نقول مباشرة ، لأن ذلك لم يمنع الكتلتين من تفجـير نـزاعات عسـكرية إقليمـية ، أو حـروب أهلـية ، حيث تـتقاتل الكتلـتان بواسـطة الآخـرين . هـذا مـا أطلـق علـيه العسكريون أحياناً : " التوتر المنخفض " .

بالطبع ظهرت مؤسسات أخرى ، في محاولة تنظيم الحياة ، الدولية ، مثل صندوق النقد الدولي ، ومهمته الإشراف وتنسيق المالية الدولية من حيث إصدار النقود وقيمتها ، والسياسات المالية ، ما هو حاجة ضرورية في التبادل التجاري الدولي ، الذي أخذ ينمو ، وتنمو حركة الرساميل كما ظهرت منظمة القات (الجات) ، بهدف تنظيم التبادل التجاري والتجارة وسياسات الرسوم الجمركية . والتي تحولت بعد ذلك إلى المنظمة العالمية للتجارة ، ذراع العولمة . إلى جانب مؤسسات أخرى مثل محكمة العدل الدولية ، وغير ذلك من المؤسسات التي تفرعت من هيئة الأمم المتحدة .

هيئة الأمم المتحدة ، من حيث المبدأ والأهداف ، تمثل طموحاً رائعاً ، من حيث إخضاع العلاقات الدولية للقانون ، وتأسيس شرعية دولية لا تميز القوي عن الضعيف ، وتجعل القانون الدولي وسيلة فض المنازعات والخلافات بين الدول ، لكن بسبب القوى الكبرى ، المسيطرة فعلياً ، لم تخرج عن كونها، في العموم مؤسسة شكلية أكثر منها ذات فعالية ، حقيقية، في دمقرطة العلاقات بين الدول . هذه العلاقات ظلت تخضع لمؤسسة دكتاتورية وهي مجلس الأمن ، الذي يخضع لحق الفيتو . أي للخمسة الكبار . وجود التناقض بين الكتلتين ، وتوازن الرعب ، هو فقط الذي منح هيئة الأمم بعض الفعالية .

الشرعية الدولية ، تأسست هكذا ، على أنها استناداً لقرارات هيئة الأمم ، وخاصة مجلس الأمن ، لكن هذه الشرعية بسبب وجود الخمسة الكبار ، واستخدامها في مصالحهم ، وتحديدها وفق سياساتهم ، كانت ، في الحقيقة ، وهماً ، منحه

توازن الرعب جسداً زائفاً ، كل كتلة تتحجج بالشرعية الدولية، في مواجهة الكتلة الأخرى ، بهدف إعاقتها ، والحد من أطماعها، لكنها لا تتردد لحظة ، في الضرب بها عرض الحائط ، حين يتعلق الأمر بمصالحها . لا يمنعها عن هذا إلا خطر الصدام مع الكتلة الأخرى ، هكذا القوة لا تحدها إلا القوة ، لكن توازن الرعب أبقى الشرعية ستاراً .

هيئة الأمم المتحدة ، ومبدأ الشرعية الدولية ، وسيادة الدول، وعدم التدخل في شؤون الدول ، وما تفرع عن الهيئة الأمية من منظمات ، وإن وضعت حداً يمنع الصدام المباشر ، بين القوى الكبرى ، وجعلت العالم يتفادى حرباً ثالثة ، لا مثيل لدمارها ، بين الكتلتين ،إلا أن فعاليتها ظلت تتوقف على إرادة القوى الكبرى ، وعلى إمكانية استخدامها من قبل هذه القوى في خدمة مصالحها وسياساتها فظلت عاجزة عن حل أي مشكلة لا يرغب الكبار في حلها . فقضية فلسطين هي خير دليل .

هكذا لم يرغب الكبار في حل قضية فلسطين ، وإحقاق الحق، ذلك لأن بقاءها ملتهبة في خدمة الكتلتين . وهكذا أيضا سيطرت الولايات المتحدة على صندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي ، لتجعل من الدولار عملة دولية ، السلطان عليها لدولة واحدة فقط . وهكذا جرى ، إلى حد ما استخدام القات حتى تحولت إلى المنظمة العالمية للتجارة ، في خدمة عولمة اقتصاد العالم لصالح الرأسمال والشركات عابرة الوطنيات .

النظام العالمي ، القديم ، إذن كان يقوم على :

- من ناحية وجود كتلتين يتقاسمان ، تقريبا ، الهيمنة في العالم.
- اتفاقية يالطا التي قسمت النفوذ ووضعت خطاً احمر بين الكتلتين .
- الهيمنة لم تكن شاملة ، مما أتاح وجود دول غير منحازة ، حاولت التأثير في مجريات الأمور من خلال منظومة عدم الانحياز.
- الحرب الباردة ، وتوازن الرعب ، أعطيا بعض هامش الحركة والمناورة للبلدان غير المنحازة ، ومنحا هيئة الأمم ومنظماتها بعض الفعالية .

محاولة منع صدام القوى الكبرى . وكفالة الأمن والاستقرار، بما يحقق السلم العالمي ، الذي يخل به في الواقع . الانقسام إلى كتلتين ، ووضع حدود اتفاقية يمكن في إطارها تنافس الكتلتين ، دون الوصول إلى صدام مباشر . منح الدول الأخرى في العالم ، وهم المشاركة في إدارة شئون العالم ، والحفاظ على الأمن والاستقرار ، من خلال ذلك يمكن لأي من الكتلتين العمل على كسب الحلفاء ، أو العملاء ، تحت ستار سيادة الدول وعدم التدخل في شئونها .

تجسدت هذه المحاولة في إنشاء هيئة الأمم المتحدة ، على أنقاض عصبة الأمم ، والتي لم تستطع منع اندلاع الحرب عندما قررت ألمانيا ذلك . ووعياً بهذا أنشأ مجلس الأمن لضمان تفاهم الخمسة الكبار ،والذي وإن منع الصدام الشامل ، كما حصل

في الحرب الأولى والثانية ، إلا أنه لم يمنع الصدامات الإقليمية ، التي تغذيها سراً ، أو على الأقل بشكل غير رسمي ، القوى الكبرى ، ضد بعضها البعض ، بواسطة فعلة آخرين .

لكن مجلس الأمن نفسه يخضع لميزان توازن القوى ، طالما أن لا قوة كبرى تستطيع الانفراد بقرار دولي ، دون خشية رد فعل القوى الأخرى ، احتلال العراق كاد أن يطيح بالأمم المتحدة ، ومجلس الأمن ، كما أطاحت ألمانيا النازية بعصبة الأمم.

إذا كانت الأمم المتحدة قد نشأت استجابة لآمال أممية طموحة ومشروعة ، فإن مجلس الأمن ظهر لتفريغها من محتواها.

إن ما أشرنا إليه يؤسس قاعدة النظام العالمي القديم ، لكن انهيار الكتلة الشرقية ، أدى إلى تدمير هذه القاعدة ، وظهور بوادر انفراد قوة واحدة بالعالم ، مما شل فعل مجلس الأمن نفسه.

- انهيار الكتلة الشرقية أبقى كتلة واحدة ذات قوة وهيمنة وهذا بالطبع يغريها بمد هيمنتها على كل العالم ، حيث لم يعد يوجد ما تخشاه .

- نهاية الحرب الباردة لم تعد تترك بدائل أمام الدول الأخرى غير الكتلة الباقية .

- نهاية توازن الرعب ، أدت إلى وضع مبدأ عدم التدخل موضع سؤال ، واستبداله بمبدأ حق التدخل لأسباب إنسانية .

- مبدأ التدخل لأسباب إنسانية ، في وجود قوة مهيمنة واحدة ، صار يهدد سيادة الدول ويخاطر بقيام نظام وصاية عالمي .
- نهاية الحرب العالمية الثانية تمخضت عن انقسام العالم إلى كتلتين ، نهاية الحرب الباردة ، تقود إلى انقسام الحلفاء . أو الكتلة الغربية ، إغراء القوة بدفع أقوى مكوناتها ، الولايات المتحدة ، إلى الانفراد بالهيمنة العالمية من ناحية أخرى ، زوال الخطر الشيوعي يلغي الحاجة للحماية الأمريكية .
- شعور الرأسمالية بان انهيار الكتلة الاشتراكية انتصار لها ، والرغبة في التمدد والتوسع ، بدأ يتجسد في ظاهرة العولمة الاقتصادية ،
- إخفاق النظام السياسي للكتلة الشرقية . صار يغري بتقديم نموذج التعدد الحزبي ، على أنه النموذج الوحيد الذي على العالم الأخذ به وراء هذه القناعة بأنه لم يعد أمام العالم إلا خيار واحد .

إضافة إلى الانهيار الأيديولوجي ، الذي رافق الانهيار السياسي والاقتصادي للكتلة الشرقية . والذي أدى إلى ظهور مقولة نهاية التاريخ ، والذي يعني انتصار وخلود الرأسمالية ونظامها السياسي .

هذه العوامل لازالت تتفاعل ، بين أخذ ورد ، مد وجزر ، ولم تتمخض بعد عن نظام عالمي بمعنى هذا الاصطلاح .

إذن الـنظام العالمـي ، الذي يفترض أنه يحل محل القديم . لم يكتسـب بعـد محـتوى محـدد ، فهو لازال مجرد اصطلاح . بدون محـتوى ، حتـى الآن وهـذا مـا يجعل المرحلة الحالية ، من تاريخ العـالم ، خطـيرة جداً . إنها مرحلة انهيار النظام القديم ، بينما لم يتأسـس بعـد نظـام جديـد إنهـا مـرحلة أشـبه بالغوغائـية . في العلاقات الدولية ، وما يترتب على هذه الغوغائية من نزاعات ، ربمـا مسـلحة ،ومحـاولات استباق استقرار العالم ، وفرض الأمر الواقع ، الولايات المتحدة تبدو لاعباً نشطاً في هذه الغوغائية .

مـن أجـل تحديد محتوى لما يسمى اليوم نظام عالمي جديد ، تـتفاعل الآن تيارات واتجاهات ، لا يتورع بعضها عن استخدام القوة العسكرية كالعدوان على العراق مثلاً .

1 – مـن ناحـية ، انهـيار الكـتلة السـوفيتية ، أبـرز الـولايات المـتحدة كقـوة عسكرية – سياسية ، وحيدة ، حتى خيل للبعض إن القـرن سيكون أمريكيا ، بلا منازع . تسعى إلى فرض الهيمنة المباشـرة علـى العـالم . باعتبارها القوة الأعظم ، والتي لم تعد في حاجـة لا إلى شـرعية ولا إلى حلفـاء – شركاء في الكتلة الغربية سـابقاً ، هـذا التـيار تمـثله الـولايات المـتحدة ، حرب العراق ، مقدمـة لفـرض هـذه النظـرة . أو هـذا الـنظام العالمي الجديد ، والـذي صـار يقر بمبدأ التدخل لأسباب إنسانية ويتجاهل عمداً تحديـدها أو كيفية التدخل ، ومن يقوم به ، ومن يقرره ، بهدف استخدام هذا المبدأ أداة سياسية تبرر التدخل وتجاوز مبدأ سيادة الـدول ، في الوقت الذي ترفض فيه الولايات المتحدة الانضمام لمحكمة العقوبات الدولية .

2 - الاتحاد الأوروبي ، كقوة ذات اعتبار ، وإن لم يكن في مستوى الولايات المتحدة ، على الأقل عسكريا ، وبسبب تشابك مصالح الرأسمالية في مرحلة العولمة ، وبسبب افتقاده إلى وحدة سياسية ، يمكن أن تتجسد في قوة عسكرية ، وتستثمر قوته الاقتصادية ، هو الآن منشق على نفسه . البعض يرى الاكتفاء بكون الاتحاد منطقة ازدهار اقتصادي ، وترك المسألة الأمنية مهمة الولايات المتحدة . استمراراً للوضعية السابقة . بينما البعض الآخر ، يطمح إلى جعل الاتحاد يلعب دوراً أكثر فاعلية في شؤون العالم ، يتناسب مع قوته الاقتصادية . مما يدخله في نزاع مع الولايات المتحدة ، الحليف السابق . حرب العراق كشفت عن هذا الانشقاق . الاعتماد على الولايات المتحدة ، في المسائل الأمنية ، يقزم الاتحاد الأوربي . ويقلص من دوره عالميا، دون أن يعفيه من نتائجه السلبية . لكن الانشقاق يشل قدرة الاتحاد في وقت يجري فيه وضع أسس نحو نظام عالمي جديد .

ب- تيار آخر يذهب إلى ضرورة تفعيل صيغة جديدة ، من الشرعية الدولية ، بما يتجاوز الصيغة القديمة ، ويطورها نحو شرعية مستمدة حقاً من الجماعة الأممية ، دون تمييز بين كبير وصغير ، قوي أو ضعيف . وتطوير الجانب القانوني للحياة الدولية ؛ بإنشاء محكمة العقوبات الدولية لمعاقبة جرائم الحرب ، والإبادة ، والتطهير العرقي ، والاقتصاص من منتهكي حقوق الإنسان ، وعدم الاعتراف بأي حصانة .

- إذا كان هذا التيار يقر بمبدأ التدخل لأسباب إنسانية ، ويراها تطوراً إنسانيا ، وأن السيادة لا يجب أن تكون حائلاً دون انتهاك حقوق الإنسان والشعوب ، إلا أنه يرى تحديد أسباب التدخل ،

والهيئة المناط بها قرار التدخل ، ووسائله ، حتى لا يصير أداة مصالح سياسية .

المعارضون لحرب العراق ، والناشطون في الحركات والمنظمات الجماهيرية ، ضد العولمة ، والمدافعون عن حقوق الإنسان ، ودعاة السلام العالمي ، وأنصار البيئة ، والمثقفون التقدميون يقفون وراء هذا التيار .

- تيار آخر يرى أن العالم لم يعد في حاجة إلى دول ، عولمة الاقتصاد أنتجت واقعاً جديداً ، وتقود إلى حكومة عالمية ، تلك التي تدير اقتصاد العالم . وهذه أساساً شركات عابرة للوطنيات ، وتكنوقراط صندوق النقد والبنك الدولي . والمنظمة العالمية للتجارة .

من وجهة نظر هذا التيار ، السيادة الوطنية ، هي سبب النزاعات والحروب ، ومآسي العالم ، على العكس السوق المعولم وقوانينه ، كفيل بتنظيم حياة الناس ، عولمة السوق تلغي الهوية الوطنية ، وتزيل سبباً أساسيا وراء توترات العالم .

هذا التيار يميل أكثر نحو الولايات المتحدة ، ويدعم توجهها، ولا يرى مانعاً من بسط هيمنتها على العالم ، باعتبارها أداة فتح الأسواق أمام النظام العالمي الجديد ، نظام العولمة الاقتصادي ، سببان وراء هذا .

- قوة الرأسمال الأمريكي ، النسبية ، وحجم الشركات عابرة الوطنيات ذات الأصول الأمريكية .

- عندما تحقق قوة الولايات المتحدة الهدف منها ، فانه يسهل بعد ذلك تدبير أمرها .

- هذه التيارات لا زالت تتصارع بعضها لا يتردد في اللجوء إلى القوة العسكرية ، لتغليب وجهة نظره ومصالحه ، وعليه يكون من السذاجة تصديق أن هدفه دمقرطة دول العالم ، على العكس انتشار الديمقراطية يعني تقليص هيمنته عالمياً .

يمثل هذا التيار الولايات المتحدة ، ونخشى جدياً أنها تطيح بالأم المتحدة مثلما أطاحت ألمانيا النازية بعصبة الأمم.

- بعضها الآخر يستند إلى قوة الرأسمال ، والشركات العملاقة والإجراء التكنوقراط ، لإخضاع العالم ، وتأسيس نظام عولمة الاقتصاد . ولا يجد حرجاً في الاستعانة بقوة الولايات المتحدة ، العسكرية لتذليل العقبات .

- آخرون يستندون ، في الغالب إلى حركات جماهيرية ومنظمات مدنية وجماعات المثقفين والفلاسفة. ويراهنون على قوة الجماهير ووعيها في مواجهة قوة المال ، والآلة العسكرية .

بالتأكيد المعركة من أجل إعطاء محتوى للنظام العالمي الجديد، تستند ، في الغالب ، إلى مصالح ،وإلى تناقض المصالح ، خاصة بالنسبة لتيارين ، كل منهما يستند إلى مصالحه . القوة العظمى ، حاليا ، تريد الهيمنة عالميا لخدمة مصالحها ، وإشباعاً لجنون العظمة ، والرأسمال يريد سوقاً عالمياً مفتوحاً ، نظامه الجديد يقوم على ، ما يزعم ، قوانين السوق عالمياً ، حتى تكون حريته مطلقة في الاستغلال ونهب الخيرات ولو على حساب دمار البيئة . وبين الاثنين يقع الاتحاد الأوروبي .

بين هذه التيارات التناقض قائم ، لكنه ليس بعد واضحاً ، مؤجل إلى حين .

الآخـرون ، دول ، مثقفون ، حـركات جماهيريـة ، يدركون نقاط ضعفهم ، وأن قوتهم الوحيدة تكمن في إرساء قواعد نظام عالمـي ، علـى أسـس الشـرعية والقانـون . إنهـم لا يستطيعون مجابهـة القوة العسكرية الأعظم ، ولا قوة الرأسمال المعولم ، إلا استناداً إلى شرعية وقانـون دولـي . . الاتحاد الأوروبي لا يجد مانعاً من هذا .

نتائج المعركة سوف تحدد في حلبة الصراع . وفي هذا الميدان سـوف يمـنح النظام العالمي محتواه الجديد ، والذي لازال غائباً ، في انتظار انقشاع غبار المعركة.

إن مـا أثـاره العـدوان على العراق ، بين الشعوب والمثقفين وحتى الساسة ، على اختلاف الثقافات والحضارات والأديان ، يعكس الخوف من تأسيس نظام عالمي جديد ، على مبدأ القوة ، ضد القانون والشرعية .

بالطبع لكل تيار أهدافه ، ونتائجه ، هذه لازالت افتراضية ، لكـن لـيس مـن الصـعب التنبؤ بها ، وفق ما يؤسس كل تيار ، والذي يجعل الأهداف والنتائج ، في العموم ، واضحة مقدماً .

- إمـا عـالم غابـة يسـودها الأقوى، وهذا نتائجه كارثية على الإنسـان، وحضـارته، وعلـى العدالة والحرية والديمقراطية عالمياً .
- وإمـا عـالم السـوق ، كـل شـئ فـيه للبيع والشراء ، يشيع الاستغلال ويدمر البيئة ، ضد الحرية ، ويخرب الديمقراطية، وضـد كـل حضارات الإنسان ، والثقافات ، ويجعل القيمة الوحيدة المعترف بها هي قيم البورصة .

- وإما عالم تحكمه الشرعية ويسوده القانون ، استناداً إلى سيادة الدول ، والمساواة ، حيث تتعايش الحضارات وتزدهر الثقافات.

وإلى حين تنقشع غبار المعركة . ويتحدد النظام العالمي الجديد ، فإن الولايات المتحدة ، تبدو للكثيرين . القوة المهيمنة . إذ أحالها انهيار الاتحاد السوفيتي ، في أواخر سنوات التسعين ، وهو الطرف الأساسي في الردع الاستراتيجي ، برزت الولايات المتحدة ، الطرف الآخر ، قوة عظمى بدون منافس ، على مستوى العالم ، تبعات الانهيار السوفيتي تشغل روسيا . التي لازالت تملك إمكانيات الردع في توازن الرعب ، مشغولة بترتيب البيت الداخلي ، فإنها انسحبت ، نسبيا ، من مجال التنافس الدولي . وعدم وجود قوة عسكرية أوروبية ، ذات شأن ، منافس ، جعل كثيرين يستعجلون . ويعلنون أن القرن سيكون أمريكيا . لكن " إيمانويل تود " يقدم تحليلا مخالفا كلية، بالنسبة له، النظام الأمريكي يتفسخ ، وعمر الهيمنة الأمريكية قصير جداً.

هذا الكتاب الذي أقدمه للقارئ العربي ، يتدرج في إطار توقعات ما سيحل محل النظام المدعو " عالمي " الذي ساد من نهاية الحرب الثانية حتى الانهيار السوفيتي . لقد استعجل البعض ، ومن مظاهر عرضية تعكس بقايا النظام المنهار ، توقعوا الهيمنة الأمريكية على مدى كل القرن الجديد . المعركة قائمة ، وثمة أطراف تتصارع في حلبة العالم. (تود) يركز أكثر على أحد الأطراف. وربما يبدو اليوم أهمها ، ضجيج طائراته يصم الأذان ، وأساطيله تنتشر في البحار ، ويضع جنوده ،

كبيادق الشطرنج ، في مختلف أنحاء العالم يسكره ما يعتقده انتصاراً نهائياً. وهيمنة شاملة .

ايمانويل تود يكشف الوهم ، هذه القوة الهائلة ليست إلا نتاج ضعف . وكلما تمادى في استعراضها ، من خلال عمليات عسكرية مسرحية ، موجه ضد الضعفاء ، كلما أُنِهكَ واستنفذ ما بقيت له من قوة . القوة الحقيقية ، بالنسبة للكاتب ، هي القوة الاقتصادية والسكانية ، والحضارية ، الولايات المتحدة لم تعد تملك القوة الاقتصادية ، إنها اقتصادياً في حالة تبعية للعالم . العالم لم يعد في حاجة للولايات المتحدة ، وإنما الولايات المتحدة في حاجة إلى العالم ، هذا ربما الذي يخيفها ، ويجعلها تكشر عن أنيابها . لكن زوال الخطر الشيوعي ، جعل القوة العسكرية الأمريكية غير ذات جدوى للعالم .

أما من ناحية السكان ، والحضارة ، فان أمريكا ، منذ زمن، تخلت عن القيم العالمية ، والتي تتطلبها كل هيمنة عالمية ، وانكفأت في نزعة اختلافيه تؤثر جداً على انسجامها السكاني .

ثمة إذن حاليا قوتان ، القوة العسكرية السياسية ، والقوة الاقتصادية ، الصراع لازال يدور في الكواليس ، وراء الستار .

الكاتب يركز أكثر على آليات وعوامل انهيار القوة العسكرية والسياسية للولايات المتحدة . في إطار وجود القوة الاقتصادية الأوروبية ، ويكشف انه إن كان ثمة صدام حضارات، كما يذهب هانتينتفتون ، فسيكون أكثر احتمالا بين أوروبا والولايات المتحدة ، وليس بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي . إرادة الهيمنة الأمريكية ، في وقت لم تعد تملك

مؤهلاتها ولا قيمها الحضارية ، وما تخلقه من اضطرابات وتوترات، في جوار أوروبا ، وانعكاسات هذا سلباً على الأمن الأوروبي ، يجعل الصدام مع القوة الاقتصادية والحضارية الأوروبية ، أمراً أكثر احتمالاً .

الولايات المتحدة ، بإثارة الاضطرابات ، والقلاقل ، والحرب على الإرهاب المزعوم ، تريد البرهنة ، لأوروبا وللعالم، انه لازال في حاجة لقوتها العسكرية ، لكن هذا بالضبط ما يثير أوروبا ، والعالم ضد أمريكا ، ويكشف ليس فقط عن عدم جدوى قوتها العسكرية ، بل أيضا خطورتها على الأمن والسلام ، هكذا تحالفات جديدة يمكن أن تظهر ، لفرملة الجنون الأمريكي .

وإذا كان الكاتب لا يمس إلا عرضاً ، قوى أخرى ، ويركز أكثر على الولايات المتحدة ، كلاعب دولي حالي ، وهي موضوع الكتاب الأساسي ، إلا أنه يشير إلى التحدي الأوروبي الذي يواجهه ، ويتناول قوى عالمية أخرى ، ذات علاقة . بالنسبة له عودة روسيا ، بقوتها النووية الاستراتيجية ، سوف يساهم في إضعاف الهيمنة العسكرية الأمريكية ، ويحصرها في عمليات مسرحية تستهدف الضعفاء . ويسمح لأوروبا بالمناورة أكثر ، خاصة إذا ما تحقق التقارب الروسي الأوروبي ، وهو أهم خطر يهدد الهيمنة الأمريكية حاليا . ومع إن إضعاف روسيا ، ومنع التقارب الروسي الأوروبي ، هو أهم الأهداف الإستراتيجية الأمريكية ،إلا أن فرصة ذلك يبدو قد فاتت ، وسلوك الولايات المتحدة ، دولياً ، يدفع أوروبا وروسيا في هذا

الاتجاه . إضافة إلى قوة اليابان الاقتصادية ، والتي يمكن أن تضيق ذرعاً بالهيمنة الأمريكية ، وتنحاز لأوروبا .

الكاتب يستند إلى منطق بسيط ، القوة الاقتصادية الأوروبية تجـذب بلدان الجوار الأوروبي ، بينما القوة العسكرية الأمريكية تخيف وتدفع إلى الابتعاد عن الولايات المتحدة الأمريكية .

ثمـة مكـون عالمـي آخر لم يهمله الكاتب ، وانصف كثيرا في تـناوله ، انـه الإسـلام والعـرب . وإذا كـان العـالم العربـي – الإسـلامي ، لا يملـك قوة اقتصادية ، أو عسكرية ، وهذا سبب اضـطهاده الآن مـن الـولايات المـتحدة ، الـتي مـن وراء هـذا الإذلال، توجه رسالة إلى أوروبا ، وبقية العالم ، في محاولة إثبات وجـودها ، في عـالم لم يعد يحتاج لحمايتها ، بقدر ما يخشى سطوة قـوتها . العـالم العربي والإسلامي بكثافته السكانية ، وحضارته التاريخـية ، يمكـن جـدا أن ينضم إلى أوروبا . غطرسة الولايات المـتحدة تدفعـه في هذا الاتجاه ، ومن مصلحة أوروبا ، اقتصاديا وأمنياً ، أن يشملها مع العالم العربي – الإسلامي فضاء واحداً . عندئذ عزلة أمريكا مؤكدة ، وتكون قد جنت على نفسها .

ايمانـويل تـود واضح في توقعاته ، المعركة الحالية لن تكون ، علـى المـدى ، في صـالح الهيمـنة الأمريكية ، ومهما استعرضت قواتها فان هذا نفسه يعجل بضياع هيبتها وينجز عزلتها .

لـيس أمام الولايات المتحدة ، إذا أرادت تتفادي هذا المصير إلا أن تعـيد النظـر في سلوكها الدولي ، وأن تقبل أن تكون أمة بين الأمم وليس فوق الأمم .

العالم ربما في حاجة لأمريكا ، عاقلة ، وراشدة ، ديمقراطية تضع قوتها في خدمة السلام والأمن ، وليس لإثارة القلاقل ، وخلق الاضطرابات وبث الصراعات الدينية ، وإلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام ، والإبقاء على معاناة الفلسطينيين .

الولايات المتحدة ارتكبت خطأً إستراتيجيا ، عندما اعتقدت أن إبقاء العالم في حالة توتر واضطراب ، والحيلولة دون حل عادل للقضية الفلسطينية ، سوف يؤكد حاجة العالم للقوة الأمريكية . على العكس هذا أكد للعالم خطورة القوة الأمريكية، وجعل العالم العربي الإسلامي ينهض ضد أمريكا .

الكاتب يذهب إلى أن الإرهاب العالمي كذبة أمريكية ، لان أعمال العنف موجهة ضد أمريكا ، وليس ضد العالم ، رداً على عدائها للعرب والمسلمين ،والذي يترجم التراجع في النزعة العالمية داخلياً ، وبروز النزعة الاختلافية ، العداء الأمريكي ضد العرب والمسلمين في العالم هو انعكاس لشيوع النزعة الاختلافية في المجتمع الأمريكي ، ضد السود ، والأسبانوفون .. وليس من مصلحة أوروبا ، الجار القريب للعالم العربي والإسلامي ، أن يحسب عليها الموقف الأمريكي ، الكاتب صريح في دعوته لأوروبا : ما تدعوه أمريكا إرهابا عالميا لا يعني أوروبا وان كان يؤثر عليها سلباً ، بما تثيره الحرب ضد الإرهاب ، المزعوم ، من قلاقل واضطرابات وزعزعة الاستقرار .

مع ذلك ، ليس هذا نهاية المعركة من أجل نظام عالمي جديد، إذ يظل السؤال : كيف سيكون النظام الجديد في عالم أمم؟ ، القوى الأخرى ، الكامنة حاليا نسبياً ، مثل الصين ، الهند ، العالم العربي – الإسلامي ، المنظمات الإنسانية على

تنوعها ، خصوم العولمة الاقتصادية ، المثقفون والفلاسفة الداعون إلى عالم إنساني لهم أيضا كلمتهم .

الديمقراطية ستكون الخطر العظيم الذي يهدد الهيمنة الأمريكية ، وعامل أساسي في نظام عالمي ، حقاً جديد .

السؤال الذي يطرح ، عندما تنتهي من قراءة هذا الكتاب ، هو : بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، برزت هيمنة الولايات المتحدة عالميا ، هذه الهيمنة ، كما يذهب الكاتب ، عمرها قصير جداً ، وهي حاليا تتفسخ ، إذن ما هو النظام العالمي الذي سوف يترتب على تفسخ النظام الأمريكي ، وصيرورة الولايات المتحدة ، شاءت أم أبت ، أمة بين أمم العالم . كيف ينظم العالم نفسه عالمياً ؟

النظام العالمي الجديد ، هكذا لازال اسماً بدون محتوى ، المعركة القادمة سوف تعطيه محتواه ، هذا المحتوى يتوقف على كل إنسان . وعلى كل إنسان تحمل مسئوليته . إن موقفنا جميعاً سوف يحدد كيف سيكون النظام العالمي ، ومن ثم أهدافه ووسائله . الأمر إذن يتوقف على وعي الشعوب ، حتى لا يكون تفسخ النظام الأمريكي لصالح نظام آخر لا يقل عنه جبروتاً وطغياناً . على الشعوب أن تقول كلمتها ، من أجل نظام عدالة ، وحرية ومساواة وحوار حضارات وثقافات الإنسان ، ومؤسسات دولية ديمقراطية حقاً ، تكفل الأمن والأمان ، واحترام القانون دولياً ، والاستقرار من أجل ازدهار الإنسان .

قـدرنا أن نعـيش بـين مـرحلتين ، انهـيار نظـام قـديم ، وإرهاصـات نظـام جديـد ، وأن نعاني غوغائية المرحلة المابين ، الـتي تشـيعها الـولايات المـتحدة في كل مكان ، لكن فرصتنا أن نرسـم الـنظام العالمـي الجديـد حـيث نـريد أن يعـيش ويعـيش أطفالنا.

هـذا الكـتاب ، الذي ما إن فتحته لم أغلقه حتى استوعبته ، ووجـدت نفسـي مدفـوعاً إلى تـرجمته ، مـؤلفه عـالم ديمغـرافي ومـؤرخ، لا يخفـى أصـوله الـيهودية ، دون أن يؤثـر ذلـك في أحكامـه وفي نظـرته . فهو يؤكد أن العالم العربي – الإسلامي ، يملـك إمكانـيات تطـوره الذاتـي ، ولـيس في حاجـة لـدروس أمـريكية ، كمـا أن مـا يمـزق هـذا العالم ، في مرحلته الانتقالية ، والتي يدعوه البعض إرهاباً ، ليس أسوأ مما مزق أوروبا في تاريخ لـيس ببعـيد ، العـنف الحالـي ، في هـذا العـالم ، لا يـرجع إلى الإسلام إلا إذا كان عنف الحروب الدينية ، التي شهدتها أوروبا، والعنصـرية في أمريكا ، يرجعان إلى المسيحية . العنف ، في العالم العربـي – الإسـلامي ، سـببه المـرحلة الانتقالـية ، حـيث يزداد التصـلب الأيديولوجـي ، إيـذاناً بالتغـيير ، العـالم العربـي الإسلامي، يمكنه اجتياز هذه المرحلة دون تدخل أجنبي .

هـذا الكـتاب ، ربمـا ، غـير قابـل للتلخيص ،إنه يحلل بدقة علمـية ، مسـار النظام الأمريكي نحو التفسخ ، واستحالة تكون إمـبراطورية أمريكية ، العالم أوسع ،واكثر كثافة سكانيا ، وتنوعاً وديناميكية من أن يقبل هيمنة قوة واحدة .

التحلـيل الـذي يقـوم بـه يستند إلى معلومات موثوقة ، عن القوى الديمغرافية ، والتعليمية ، والصناعية والمالية ، والعسكرية

والأيديولوجية ، التي تشكل عالم اليوم ، ويراها تدحض التوقع الذي يزعم أن القرن سيكون أمريكياً .

إيمانويل تود ، لا يشكك في أن الولايات المتحدة أمة كبرى ، لكنه يرى أن اندثارها كقوة عالمية ، يبدو أمراً لا مفر منه . نشاطها العسكري المسرحي ، المبالغ فيه ، هو محاولة إخفاء انهيارها . أما الحرب على الإرهاب ومحور الشر ، فهما مجرد مبررات ، لأنها لم تعد قادرة على السيطرة على القوى الاقتصادية والاستراتيجية ، وهي أوروبا ، روسيا ، اليابان ، الصين ، فإنها توجه قوتها نحو الضعفاء .

العالم العربي-الإسلامي، يقدم الضحية المثالية، ضعفه يجعلها لا تتحمل مترتبات عدوانها، من الواضح إذن أن إيمانويل تود يرى أن ضعف العالم العربي الإسلامي هو سبب تكبده الغطرسة الأمريكية وليس الإرهاب، الولايات المتحدة، هكذا، في استعراض قوتها على العالم العربي الإسلامي، الضعيف، وخاصة عسكرياً، تحاول البرهنة على قوتها للأقوياء، إنها بدلاً من "مواجهة الأقوياء" تهاجم الضعفاء. لكنها هكذا ستخسر ما بقي لها من قوة وهيبة، الانتصار على العراق هو عار العسكرية الأمريكية، ولن يمنع تفسخ النظام الأمريكي، أمريكا محكوم عليها أن تعود أمة بين أمم العالم وليس فوق أمم العالم.

لكن حتى ذلك الحين، إذا كانت قوى العالم الأخرى، تستطيع الوقوف متفرجة، نسبياً، في مأمن، بفضل قوتها، على تخبطات هذا الغول الجريح في عظمته، فإننا نحن العرب والمسلمون ضحية هذه التخبطات.. هذا يجعل قراءة هذا الكتاب مفيدة.

أ.د. رجب بو دبوس

افتتاحية

الـولايات المـتحدة في طـريقها لان تكـون مشـكلة بالنسـبة للعالم، لقد تعودنا أن نرى عندها الحلول ، كافلة الحرية السياسية والـنظام الاقتصـادي خـلال نصـف قـرن ، إلا أنها تبدو ، أكثر فأكثر ، عامل اضطراب دولي ، تنشر ، حيث تستطيع ، اللايقين والنـزاع . إنهـا تطلـب من العالم كله ، أن يسلم بأن بلدانا ذات أهمـية ثانـوية ، تمثل محـور الشـر ، وإنه يجب محاربتها والقضاء علـيها : العـراق ، صـدام حسـين ، كـثير الكـلام ، لكـنه بدون أهمـية، كقـوة عسكرية . كوريا الشمالية ، كيم جونق أيل ، أول وآخـر شـيوعية ، أسسـت نظام وراثة ، بقايا عصر في طريقه إلى الـزوال . إيـران هـدف آخـر يمـثل هاجسـاً لأمـريكا ، إنهـا بلد اسـتراتيجي مهـم ، لكـنه في غياب أي تدخل خارجي ، ينخرط بوضـوح ، في عملـية تهدئة داخلية وخارجية . مع ذلك تعتبره الحكومة الأمريكية عضواً كامل العضوية في محور الشر هذا .

الـولايات المتحدة استفزت الصين ، بأن قصفت سفارتها في بلغـراد بالقـنابل ، خـلال حـرب كوسـوفو ، وحشـت الطائـرة البويـنج ، المخصصة لقادتها ، بأجهزة تصنت سهلة الاكتشاف . ومـا بـين ثـلاث عـناقات علنية واتفاقين لنزع السلاح النووي ، اسـتفزت روسـيا أيضـا ، بـأن أشـرفت ، بواسـطة راديو أوروبا الحـرة، على برامج باللغة الشيشانية ، وأرسلت خبراء عسكريين إلى جورجـيا ، وأقامـت قواعد دائمة في أسيا الوسطى السوفيتية سابقاً ، في مواجهة الجيش الأحمر .

أخـيراً القمـة النظـرية لهـذه الحمـى العسـكرية ، سـرب البنـتاجون، أو تـرك تتسـرب ، وثائـق تشـير إلى إمكانـية توجيه ضربات نووية لبلدان ليست نووية .

حكومة واشنطون تطبق هكذا موديل استراتيجي كلاسيكي، لكنه لا يتناسب مع أمة على مستوى قارة : إنها " استراتيجية الجنون " والتي تعني الظهور بالنسبة لخصوم محتلين ، بمظهر غير المسؤول ، من أجل إخافتهم أكثر.

أما بالنسبة لإقامة درع فضائي ، والذي يحطم التوازن النووي ، والذي تطوره النهائي يتيح للولايات المتحدة السيطرة على كل العالم ، بواسطة الرعب ، ويجبرنا على الحياة في عالم جديد بعلم الخيال .

كيف نستغرب الوضع الجديد ، المتمثل في الخوف والريبة ، الذي أخذ يسيطر على البعض بعد البعض الآخر ، وعلى كل الذين يقيمون سياستهم الخارجية على مبدأ مطمئن : القوة العظمى الوحيدة هي قبل كل شئ قوة مسؤولة ؟ .

الحلفاء وأتباع الولايات المتحدة ، التقليديون ، هم أيضا قلقون ، وأكثر قلقاً ربما لأنهم يوجدون قرب المناطق التي يصفها قادة الولايات المتحدة بأنها حساسة : كوريا الجنوبية ، تكرر في كل مناسبة أنها لا تشعر بالتهديد من قبل جارتها الشيوعية الشمالية ، الكويت تؤكد أنها لم يعد لها خلاف مع العراق .

روسيا ، الصين ، إيران ، ثلاث أمم ، أولوياتها المطلقة التطور الاقتصادي ، لم يعد يشغلها غير شاغل استراتيجي واحد: مقاومة الاستفزاز الأمريكي . الأكثر من هذا أن الأمور انقلبت ، وما كان غير ممكن التفكير فيه قبل عشر سنوات ، صار واقعاً : الولايات المتحدة من النضال من أجل استقرار ونظام العالم ، صارت مصدر اضطراب واختلال نظام العالم .

حلفاء الولايات المتحدة الكبار ، صاروا في حيرة وإحراج أكثر فأكثر ، في أوروبا ، حيث فرنسا وحدها ذات نزعة استقلالية ، صرنا نلاحظ ، مع بعض المفاجأة ، ألمانيا غاضبة ، والمملكة المتحدة ، أكثر الاتباع إخلاصا ، صارت ببساطة قلقة ، أما من الجانب الآخر ، من أوراسيا ، فإن صمت اليابان يعبر عن انزعاج يتعاظم ، أكثر منه انحياز بدون ثغرات .

الأوربيون لا يفهمون لماذا ترفض أمريكا حل المسألة الإسرائيلية الفلسطينية ، مع أنها تملك السلطان والقدرة على ذلك . لقد بدأوا يتساءلون ما إذا لم تكن واشنطون ، في العمق ، راضية عن وجود بؤر توتر دائم في الشرق الأوسط ، وان تظهر الشعوب العربية عداءها المتعاظم نحو العالم الغربي ! .

منظمة القاعدة ، عصابة إرهابيين ، مرضى وعباقرة ، ظهرت من منطقة محدودة من أراضي العربية السعودية ، حتى لو أن ابن لادن ومساعديه ، جندوا بعض الهامشيين المصريين ، وحفنة آخرين جاءوا من ضواحي مدن أوروبا الغربية . إلا أن أمريكا تجهد ، مع ذلك ، لان تجعل من القاعدة قوة ثابتة وشريرة : الإرهاب . الحاضر في كل مكان ، من البوسنا ، إلى الفيليبين ، من الشيشان وحتى الباكستان ، من لبنان إلى اليمن . لتجعل هكذا شرعياً كل إجراء عقابي ، في أي مكان وضد أي كان .

إن رفع الإرهاب إلى مستوى قوة عالمية ، يؤسس حالة حرب دائمة على مستوى الكوكب ، حرب رابعة عالمية ، وفق بعض الكتاب الأمريكان ، الذين عندما اعتبروا الحرب الباردة

حرباً ثالثة [1] ، كل شيء يجري كما لو أن الولايات المتحدة ، تبحث ، لسبب غامض ، عن الحفاظ على مستوى معين من التوتر الدولي ، وحالة حرب محدودة ، ولكن معدية .

سنة واحدة فقط بعد 11-9 ، مثل هذه النظرة لأمريكا تبدو متناقضة ، ذلك أنه في الساعات التي أعقبت عملية مركز التجارة العالمية ، ظهر أمام أنظارنا البعد الأشد عمقاً والأكثر تعاطفاً للهيمنة الأمريكية : سلطان مسلم به ، في عالم يقبل ، في أغلبه ، أن تنظيم رأسمالي للحياة الاقتصادية ، وديمقراطي للحياة السياسية ، وحده المعقول والممكن . لقد رأينا آنذاك بوضوح أن القوة الأساسية للولايات المتحدة كانت شرعيتها .

تضامن أمم العالم كان مباشراً ، وكلها أدانت العملية . حلفاء أوروبيون ، انطلاقاً من رغبة نشطة في التضامن ، عبروا عنها في التزامات حلف الأطلسي . روسيا ، من جانبها ، انتهزت الفرصة ، وأعلنت أنها ترغب ، فوق كل شيء ، في علاقات طيبة مع الغرب ، إنها هي التي زودت تحالف الشمال الأفغاني بالسلاح الذي يحتاجه ، وفتحت أمام القوات المسلحة الأمريكية ، الفضاء الاستراتيجي اللازم ، والذي لا غنى لها عنه في آسيا الوسطى . بكل تأكيد ، بدون المشاركة الروسية النشطة فإن الهجوم الأمريكي في أفغانستان كان مستحيلاً .

عملية 11/9 أبهرت علماء النفس : انكشاف هشاشة أمريكا ، أدى إلى اختلال ، ليس فقط لدى البالغين ، وإنما لدى أطفالهم أيضاً . أزمة نفسية حقيقية عرّت عندئذ الهندسة العقلية

---

1 - نورمان بود هورتيز : كيف تربح الحرب العالمية الرابعة ؟ تعليقات فبراير ص 19-28 .

للكـوكب ، حيث أمريكا قوة عظمى ولكن شرعية ، تمثل حجر الأسـاس اللاواعي . أنصار وخصوم الأمريكان صاروا كأطفال حـرموا مـن السلطة التي كانوا يحتاجونها، سواء للخضوع لها أو حتـى لمقاومـتها . باختصـار عملـية 9/11 كشـفت عـن السمة الإراديـة في عبوديتنا ، نظرية السلطان الرحيم " لجوزيف ني " تحققت بشكل رائع : أمريكا لا تحكم فقط ، ولا بشكل أساسي، بواسـطة قـوة السـلاح ، وانما بفضل سمعة قيمها ، ومؤسساتها وثقافتها .

ثلاثة شهور بعد ذلك ، أخذ العالم يستعيد توازنه الاعتيادي. أمـريكا المهزومة عادت ، بواسطة بعض الغارات ، قوة عظمى . الأتـباع اعـتقدوا أن بإمكـانهم ا لعـودة إلى أعمـالهم ، والـتي في أساسـها اقتصـادية وداخلـية . أمـا المعارضـون ، أو المحـتجون ، فـانهم يسـتعدون للانطـلاق مـن حـيث وقفـوا : التنديد الدائم بالإمبراطورية الأمريكية .

لقـد توقعـنا أن جـراح 9/11 ، النسبية جـداً . مقارنـة بما أصـاب الأوربـيين ، والـروس ، واليابانـيين والفلسـطينيين مـن ويـلات الحـروب ، تجعـل الأمريكان يقتربون من قدر الإنسانية المشـترك ، ويحسون أكثر بمعاناة الفقراء والضعفاء : العالم يحلم : اعـتراف كل الأمم ، أو على الأقل معظمها ، بسلطان الولايات المتحدة ، سوف يقود إلى ظهور إمبراطورية خير حقيقية ، معذبو الأرض يقـبلون سـلطان مركـزي ، والمسـيطرون الأمـريكان يخضعون لمبدأ العدالة .

عندئذ السلوك الدولي للولايات المتحدة بدأ يحدث تغيراً في إدراكـنا ، لقـد رأيـنا خـلال كـل سـنة 2002 ، تظهر نزعة نحو

الطرف الواحد ، والتي سبق أن شاهدناها في النصف الثاني من سنوات التسعين ، عندما رفضت واشنطون ، في ديسمبر 97 اتفاقية أوتوا التي تحظر الألغام المضادة للأشخاص وفي 98 رفضت الاتفاقية المؤسسة لمحكمة العقوبات الدولية . التاريخ بدأ يستعيد مجراه السابق مع رفض الولايات المتحدة اتفاقية كويتو حول انبعاث الغاز الكاربوني .

الكفاح ضد القاعدة ، والذي كان من المفترض أنه يؤسس شرعية الولايات المتحدة ، لو أنها قامت به بشكل معتدل وعاقل، أظهر عدم مسئوليته في أشكال لا تحصى . صورة الولايات المتحدة ، النرجسية ، المضطربة ، والعدوانية ، حلت خلال بضعة أشهر ، محل صورة الأمة الجريحة ، المثيرة للتعاطف، والضرورية لتوازننا ، .. لقد وصلنا إلى هنا .. لكن أين نحن حقيقة ؟ .

في العمق ، الأشد إقلاقا في الوضع الحالي ، هو غياب نموذج تفسيري كافٍ للسلوك الأمريكي : لماذا القوة العظمى الوحيدة لم تعد ، طبقاً للتقاليد التي تأسست غداة الحرب العالمية الثانية ، متسامحة ومسئولة ؟ لماذا نشطة جداً ومخلة بالتوازن ؟

هل لأنها قوية جداً أو على العكس ، لأنها تشعر أن العالم الذي بدأ يتكون يتملص من سيطرتها ؟ .

قبل التوجه نحو إعداد نموذج تفسيري دقيق ، للسلوك الأمريكي الدولي ، يجب علينا التخلص من الصورة النمطية عن أمريكا ، والتي مشكلتها الوحيدة هي الإفراط في القوة .

المضـادون لأمـريكا ، المعترضون لا يفيدوننا ، لكن مفكري المؤسسة الأمريكية سيكونون لنا مرشدين ، موثوقاً فيهم .

- العودة إلى إشكالية الانهيار .

المضـادون البنـيويون لأمـريكا ، يقترحون جوابهم الاعتيادي : أمـريكا سيئة بطبيعتها ، إنها تجسيد دولي لمظاهر الشر في النظام الرأسمالي .

الـيوم الفـرحة كـبيرة لهؤلاء المضادين لأمريكا ، الدائمين ، سـواء كانـوا أم لا معجـبين بالطغـاة المحلـيين الصـغار ، أمـثال كاسـترو ، وسـواء فهموا أم لم يفهموا الفشل النهائي للاقتصاد المـوجه . إنهـم أخـيرا يستطيعون ، دون إثارة السخرية ، طرح المسـاهمة السلبية للولايات المتحدة ، في توازن وسعادة العالم ، علاقـة الواقـع مع زمن هؤلاء المضادين البنيويين لأمريكا ، هو زمن ساعة عاطلة ، والتي مع ذلك تكون صادقة مرتين في اليوم الأكثـر نموذجـية مـن بين هؤلاء ، هم أمريكان ، لنقرأ نصوص نـاوم شومسكي ، لن تجد فيها أي وعي بتطور العالم ، بعد كما قـبل الانهـيار السـوفيتي ، أمـريكا هـي نفسها : عـسكرية قامعة ليـبرالية زائفـة . في العراق اليوم كما في فيتنام منذ ربع قرن[1] . لكـن أمريكا وفق شومسكي ، ليست فقط شريرة بل أيضا قوة عظمى .

في شـكل آخر ، أكثر ثقافية وأكثر حداثة ، يمكننا أن نورد : جهـاد ضـد صـناع العـالم ، لبـنجامان بادبر ، والذي يرسـم لنا

1 - شومسكي : دور القوة في شؤون العالم . بلوتودس - لندن 2000 .

لوحة عالم تخربه صراعات بين بنية تحتية أمريكية حقيرة ، ونزعة قبلية متبقية لا يمكن احتمالها [1]، لكن النصر المعلن للأمركة يشير إلى ان بنجامان يظل ، ما وراء مكانته السياسية ، وبدون أن يعي ذلك ، أمريكا وطنياً . لكنه أيضا يبالغ في تقدير قوة بلاده .

في نفس الصدد ، أي المبالغة في التقدير ، نجد مفهوم القوة العظمى الأمريكية ، أيا كان الاحترام والتقدير الذي توحي به السياسة الخارجية التي يقودها هوبير – فدرين ، عندما كان وزيراً للشئون الخارجية . إننا يجب أن نسلم بأن هذا المفهوم ، عندما يعمل ، يضلل المحللين أكثر مما ينير طريقهم .

مثل هذه التصورات لا تساعدنا على فهم الوضع الحالي ، إنها تفترض مقدماً أمريكا مبالغاً فيها ، أحيانا في بعدها الشرير، ودائما في بعدها القوي انها تمنعنا من اختراق غموض السياسة الخارجية الأمريكية ، لأن الحل يجب البحث عنه في جانب الضعف وليس في جانب القوة .

مسار استراتيجي متقلب وعدواني ، باختصار مسار المخمور للقوة العظمى الوحيدة ، لا يمكن تفسيره ، بشكل مرض ، إلا بالكشف عن التناقضات التي لم تحل ، أو التي غير قابلة للحل ، وعن مشاعر العجز والخوف التي تترتب عنها .

الاطلاع على التحليلات التي أنتجتها المؤسسة الأمريكية ، تكون أكثر فائدة ، فيما وراء كل اختلافاتهم ، نجد عند بول كندي ، صامويل هانتينقتون ، زيقنيو بريزنسك ، هنري

1 - بنجامان بادبر : جهاد ضد صناع العالم – نيويورك 1995 .

كيسنجر ، أوروبرت جلبان ، نفس النظرة المقاسية ، عن أمريكا، والتي ليست فقط غير قابلة للهزيمة ، وإنما عليها إدارة صعوبة الاختزال النسبي لقوتها في عالم يزداد سكانه ويتطور أكثر .

تحليلات القوة الأمريكية متنوعة : اقتصادية عند كيندي أو جلبان ، ثقافية دينية عند هانتينقتون ، دبلوماسية عسكرية عند بريزنسكي وكيسنجر ، لكننا دائما في مواجهة تصور قلق لقوة الولايات المتحدة ، والتي سلطانها على العالم يتبدى هشاً ومهدداً .

كيسنجر ، بغض النظر عن إخلاصه لمبادئ الواقعية الاستراتيجية ، والإعجاب الذي يحمله لذكائه الخاص ، يفتقد هذه الأيام لنظرة كلية ، كتابه الأخير ، : هل أمريكا في حاجة إلى سياسة خارجية ؟ [1] . ليس أكثر من قائمة تعدد المشاكل المحلية . لكننا نجد في " قيام وسقوط القوى العظمى ، لبول كندي ، وهو كتاب قديم يرجع إلى عام 1988 ، التصور الأكثر فائدة ، عن نظام أمريكي مهدد بالتوسع الامبريالي ، والذي توسعه الدبلوماسي والعسكري ينتج ، تقليدياً ، عن انهيار القوة الاقتصادية النسبية [2] .

صامويل هانتينقتون نشر عام 1996 كتابه صدام الحضارات ، صيغه مطولة لمقالة نشرت عام 1993 في مجلة الشؤون الخارجية ، والتي في مجموعها تشاؤمية صراحة . لدينا شعور ، أحيانا ، ونحن نطالع هذا الكتاب ، بأننا نطالع نسخة

---

1 - هنري كيسنجر : هل أمريكا في حاجة لسياسة خارجية ؟ نيويورك 2001 .

2 - بول كندي : قيام وانهيار القوى العظمى – لندن 1988 .

استراتيجية من كتاب اشبنجلر : انهيار الغرب . هانتينتقون ذهب حتى الاعتراض على عالمية اللغة الإنجليزية ، وأوصى بتراجع متواضع للولايات المتحدة نحو الحلف الأوروبي الغربي، وهو كتلة كاثوليكية بروتستانتية ، مستبعدا ارثودوكس الشرق الأوروبي ، وتاركا لمصيرهما ، قاعدتي النظام الاستراتيجي الأمريكي ، وهما اليابان وإسرائيل ، اللتان وصمهما بطابع الأخروية الثقافية . .

رؤية روبير جلبان تمزج الاعتبارات الاقتصادية والثقافية ، إنها رؤية جامعية جداً . حذرة جداً ، وذكية جداً . لأنه يعتقد في استمرارية الدولة – أمة ، فان جلبان ، في كتابه عولمة السياسة الاقتصادية ، يدرك نقاط الضعف الافتراضية في النظام الاقتصادي والمالي الأمريكي ، في مواجهة التهديد الأساسي وهو أقلمة العالم : إذاً أوروبا واليابان ، نظم كل منهما ، من جانبه ، مناطق نفوذه ، فان هذا يجعل من غير المجدي وجود مركز أمريكي للعالم ، مع الصعوبات التي يرتبها ، في هذه التكوينات ، إعادة تحديد الدور الاقتصادي للولايات المتحدة[1] .

لكن بريزنسكي ، الذي في عام 97 ، في كتابه رقعة الشطرنج الكبيرة ، بدأ يرى بصورة أوضح ، رغم عدم اهتمامه بالمسائل الاقتصادية[2] . لكي نفهم جيداً نظرته للأمور ، يجب إلقاء نظرة على مجسم الكرة الأرضية ، وان نعي العزلة الجغرافية الكبيرة للولايات المتحدة . المركز السياسي للعالم يصير في الواقع بعيداً عن العالم .

---

1 – روبير جلبان : عولمة السياسة الاقتصادية ، فهم النظام الاقتصادي العالمي 2001.

2 – ذبقنيو بريزنسكي : رقعة الشطرنج الكبيرة – نيويورك 1997

بريزنسكي متهم بأنه امبريالي ، متغطرس ، عنيف ، توصياته الاستراتيجية يمكن أن تثير الضحك ، خاصة عندما يشير إلى أوكرانيا وأوزبكستان ، على أنهما أشياء ضرورية للاهتمام الأمريكي . لكن نظرته لشعوب واقتصاد العالم وأنهما يتركزان في أوراسيا ، أوراسيا الموحدة بسبب انهيار الشيوعية ، متجاهلة الولايات المتحدة ، المعزولة في عالمها الجديد ، هي نظرة أساسية ، إنها حدس واضح بالتهديد الحقيقي الذي يتربص بالنظام الأمريكي .

- تناقضات فوكوياما : أمريكا من النصر إلى عدم الجدوى:

إذا أردنا فهم القلق الذي ينخر المؤسسة الأمريكية ، فان علينا التفكير جدياً في الترتيبات الاستراتيجية ، بالنسبة للولايات المتحدة نفسها ، عن فرضية نهاية التاريخ التي يقترحها فوكوياما.

هذه النظرية ظهرت في السنوات 89 – 92 ، وأثارت سخرية المثقفين في باريس ، لقد أدهشهم الاستخدام المبسط والجيد الذي قام به فوكوياما هيجل[1] ، التاريخ له معنى ، ونقطة نهايته هي عالمية الديمقراطية الليبرالية ، انهيار الشيوعية ليس إلا مرحلة في مسيرة الحرية الإنسانية ، والتي تلي مرحلة أخرى مهمة ، والتي كانت سقوط الدكتاتوريات في أوروبا الجنوبية : البرتغال ، أسبانيا أو اليونان . بزوغ الديمقراطية في تركيا يسجل ضمن هذه الحركة ، وكذلك ، تدعيم الديمقراطيات الأمريكو لاتينية .

1 - فوكوياما : نهاية التاريخ واخر إنسان – لندن 1992 .

هذا النموذج الذي اقترح في نفس لحظة انهيار النظام السوفيتي . والذي يقدم تصوراً للتاريخ الإنساني في عمومه ، استقبل في فرنسا على أنه نموذج نمطي يعبر عن السذاجة والتفاؤل الأمريكي ، بالنسبة لمن يتذكر هيجل الحقيقي ، خاضعاً لبروسيا ، محترماً السلطة اللوثرية ، مقدساً الدولة ، فان هذا التصور عن ديمقراطية فردية يمكن أن يثير البهجة ، إنه هكذا بالضبط هيجل لطفه أستوديو ديزني ، والذي يقدمه لنا فوكوياما. ثم إن هيجل يهتم بمسيرة الروح في التاريخ ، أما فوكوياما ، عندما يتطرق إلى التعليم ، فانه يفضل دائماً العامل الاقتصادي ، ويبدو أحيانا اكثر قرباً من ماركس[1] الذي يعلن صيغة أخرى لنهاية التاريخ . السمة الثانوية للتطور التربوي في نموذج فوكوياما ، تجعله هيجلياً غريباً جداً ، متأثراً بالضرورة بالنزعة الاقتصادية في الحياة الثقافية الأمريكية .

بعد هذه التحفظات ، يجب علينا ، مع ذلك ، أن نعترف بان له نظرة تجريبية ، نشطه وثاقبة، في التاريخ الذي يتكون . ملاحظة أن انتشار الديمقراطية الليبرالية منذ عام 1989 ، تصير إمكانية تستحق البحث ، هو في ذاته عمل جيد . المثقفون الأوروبيون، أقل اهتمام بحركة التاريخ ، ركزوا جهودهم التحليلية على محاكمة الشيوعية ، أي على الماضي ، فوكوياما كان له الفضل في الرهان على المستقبل . هذا أشد صعوبة لكنه أعظم فائدة . من جانب اعتقد أن نظرة فوكوياما تحتوي جانباً مهما من الحقيقة ، لكنها لا تدرك استقرار العالم في كل أبعاده السكانية – الديمقراطية – والتربوية التعليمية.

---

1 - نفس المرجع ص 116 " التربية تبدو كنتاج للمجتمع الصناعي ".

لنترك الآن لحظة ، مشكلة مصداقية فرضية فوكوياما ، حول دمقرطة العالم ، ونركز على تضمناتها ، على مدى متوسط ، بالنسبة للولايات المتحدة .

فوكوياما يدخل في نموذجه قانون ميكائل دويل ، الذي يؤكد على استحالة الحرب بين ديمقراطيات ليبرالية ، والذي ظهر عام 1980 ، مستلهما كانت أكثر من هيجل [1] .

مع دويل نحن في مواجهة حالة من التجريبية الانجلوساكسونية، ساذجة في الظاهر ، لكنها منتجة في الممارسة .

كون أن الحرب تكون مستحيلة بين ديمقراطيات ، يشهد على ذلك دراسة التاريخ العيني ، والذي يبرهن على أنه ، وإن كانت الديمقراطيات ليست بمنأى عن الحرب مع نظم مختلفة عنها ، إلا أنها لا تتقاتل أبدا فيما بينها .

الديمقراطية الليبرالية الحديثة تتوجه نحو السلام ، في كل الظروف ، لا يمكننا لوم الديمقراطية الفرنسية والبريطانية في أعوام 33-1939 ، عن نزعتها الحربية . ولا يمكننا إلا أن نلاحظ ، بكل أسلف ، انعزالية الديمقراطية الأمريكية حتى بيرل هاربور ، دون أن ننفي وجود نزعة وطنية في فرنسا وفي بريطانيا قبل عام 1914 ، لكن يجب التسليم بأن النمسا والمجر وألمانيا ، حيث الحكومات عمليا لم تكن مسؤولة أمام البرلمان ، هي التي جرت أوروبا إلى الحرب العالمية الأولى .

المنطق يقول إن شعباً على مستوى تعليمي عال ، ومستوى حياة مرضي ، من الصعب أن ينتج أغلبية برلمانية مُنتخبه قادرة

---

1 - ميكائيل دويل : كانت ، الشرعية الليبرالية والسياسة الخارجية 1983.

على إعلان حرب كبرى ، شعبان منظمان بشكل متماثل ، سيجدان حتماً حلاً سياسيا لخلافاتهما ، لكن الطغمة الفالتة ، التي تقود ، من حيث المبدأ ، نظاماً ليس ديمقراطيا وليس ليبراليا، تجد مجالا أوسع لكي تقرر الحرب ضد رغبة السلام عند أغلبية الناس العاديين عموما .

إذا أضفنا عالمية الديمقراطية الليبرالية ، إلى قانون استحالة الحرب بين الديمقراطيات ، فوكوياما إلى دويل ، فإننا نحصل على عالم يستقر في سلام أبدي .

أحد الساخرين ، من ذوي التقليد الأوروبي القديم ، سوف يضحك ساخراً ، مشيراً إلى القدرة الدائمة ، وغير المعتبرة ، عند الإنسان ، لعمل الشر والحرب ، لكن دون الوقوف عند هذا الاعتراض ، فإننا نستمر في التفكير : لنبحث عن مترتبات هذا النموذج على أمريكا . اختصاصها العالمي ، كان ، بسبب لعبة التاريخ ، الدفاع عن مبدأ ديمقراطي ، بدا مهدداً من قبل النازية الألمانية والنزعة العسكرية اليابانية والشيوعية الروسية أو الصينية . الحرب العالمية الثانية ، ثم الحرب الباردة ، جعلت هذه الوظيفة التاريخية لأمريكا تصير مؤسسة ، لكن إذا انتصرت الديمقراطية في كل مكان ، فإننا نصل إلى التناقض النهائي : الولايات المتحدة ، باعتبارها قوة عسكرية ، تصير غير ذات جدوى بالنسبة للعالم ، ويتوجب عليها عندئذ أن تسلم بأن لا تكون إلا ديمقراطية بين ديمقراطيات أخرى .

انعدام جدوى أمريكا هو أحد قلقين أساسيين بالنسبة لواشنطون ، وأحد المفاتيح التي تسمح بفهم السياسة الخارجية للولايات المتحدة . التعبير عن هذا الخوف الجديد ، على لسان

مسؤولي الدبلوماسية الأمريكية ، أخذ في معظم الأحيان ، وبشكل متكرر ، شكل تأكيد معاكس ، في فبراير 1995 ، اولبرايت ، وزيرة الدولة في عهد كلينتون ، بينما كانت تحاول تبرير إطلاق صاروخ على العراق ، عرفت الولايات المتحدة بأنها " الأمة غير الممكن الاستغناء عنها "[1] هكذا كما رأت جيداً ساشا قيتري : "عكس الحقيقة قريب من الحقيقة " . التأكيد رسمياً على أن الولايات المتحدة لا غنى عنها ، يعني أن مسألة جدواها ، بالنسبة للعالم ، قد طرحت . القادة السياسيون يدعون ، هكذا ، يتسرب ، فيما يشبه خطأ في التعبير ، قلق المحللين الاستراتيجيين . أولبرايت تعبر بشكل نفي عن نظرية بريزنسكي ، الذي يلاحظ الوضع المعزول للولايات المتحدة ، بعيدة عن أوراسيا ، العاملة ، والمزدحمة بالسكان ، حيث يخاطر التاريخ بأن يتركز ، تاريخ عالم بدون توترات .

في العمق ، بريزنسكي يسلم بالتهديد الضمني المترتب عن تناقض فوكوياما ، ويقترح تكتيكاً دبلوماسياً وعسكريا من اجل الاحتفاظ بالسيطرة على العالم . انه لا يقبل العالمية المثيرة للتعاطف في النموذج الفوكويامي ، ويرفض احتمال أن القيم الديمقراطية والليبرالية ستمتد لتشمل كل العالم ، ويلجأ إلى تصنيف ديني وعرقي للشعوب ، والتي معظمها غير صالح ، بطبيعته لتطبيق النموذج الغربي .

في هذا المستوى من التفكير ، ليس أمامنا الاختيار بين عدة إمكانات تاريخية : هل يمكن تعميم الديمقراطية الليبرالية ؟ وإذا كان الجواب نعم ، فهل ستحمل السلام ؟

---

1 - إذا كان علينا استعمال القوة فلأننا أمريكا .. نحن أمة لا غنى عنها ، نحن نرى بعيداً في التاريخ .

لكن يتوجب علينا أن نفهم ان بريزنسكي وهانتينتقون يردان علـى فوكـوياما ، وان احتمال عزلة الولايات المتحدة متناقض ، بينما العالم كله قلق من قوتها ، ويمثل هاجساً للنخبة الأمريكية .

بـدلا مـن أن تغـريها العـودة إلى العزلة ، فان أمريكا تخشى العـزلة ، تخشـى أن تجـد نفسـها وحـيدة في عالم لم يعد في حاجة إلـيها. لكـن لمـاذا الآن تخشـى أمـريكا الابتعاد عن العالم ، بينما كانـت العـزلة سبب وجودها منذ إعلان الاستقلال عام 1776 حتى بيرل اربور عام 1941 ؟

- من الاستقلال الذاتي إلى التبعية الاقتصادية :

هـذا الخـوف مـن الصيرورة بدون جدوى ، ومن العزلة التي تترتـب عـنها ، هـو ، بالنسـبة للولايات المتحدة ، أكثر من كونه ظاهـرة جديـدة ، إنـه انقـلاب حقيقـي لصـورتها التاريخـية ، الانفصـال عـن العـالم القـديم ، الفاسـد ، كان إحدى الأساطير المؤسسة لأمريكا ، وربما أساسها نفسه . أرض الحرية والرخاء ، والكمـال الأخلاقـي ، فان الولايات المتحدة اختارت أن تتطور مسـتقلة عـن أوروبا ، وبدون التورط في الصراعات المدمرة بين أمم القارة القديمة .

عـزلة القـرن 19 ، لم تكـن في الواقـع ، إلا دبلوماسـية وعسـكرية ، لأن القـوى الاقتصادية للولايات المتحدة ، أمكنها أن تـتغذى علـى تدفقين ضروريين ، جاءا من أوروبا ، أحدهما تدفـق الرأسمال . والآخر تدفق العمل . الاستثمار الأوروبي ، وهجرة يد عاملة ذات مستوى تعليمي عالٍ . كانا وراء الازدهار

الاقتصادي للتجربة الأمريكية . في نهاية القرن 19 ، أمريكا لم تكن تملك الاقتصاد الأقوى في العالم ، وإنما أيضا الأكثر اكتفاء ذاتياً . منتجة بغزارة للمواد الخام ، وذات فائض كبير في المستوى التجاري .

في بداية القرن العشرين ، الولايات المتحدة لم تكن في حاجة للعالم . وإذا أخذنا في الاعتبار قوتها الفعلية ، نجد أن تدخلاتها الأولى في أسيا وفي أمريكا اللاتينية ، كانت آنذاك متواضعة .

لكن الحرب العالمية الأولى أظهرت أن العالم في حاجة إلى أمريكا ، الولايات المتحدة قاومت نداء العالم بعض الوقت ، حتى عام 1917 بالتحديد ، ثم عادت من جديد واختارت العزلة ، عندما رفضت التصديق على معاهدة فرساي ، هكذا توجب انتظار بيرل هاربور ، وإعلان ألمانيا الحرب على أمريكا ، لكي تأخذ أمريكا مكانا في العالم ، والذي يتناسب مع قوتها الاقتصادية ، كان ذلك ، إن شئنا القول ، بمبادرة من اليابان وألمانيا .

عام 45 الناتج الوطني الخام الأمريكي ، كان يمثل اكثر من نصف الناتج العالمي ، هكذا نتائج الهيمنة كانت آلية ومباشرة .

بالتأكيد كانت الشيوعية عام 1950 تغطي قلب أوراسيا ، من ألمانيا الشرقية حتى كوريا الشمالية . لكن أمريكا ، قوة بحرية وجوية ، تسيطر استراتيجيا على بقية العالم ، بمباركة العديد من الحلفاء والاتباع ، الذين كانت أولويتهم الكفاح ضد النظام السوفيتي . هكذا بموافقة جزء كبير من العالم ، قامت الهيمنة

الأمريكية ، رغم الدعم الذي قدم للشيوعية من قبل العديد من المثقفين والعمال والفلاحين هنا وهناك ....

يجب أن نسلم ، إذا أردنا فهم تتابع الأحداث ، أن هذه الهيمنة كانت ، خلال عدة عقود ، مفيدة ، بدون الاعتراف بهذه السمة ، أي إن هيمنة الولايات المتحدة كانت مفيدة سنوات 50 إلى 1990 ، فإننا لن نستطيع فهم أهمية التحول التالي للولايات المتحدة ، من كونها مفيدة إلى كونها عديمة الفائدة .

هيمنة السنوات 50-90 ، على الجزء غير الشيوعي ، من العالم ، استحقت – تقريباً – أن تسمى إمبراطورية ، الموارد الاقتصادية ، العسكرية الأيديولوجية ، منحت الولايات المتحدة، زمنا ، كل أبعاد القوة الامبراطورية . هيمنة المبدأ الاقتصادي الليبرالي ، في المجال الذي تقوده واشنطون ، سياسياً وعسكريا ، انتهت بأن غيرت العالم ، هذا ما يسمى عولمة .

لكن الهيمنة على المدى ، ولكن في العمق ، أثرت في البنية الداخلية للأمة المهيمنة لقد أضعفت اقتصادها ، وشوهت مجتمعها . العملية كانت في البداية ، بطيئة ، وتدريجية ، دون أن ينتبه لها صناع التاريخ ، لقد نشأت علاقة تبعية بين الولايات المتحدة ومجال سيطرتها ، عجز تجاري أمريكي ظهر ، منذ بداية أعوام 70 كعنصر بنيوي في الاقتصاد الأمريكي .

انهيار الشيوعية أدى إلى تسارع مأساوي لعملية التبعية ، بين عام 90 و 2000 ، انتقل العجز التجاري الأمريكي من 100 إلى 450 مليار دولار ، من أجل إعادة التوازن لحسابها الخارجي، فان أمريكا في حاجة إلى تدفق الرأسمال الأجنبي

بكميات مساوية للعجز . في بداية هذا القرن الثالث ، الولايات المتحدة لم تعد تستطيع الحياة على إنتاجها وحده ، في نفس الوقت حيث العالم ، في إطار عملية استقرار تربوي – تعليمي وسكاني ، وديمقراطي ، يوشك أن تكتشف أن بإمكانه الاستغناء عن أمريكا . بينما أمريكا أدركت أنها لا تستطيع الاستغناء عن العالم .

النقاش حول العولمة ، بعيد نسبياً عن الواقع ، لأنه يقبل ، في غالب الأحيان ، التصور الأرثوذكسي للتبادل التجاري والمالي ، على أنه يتجانس وحسابي ، والذي فيه لا تحتل أية أمة مكانا خاصا . المفاهيم المجردة ، عن العمل الفائدة ، الربح انتقال الرأسمال ، تخفي عنصراً أساسيا : الدور الخاص الذي لأهم الأمم في التنظيم الجديد للعالم الاقتصادي . إذاً وضع أمريكا تدنى كثيراً في علاقة القوة الاقتصادية النسبية ، إلا أنها نجحت في زيادة كبيرة لقدرتها على الانتزاع من الاقتصاد العالمي ، لقد صارت موضوعيا قرصاناً .

مثل هذا الوضع هل يجب تفسيره كعلامة قوة أو ضعف ؟ المؤكد أن أمريكا عليها الكفاح ، سياسيا وعسكريا ، لتحتفظ بهيمنة صارت منذئذ لا غنى لها عنها بالنسبة لمستوى الحياة فيها.

هذا الانقلاب في علاقة التبعية الاقتصادية ، هو العامل الثاني ، والذي مركباً مع الأول : تعدد الديمقراطيات . يسمح بأن نفسر الوضع العالمي الغريب ، والسلوك العجيب للولايات المتحدة ، وحيرة العالم : كيف يمكن إدارة قوة عظمى اقتصاديا تابعة ، ولكن سياسياً لا جدوى منها ؟ .

يمكن أن نوقف هنا إعداد هذا النموذج المقلق ، وأن نطمئن أنفسنا ، بأن نتذكر ، أنه بعد كل شيء ، أمريكا ديمقراطية ، وأن الديمقراطيات لا تتحارب ، وأنه بالنتيجة ، الولايات المتحدة لا يمكنها أن تشكل خطراً على العالم ، ولا أن تكون عدوانية وصانعة حروب . وأنه من خلال محاولات وأخطاء حكومة واشنطون ، ستجد الولايات المتحدة ، في النهاية ، الطريق إلى إعادة التكيف الاقتصادي والسياسي مع العالم الجديد هذا .. لم لا ؟ .

لكن يجب علينا أيضا أن نكون واعين ، بأن أزمة الديمقراطية المتقدمة ، هي أكثر فأكثر واضحة ، وأكثر فأكثر إثارة للقلق ، خاصة في أمريكا ، وأن هذا لا يسمح لنا بأن نعتبر الولايات المتحدة أمة مسالمة بطبيعتها .

التاريخ لا يتوقف ، الظهور العالمي للديمقراطية ، لا يجب في الواقع أن ينسينا ، إن الديمقراطية الأكثر تقدما ، الولايات المتحدة ، بريطانيا ، فرنسا ، خاصة ، تستمر في التطور . كل شيء يشير حاليا إلى أنها تتحول تدريجياً إلى نظم اوليقادشية . مفهوم الانقلاب المفيد في فهم العلاقة الاقتصادية للولايات المتحدة مع العالم ، يفيد أيضاً في تحليل ديناميكية الديمقراطية في العالم : الديمقراطية تتقدم هنا حيث هي ضعيفة ، وتتراجع هناك حيث هي قوية .

- فساد الديمقراطية الأمريكية والحرب كإمكانية :

قوة فوكوياما تكمن في أنه كشف سريعاً عن عملية استقرار العالم غير الغربي ، لكن مفهومة للمجتمعات ، رأينا هذا ، بقي متأثراً بنزعة اقتصادية ، إنه لم يجعل عامل التعليم المحرك

الأساسي للتاريخ ، ولم يهتم – إلا قليلاً – بالديمقرافية – السكان – .

فوكوياما لا يرى أن محو أمية الجماهير ، هو المتغير التفسيري المستقل ، في قلب الموجة الديمقراطية والفردية التي يكشف عنها. من هنا يأتي خطأه الأساسي : استنتاج نهاية التاريخ من تعميم الديمقراطية الليبرالية . مثل هذه الخلاصة تفترض أن هذا الشكل السياسي مستقر وإن لم يكن كاملاً ، فان تاريخه يتوقف حالما بتحققه . لكن إذا كانت الديمقراطية ليست إلا بنية سياسية فوقية ، لمرحلة ثقافية ، فان التعليم الابتدائي ، واستمرارية الاندفاع التربوي مع تطور التعليم الثانوي والعالي ، لا يمكنه إلا أن يجعلها تختل في الأماكن حيث ظهرت لأول مرة ، في البداية ، ثم في لحظة تحققها في البلدان التي أدركت فقط مرحلة محو أمية الجماهير .

التعليم الثانوي ، وخاصة العالي ، يعيد إدخال مفهوم اللامساواة ، في التنظيم العقلي والأيديولوجي للمجتمعات المتطورة ، أصحاب التعليم العالي ، بعد فترة تردد ووعي زائف، ينتهون بأن يعتقدوا أنفسهم حقاً متفوقين . هكذا في البلدان المتطورة ، تظهر طبقة جديدة ، ذات وزن ، للتبسيط 20 ٪ من البنية الاجتماعية على المستوى العددي ، و 50 ٪ على المستوى النقودي . هذه الطبقة الجديدة ، تجد صعوبة أكثر فأكثر في تحمل ارغامات الانتخابات العامة .

موجة محو الأمية جعلتنا نعيش في عالم توكفيل ، والذي بالنسبة له المسيرة نحو الديمقراطية هي عناية إلهية ، تقريباً إرادة مقدسة ، موجة التعليم العالي تجعلنا نعيش ، اليوم ، مسيرة

عـناية إلهـية " أخـرى كارثـية : نحـو الأوليقادشـية . إنهـا عودة مدهشـة لعـالم أرسـطو حـيث الأوليقادشـية يمكـن أن تلـي الديمقراطية.

في نفـس اللحظـة حـيث الديمقـراطية تـبدأ في الظهـور في أوراسـيا، فإنهـا تـذبل في مهـدها ، المجتمع الأمريكي يتحول إلى نظـام هيمـنة على أساس اللامساواة . هذه الظاهرة كشف عنها جيـداً مـيكائل لاند ، في كتابه " الأمة الأمريكية القادمة[1] ، إننا نجـد في هـذا الكـتاب ، وبشـكل خـاص ، أول وصـف منهجي للطبقـية الجديـدة للقـيادات الأمريكية ما بعد الديمقراطية : إنها طبقة ما فوق الطبقات .

لا يجـب أن نكـون غـيورين ، فرنسا أيضا متقدمة ، تقريبا ، مـثل الـولايات المـتحدة في هذا الطريق . هذه الأنظمة السياسية تكـون ديمقـراطية غـربية ، في قلبها تصارع النخبة والشعوبيين ، حيث يستمر الانتخاب العام ، لكن فيه نخبة اليمين ونخبة اليسار تـتفقان لمـنع أي تـوجه للسياسـة الاقتصـادية يقـود إلى خفـض اللامسـاواة . عالم يختل أكثر فأكثر ، فيه اللعبة الانتخابية تقود ، في نهاية مواجهة إعلامية هائلة . إلى نفس الوضع القائم .

التفاهم الودي بين النخب ، يعكس وجود مبدأ أعلى للنظام السياسي الظاهري من التفكك، حتى عندما الانتخاب العمومي يطرح إمكانية حدوث أزمة . جورج بوش الابن ، اختير كرئيس للولايات المتحدة في نهاية عملية غامضة ، والتي لا تسمح بتأكيد انـه فـاز بالمعنى الحسابي لكن الجمهورية الكبرى ، الأخرى ، في

1 - ميكائل لاند : " الأمة الأمريكية القادمة " . نيويورك 1995 .

التاريخ ، فرنسا ، تقدم وقتاً قليلاً بعد هذا حالة معاكسة ، وإذن قريبة جدا وفق منطق ساث قينري : رئيس الجمهورية انتخب بحوالي 82 ٪ من الأصوات . هذا الشبه إجماع الفرنسي ، هو نتاج آلية أخرى ، سوسيولوجية وسياسية ، تعبر عن انسداد الطموحات ، جاءت من 20 ٪ من الأسفل ، بواسطة 20 ٪ من الأعلى ، الذين يسيطرون اديولوجيا على 60 ٪ الوسط . لكن النتيجة هي نفسها : العملية الانتخابية لم تعد لها أهمية عملية ، ومعدلات الامتناع ترتفع بشكل لا يقاوم .

في بريطانيا نفس عملية التحجر الثقافي تجري ، لقد حللها مبكراً مكائيل يونق ، في " ظهور حكم النخبة " بحث قصير " ، تنبؤي ، لأنه ظهر عام 1958[1] لكن المرحلة الديمقراطية في انجلترا كانت متأخرة ومتواضعة ، الماضي الارستقراطي القريب، المتجسد دوما في بقاء طبقات بشكل واضح ، يسهل الانتقال الهادي نحو العالم الجديد ، عالم الاوليقادشية الغربية ، الطبقة الأمريكية الجديدة لا تثير الحسد ، ذلك لأنها تظهر في صورة تعصب لغوي إنجليزي ، وفي الحنين إلى الماضي الفيكتوري ، والذي ليس ماضيها[2] .

إذن غير صحيح وغير عادل أن نقصر أزمة الديمقراطية على الولايات المتحدة فقط. بريطانيا وفرنسا ، الأمتان العرقيتان الليبراليتان ، شريكتا الديمقراطية الأمريكية ، تاريخيا ، ينخرطان في عملية انحطاط اوليقادش بالتوازي مع أمريكا . لكنهما ، في النظام السياسي والاقتصادي المعولم يكونان تحت الحماية ، أو

1 - ميكائيل يوفعه : ظهور حكم النخبة 1985 .
2 - المرجع السابق ص 145 .

الهيمنة ، يجب عليهما ، إذن ، الأخذ في الاعتبار توازن تبادلهما التجاري . مسارهما الاجتماعي ، في لحظة معطاة ، يجعلهما ينفصلان عن مسار الولايات المتحدة . لا أعتقد إنه بالإمكان الحديث عن أوليقادشية غربية كما كان يجري الحديث عن ديمقراطيات غربية .

لكن هذا الانقلاب الكبير الثاني ، الذي يفسر صعوبة العلاقات بين أمريكا والعالم ، يعني أن التقدم العالمي للديمقراطية يخفي ضعف الديمقراطية في مهدها حيث ولدت . هذا الانقلاب لم يدركه جيداً المشاركون في اللعبة العالمية ، أمريكا تتحدث جيداً ، بسبب العادة ، وليس نفاقاً ، لغة الحرية والمساواة ، وبالتأكيد دمقرطة العالم لازالت أبعد من نهايتها .

لكن هذا العبور إلى مرحلة أوليقادشية جديدة ، يلغي تطبيق قانون دويل ، حول الآثار المهدئة بالضرورة التي للديمقراطية الليبرالية ، على الولايات المتحدة . إننا إذن نستطيع افتراض سلوك عدواني من طرف فئة قيادية خارج السيطرة ، وسياسة حربية مغامرة أكثر ، في الحقيقة ، إذا فرضيته صيرورة أمريكا اوليقادشية ، تسمح لنا بأن نقلص مجال صلاحية قانون دويل ، فإنها تسمح لنا ، فوق كل شيء ، بأن نقبل الواقع التجريبي لأمريكا عدوانية . إننا لن يكون في مقدورنا استبعاد – مقدماً – فرضية استراتيجية عن أمريكا معتدية على ديمقراطيات حديثة أو قديمة ، بهاتين الفرضيتين نحن نوفق ، ليس بدون بعض الحيلة، بين المثاليين الانجلوساكسون ، الذين يتوقعون من الديمقراطية الليبرالية وضع نهاية للصراعات العسكرية ، وبين

الواقعيين ، من نفس الثقافة ، الذين يرون حقل العلاقات الدولية مجالا غوغائياً مسكونا بدول عدوانية ، في بداية العصر .

القبول بأن الديمقراطية الليبرالية تقود إلى السلام يجعلنا نقبل، أيضا ، ان انحطاطها يمكن أن يقود إلى الحرب . حتى لو كان قانون دويل صحيحاً ، لن يكون هناك سلام أبدي على الطريقة الكانتية .

- نموذج تفسيري :

سوف أطور في هذا الكتاب نموذجاً تفسيرياً ، شكليا متناقضاً ، لكن يمكن تلخيص جوهره ببساطة كافية :

في نفس اللحظة حيث العالم يكتشف الديمقراطية ، وينذر بالاستغناء سياسيا عن أمريكا ، فان هذه تتجه إلى فقدان سماتها الديمقراطية ، وتكتشف أنها لا تستطيع الاستغناء اقتصاديا عن العالم .

العالم إذن في مواجهة انقلابين أو انقلاب مزدوج . :

انقلاب في علاقة التبعية الاقتصادية بين العالم والولايات المتحدة .

وانقلاب الديناميكية الديمقراطية . والتي من الآن إيجابية في اوراسيا ، سلبية في أمريكا .

هاتان العمليتان الاجتماعيتان التاريخيتان ، بعد طرحهما ، يمكننا فهم الغرابة الظاهرة في أعمال الأمريكان .إنّ هدف الولايات المتحدة لم يعد الدفاع عن نظام ديمقراطي وليبرالي ،

والذي يفقد محتواه في أمريكا نفسها . الحصول على سلع مختلفة، والرأسماليين صارت له الأولوية .

هدف الولايات المتحدة الاستراتيجي الأساسي ، صار السيطرة السياسية على موارد العالم .

مع ذلك قوة الولايات المتحدة ، الاقتصادية والعسكرية ، المتهالكة ، لا تسمح لها بالسيطرة،عمليا،على عالم صار أكثر اتساعاً وأكثر سكانا . وأكثر تعليماً وديمقراطية . تحطيم العقبات الحقيقية في وجه الهيمنة الأمريكية ، المتمثلة في الفعلة الاستراتيجيين الحقيقيين ، وهم روسيا ، أوروبا واليابان ، هو هدف غير كامل للتحقيق ، لأنه مبالغ فيه . مع هؤلاء يجب على أمريكا التفاوض ، وفي أغلب الأحيان الانصياع . لكن عليها العثور على حق حقيقي أو وهمي لمشكلة تبعيتها الاقتصادية المقلقة ، يجب عليها ، ولو رمزيا ، البقاء في مركز العالم ، لهذا السبب فإنها تستعرض على المسرح قوتها ، آسف قوتها العظمى ، هكذا نشاهد تطور نزعة عسكرية مسرحية ، تشمل ثلاث عناصر أساسية :

- عدم حل أي مشاكل نهائياً ، من أجل تبرير عسكري غير محدد تقوم به القوى العظمى الوحيدة على مستوى العالم .
- التركيز على قوى صغيرة — العراق ، إيران ، كوريا الشمالية ، كوبا .. الخ ، الطريقة الوحيدة لبقاء أمريكا سياسيا في قلب العالم ، هي مواجهة فعلة صغار ، لإظهار قوتها ، من أجل منع ، أو على الأقل ، تأخير وعي القوى

الكبرى ، المدعوة لتقاسم السيطرة على العالم ، مع أمريكا : أوروبا ، روسيا ، اليابان ، على المدى المتوسط ، والصين على المدى البعيد .

- تطوير أسلحة جديدة ، يفترض وضع الولايات المتحدة ، دائما إلى الأمام في سباق تسلح ، والذي لا يجب أن ينتهي أبداً .

هذه الاستراتيجية ، تجعل حقيقة ، من أمريكا ، عقبة جديدة وغير منتظرة في طريق سلام العالم . لكنها ليست بحجم يثير التهديدات ، قائمة وحجم البلدان المستهدفة يحدد موضوعياً قوة الولايات المتحدة ، قادرة وبالأكثر على مواجهة العراق ، إيران، كوريا ، أو كوبا ، ليس هناك إذن سبب يدعو للخوف والتنديد بظهور إمبراطورية أمريكية ، والتي في الواقع في طريقها إلى التفسخ عشر سنوات بعد اختفاء الإمبراطورية السوفيتية .

مثل هذا الامتثال لعلاقات القوة في العالم ، يقود بالطبع ، إلى بعض المقترحات ذات طابع استراتيجي ، والتي هدفها ليس زيادة مكاسب أمة أو أخرى ، وإنما إدارة انهيار أمريكا لصالح جميع الأمم .

الفَصْلُ الأَوَّلُ

خرافة الإرهاب الدولي

صورة العالم التي شاعت بين الغربيين ، خلال العشر أو الخمس عشر سنة ، كانت كارثية ، يوم بيوم شكلت وسائل إعلامنا صورة للكوكب ، مبنى على الكراهية ، يخربه العنف ، وحيث تتوالى ، بنسق متسارع ، مجازر الأفراد والشعوب : الإبادة الرواندية ، مواجهات دينية في نيجيريا وساحل العاج ، صراع الجماعات الصومالية ، حرب أهلية غامضة في سيراليون والإغتصابات في جنوب إفريقيا ، المحررة ، مع ذلك من الميز العنصري ، اغتيالات المزارعين البيض في زامبابوي ، ارهاب جماعي في الجزائر . وإذا غيرنا القارة نجد ثورة إسلامية في إيران ، هدأت جداً هذه الأيام ، الصراع في الشيشان ، الغوغائية في جورجيا ، حرب بين أرمينيا وأذربيجان حول امتلاك كاراباخ العليا ، مطالب الحكم الذاتي الكردي في تركيا وفي العراق ، حرب أهلية في طاجكستان ، عمليات كشميرية في الهند ، تمرد التاميل في سيريلانكا ، مواجهات بين الهندوس والمسلمين في كودجار ، حرب عصابات إسلامية في الفليبين ، حركات إسلامية متطرفة في آسيا شمال سومطرا ، مجازر المسيحيين في تامور الشرقية على يد القوات الخاصة الإندونيسية ، نظام طالبان المثير للسخرية في أفغانستان ، وفي أمريكا اللاتينية : خطف اليساريين للرهائن في كولومبيا ، وثورة الشاويش ماركوس ، تظهر في قارة شبه هادئة . بعد ذلك أوروبا : حيث نجد تفكك يوغسلافيا ومجازر الكروات والبوسنة المسلمين والصرب ، وسكان كوسوفو ، مثل تيار جارف أعطت الانطباع بان العنف سوف ينتشر في عالمنا – أوروبا – الذي كان يبدو هادئا غنياً وعتيقاً . وسيكون من غير الأنصاف ألا نشير إلى قمع النظام الصيني لمظاهرات الطلاب في ميدان تيانامين عام 1989 ،

وأن ننسى قمة جنون البشر وهو الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي ، لننهي، مع ذلك هذه القائمة السوداء بانهيار برجي التجاري العالمية ، والذي جرى باسم الله بواسطة أشخاص انتحاريين ، جاءوا مما نسميه عادة العالم الثالث . لا داعي حصر كل مظاهر العنف اكثر مما فعلته وسائل الإعلام ، في كل يوم ، مع ذلك من الصعب ألا نستخلص من قائمة الأحداث الدموية هذه ، الشعور بأن العالم في حالة جنون ، وأننا نعيش على جزيرة ، يحافظ عليها بصعوبة بالغة ، إلا إذا اعتبرنا حرق السيارات في ضواحي مدننا ، ومهاجمة المعابد اليهودية في فرنسا، في ربيع عام 2002 ، وعبور جان ماري لوبان إلى المرحلة الثانية في الانتخابات الرئاسية الأخيرة ، كما لو أنها إرهاصات بربرية الغرب.

الامتثال السائد عن عالم يخربه العنف ، يشجع على رؤية علمية للتاريخ : إنها تشير إلى التراجع . كل هذه المجازر لا يمكن أن يكون لها معنى إلا : أن العالم يسوده الظلام ، والتطور يفشل، والتقدم يجب أن يوضع في خانة المفاهيم البالية ، كوهم قديم للقرن الثامن عشر الأوروبي .

بعض العناصر ، موضوعيا ، تراجعية ، يمكن وصفها ، في الوضع الحالي بكل دقة . فيما وراء الصور التلفزيونية ، التي تصدم المشاعر ، فإننا نستطيع تقدير انخفاض النمو في العالم ، وصعود اللامساواة داخل المجتمعات الفقيرة كما داخل المجتمعات الغنية ، وهي ظاهرة ترتبط بالعولمة الاقتصادية المالية ، وتترتب منطقياً وبكل بساطة ، عن التبادل الحر[1] ، والذي يضع

1 - من أجل تحليل مفصل أنظر : " الوهم الاقتصادي . الإشارة إليه في الفصل 6

في المنافسة السكان النشطين في كل بلدان العالم ، وتقود إلى تحطيم الأجور وركود الطلب الكلي ، وتتوجه لان تدخل ، في كل مجتمع ، مستوى من اللامساواة ، يناظر الفرق في الدخول الموجود بين أغنياء البلدان الغنية وفقراء البلدان الفقيرة. .

لكن إذا رفضنا التسليم بنزعة اقتصادية ،يسارية أو يمينية ، ماركسية أو نيوليبرالية ، فإننا نستطيع بفضل أدوات إحصاء هائلة ، تقدير التقدم الثقافي الكبير في العالم الحالي ، والذي يعبر عن نفسه من خلال مقياسين : تعميم محو الأمية ، وانتشار ضبط النسل .

- الثورة الثقافية :

ما بين عام 1980 و 2000 ، معدل محو أمية الأفراد ، من 15 سنة فأكثر أي فئة السكان البالغين ، الذين يعرفون القراءة والكتابة ، انتقل من 40 إلى 67 ٪ في رواندا ، ومن 33 إلى 64 ٪ في نيجيريا ، ومن 27 إلى 47 ٪ في ساحل العاج ، ومن 40 ٪ إلى 63 ٪ في الجزائر ، ومن 77 إلى 85 ٪ في جنوب إفريقيا ، ومن 80 إلى 95 ٪ في زيمبابوي ، ومن 85 إلى 92 ٪ كولومبيا . وحتى في أفغانستان معدل محو الأمية ارتفع من 18 إلى 47 ٪ في نفس الفترة . أما في الهند فقد ارتفع من 41 إلى 56 ٪ ، وفي الباكستان من 28 إلى 43 ٪ ، وسيريلانكا من 85 إلى 92 ٪ ، وطاجكستان من 94 إلى 99 ٪ ، وفي إيران نسبة الأفراد الذين يحسنون القراءة والكتابة ارتفع من 51 ٪ عام 1980 وهو فترة انطلاق الثورة الخومينية إلى 77 ٪ عام 2000 . وفي الصين معدل محو الأمية كان 66 ٪ عام 1980 ليصل اليوم 85 ٪ .

هـذا الإنجـاز يمكـن لكل البلدان الفقيرة تحقيقه ، إنها تبدو قـد انخـرطت في سـباق عـام نحـو الـتطور الثقافي ، بما في ذلك الـبلدان الأكثر تخلفاً من بينها ، مثل مالي ، حيث ارتفع معدل محـو الأمـية ، مع ذلك ، وانتقل من 14 ٪ عام 1980 إلى 40 ٪ عـام 2000 ، والنيجـر بارتفـاع اكثـر تواضعاً ، من 8 ٪ إلى 16 ٪ . هـذه النسـبة لازالـت ضـعيفة ، لكـن إذا أخـذنا في الاعتـبار نسـبة الشباب من 15 إلى 24 سنة ، تكون النيجر قد وصلت 22 ٪ من محو الأمية ، ومالي 65 ٪.

العملـية لم تنـته بعـد ، ومسـتوى الـتطور الـثقافي لا يـزال متـنوعاً ، لكـن نسـتطيع توقـع ، في مسـتقبل غـير بعيد ، عالماً بـدون أمـية . إذا أخذنا في الاعتبار إيقاع السرعة الحالي ، فأننا نسـتطيع اعتـبار أن محـو الأمية عالميا. بالنسبة للأجيال الشابة ، قـد يـتحقق في آفـاق عـام 2030 .إنّ اختراع الكتابة يرجع إلى حوالـي 3000 سـنة قـبل الميلاد . لقد استلزم إذن خمسة آلاف سنة لان تحقق الإنسانية في مجموعها ، ثورة ترتبط بالكتابة .

- محو الأمية والعولمة :

تعلـم القـراءة والكـتابة ، دون نسـيان الحسـاب الابتدائي ، الـذي يصـاحبهما ، لـيس إلا سمة ، مرحلة من الثورة العقلية ، والـتي انـتهت بـان شملـت كـل العـالم . عندما يعرفون القراءة والكـتابة والحسـاب ، فـان البشـر يتوصـلون طبيعيا تقريبا ، إلى السـيطرة علـى البيـئة المادية . في آسيا كما في أمريكا اللاتينية ، الـيوم ، كمـا في أوروبـا بين القرن 17 وبداية القرن العشرين ،

الانطلاق الاقتصادي هو نتيجة ، تقريبا آلية للتطور التعليمي . في إطار التبادل الحر ، والعولمة المالية ، النمو الاقتصادي يُكبح ويُشوه ، ولكنه يظل موجوداً . الأمريكان ، الأوروبيون ، اليابانيون ، يجب أن، يكونوا واعين بان نقل المصانع إلى مناطق الأجور المنخفضة ، ما كان ممكناً في غياب التقدم التعليمي في البرازيل ، المكسيك ، تايلندا ، أو أندونيسيا ..

عمال العالم الثالث ، القديم ، الذين أجورهم تضغط على الأجور في أمريكا ، وأوروبا واليابان ، يعرفون القراءة والكتابة والحساب ، لهذا السبب يجري استغلالهم، أما حيث عملية التعليم لم تنجز بعد ، كما في أفريقيا ، فان نقل المصانع لا يجري. العولمة الاقتصادية ليست مبدأ لازماني . لكنها تقنية الوصول إلى الحد الأقصى في الأرباح ، في بيئة عالمية ، تاريخية خاصة : توفر نسبي ليد عاملة تحسن القراءة والكتابة والحساب خارج المراكز الأولى للانطلاق الصناعي .

يجب علينا أيضاً الأخذ في الاعتبار ، العامل التعليمي ، لكي نفهم دوافع حركات الهجرة الحالية نحو أوروبا والولايات المتحدة . الأفراد الذين يسرعون نحو أبواب العالم الغني ، هم بالتأكيد مدفوعون بسبب العوز المادي في البلدان التي لازالت فقيرة جداً . لكن رغبتهم في النجاة من هذا العوز ، تكشف مستوى طموح ينتج عن معدل محو الأمية ، والذي صار منذئذ أساسيا في بلدانهم الأصلية . نتائج التعليم لا يمكن حصرها ، منها هجرة الشعوب عقلياً .

- الثورة الديمقراطية :

عندما يعرف الرجال، وبخاصة النساء القراءة والكتابة ، يبدأ ضبط الخصوبة ، العالية حاليا ، العالم الحالي والذي يتوقع فيه محو أمية عاماً عام 2030 ، هو أيضا في طريقه لإنجاز انتقاله الديمغرافي .

المؤشر العالمي للخصوبة لازال 5.7 أطفال لكل امرأة ، مثل هذا المؤشر يكفل توسيعاً سريعاً لسكان العالم ويجعل فرضية التخلف قائمة .

عام 2001 المؤشر العالمي للخصوبة هبط إلى 2.8 طفلٍ لكل امرأة ، ومنذئذ صار قريبا من 2.1 ، ولا يكفل إلا نسلاً بسيطاً : 1 لكل 1 من السكان . هذه الأرقام تسمح بأن نشهد في مستقبل لم يعد بدون تحديد، ربما عام 2050 سكاناً مستقرين وعالماً ديمغرافيا متوازناً .

عندما نفحص مؤشرات الخصوبة ، بلداً بلداً ، يمكننا أن نندهش من انحناء الحدود الرقيمة بين عالم متطور وعالم متخلف:

لوحة 1 - الخصوبة في العالم

البلد	1981	2001	البلد	1981	2001
الولايات المتحدة	1.8	2.1	ألمانيا الشرقية	1.9	-
كندا	1.8	1.4	رومانيا	2.5	1.3
المملكة المتحدة	1.9	1.7	بولندا	2.3	1.4
فرنسا	1.9	1.9	المكسيك	4.8	2.8
ألمانيا	1.3	1.3	بوليفيا	6.8	4.2
روسيا	2	1.2	البيرو	5.3	2.9
أوكرانيا	1.9	1.1	البرازيل	4.4	2.4
اليابان	1.8	1.3	كولومبيا	3.9	2.6
الصين	2.3	1.8	فنزويلا	4.9	2.9
تايوان	2.7	1.7	جنوب إفريقيا	5.1	2.9
كوريا الجنوبية	3.2	1.5	روائدا	6.9	5.8
كوريا الشمالية	4.5	2.3	زامبيا	6.9	6.1
فيتنام	5.8	2.3	زيمبابوي	6.6	4.0
تايلندا	3.7	1.8	كينيا	8.1	4.4
الفيلبين	5.0	3.5	تنزانيا	6.5	5.6
الهند	5.3	3.2	الحبشة	6.7	5.9
سيريلانكا	3.4	2.1	زائير	6.1	7
الأرجنتين	2.9	2.6	ساحل العاج	6.7	5.2
إيطاليا	1.7	1.3	سيراليون	6.4	6.3
أسبانيا	2.5	1.2	ليبريا	6.7	6.6

مؤشر الخصوبة ، عدد الأطفال لكل امرأة .

المصـدر : سكان ومجتمعات سبتمبر 1981 – 2001 رقم 151 – 370 INED اللوحة رقم (1) تقدم الخصوبة عام 1981 – و 2001 مـن عيـنات تمـثل الأكثـر سـكاناً أو الأكثـر تعبيراً من بلـدان العـالم . عـدد كبير منها ذات معدلات ولادة ما بين 2 و 3 أطفـال لكـل امرأة . بعض البلدان المصنفة متخلفة إلى وقت قـريب لـديها معـدلات ولادة أو خصوبة مساوية لتلك البلدان الغربية الصين وتايلندا ، مع 1.8 طفل لكل امرأة ، يقعان ما بين فرنسا والمملكة المتحدة 1.9 – 1.7 . إيران عضو "محور الشر " مـع 2.1 عـام 2002 (2.6 عام 2001) لديها نفس معدلات الخصـوبة في الـولايات المـتحدة ، الـزعيم المعلـن عن نفسه من طرف واحد ، وقريباً ، كما أتمنى أن يكون عضواً وحيداً في محور الخير [1] .

التحول الديمغرافي لم ينته في كل مكان ، يمكن ملاحظة مثلا، بوليفـيا مـع 4.2 طفـل لكل امرأة . جزء من العالم الإسلامي ، ومعظـم أفـريقيا تحـتفظ بمعـدلات خصوبة عالية ، لكن حتى في أفـريقيا ، باسـتثناء بلدان الهامش ، مثل النيجر والصومال ، فإننا نشـاهد حـركة هـبوط قـد بـدأت ، وهي متقدمة جداً في اغلب البلدان الإسلامية .

دراسـة مؤشـرات الخصـوبة تكشـف لنا ، خاصة ، أن العالم الإسـلامي ، باعتـباره كـيان ديمغـرافي ، لا وجـود له ، اختلاف المعـدلات ، مـن 2 طفـل لكل امرأة في اذربيدجان ، إلى 7.5 في النيجـر . الإسـلام العـيني يلخـص تمامـاً العالم الثالث في حركة

1 - بالنسبة لتفاصيل حول الانتقال الديمقراطي في إيران ، انظر ماري لادير : سكان مجتمع وسياسة في إيران ، من الملكية إلى الجمهورية الإسلامية . رسالة جامعية باريس 1999 .

تحـول . الجمهـوريات السـوفيتية السـابقة ، في القوقاز وفي أسيا الوسـطى ، والـتي تم فـيها محـو الأمـية جـيداً ، مـن قـبل النظام الشـيوعي ، معـدلاتها مـا بـين 2 بالنسـبة لأذربـيدجان و 2.7 بالنسبة لأوزبكستان ، تونس متقدمة كفاية ، بمعدل 2.3 ، أفضل مـن الجزائر 3.1 ، والمغرب 3.4 . في مجموعة المغرب المستعمر سـابقاً مـن فرنسا ، تقدم أسرع من الشرق الأوسط قلب الوطن العربـي ، والـذي تمكـن مـن الإفـلات مـن السـيطرة الأوروبية المباشرة .

أولئك الذين يعتبرون السيطرة على الخصوبة مكون أساسي للـتقدم ، يجـب أن يقـبلوا أن الـتأثير الفرنسـي كـان إيجابـيا ، وبوضوح أكثر تأثير روسيا في أسيا الوسطى . التأثير الفرنسي لم يكـن واضحاً ، إنه نتاج معقد لحركة الذهاب والعودة والهجرة ، والاتصال بالأخلاقيات الفرنسية ، كما برهن على ذلك يوسف كـورباج[1] . أمـا الـتأثير الروسي فكان مباشراً وحاسماً . الاتحاد السـوفيتي كفل محو الأمية الكاملة في مناطق نفوذه . هذا الإنجاز لم يـتحقق في أي مكان آخر من قبل قوة استعمارية . الاستعمار على الطريقة الشيوعية ، ترك إذاً بعض الآثار الإيجابية .

بلـدان إسـلامية غـير عـربية ، مـثل تركيا ، بمعدل 2.5 عام 2001 وإيـران 2.1 عـام 2002، لم يقعا تحت الاستعمار أبداً ، لكنهما أنجزا تحولهما الديمقرافي أفضل من العالم العربي . وبلدان أخرى أسلمت متأخرة مثل إندونيسيا وماليزيا[2] يقتربان من إنجاز تحولهما بمؤشرات 2.7 و 3.2 لكل منهما.

---

1 – يوسف كورباج : التحول الديمقرافي في المغرب – لندن 1994

2 – هناك أقلية كبيرة صينية في ماليزيا .

العالم العربي الذي لم يستعمر ، والذي استعمر متأخراً بشكل سطحي ، يكون أقل تقدماً ، لكنه مع ذلك يتقدم سريعاً ، عام 2001 كانت الخصوبة في سوريا 4.1 طفل لكل امرأة ، مصر كانت مع ذلك 3.5 بالكاد تتأخر عن الغرب .

في عدد من البلدان الإسلامية ، انتشار ضبط النسل ليس بعد إلا في بدايته وهذا ذات مؤشرات خصوبة لازالت أعلى من 5 - 5.3 في العراق ، 5.6 في باكستان ، 5.7 في السعودية ، 5.8 في نيجيريا[1] . المعدل العالي في فلسطين هو شذوذ اجتماعي وتاريخي . خصوبة تتطلبها معركة ترتبط بالاحتلال ، والذي له أيضا أثره في المعدل العالي لنسل اليهود في إسرائيل . والذي يعد انحرافاً بالنسبة لشعب غربي له مستوى تعليم عالي . تفصيل المعطيات يظهر انقساماً ثقافياً داخل الشعب اليهودي ، المعدل المتوسط عند العلمانيين والمتدينين المعتدلين ، هو 2.4 ، بينما عند الأرثوذكس والمتطرفين منهم هو 5 هذا الرقم الأخير كان نتاج صعود الخصوبة .

تبقى مجموعة من البلدان الإسلامية ، حيث التحول الديمقرافي لم يبدأ حقيقة بعد . وحيث مؤشر الخصوبة لايزال يساوي أو أعلى من 6 أطفال لكل امرأة . 6 في أفغانستان ، وفي موريتانيا ، 7 في مالي ، 7.3 في الصومال ، 7.5 في النيجر . ارتفاع معدلات محو الأمية ، يضمن مع ذلك ،أن هذه البلدان لن تفلت من مصير الإنسانية المشترك : السيطرة على الخصوبة .

1 - هناك أقلية مسيحية كبيرة في نيجيريا .

لوحة 2 - الخصوبة في البلدان الإسلامية

البلد	1981	2001	البلد	1981	2001
أزوبيدجان	3.1	2.0	مصر	5.3	3.5
توركمنستان	4.8	2.2	الإمارات	7.2	3.5
تونس	5	2.3	الأردن	4.3	6.3
كيرجيستان	4.1	2.4	ليبيا	7.4	3.9
طاجكستان	5.6	2.4	قطر	7.2	3.9
لبنان	4.7	2.5	سوريا	7.2	4.1
تركيا	4.3	2.5	الكويت	7.0	4.2
إيران	5.3	2.6	السودان	6.6	9.9
إندونيسيا	4.1	2.7	العراق	7	5.3
أوزبكستان	4.8	2.7	باكستان	6.3	5.6
البحرين	7.4	2.8	السعودية	6.5	5.7
الجزائر	4.3	3.1	نيجيريا	6.9	5.8
ماليزيا	4.4	3.2	فلسطين	6.9	5.9
بنغلاديش	6.3	3.3	أفغانستان	6.9	6
المغرب	6.9	3.4	موريتانيا	6.9	6
عمان	7.2	6.1	الصومال	6.1	7.3
مالي	6.7	7	النيجر	7.1	7.5
اليمن	7	7.2	السنغال	6.5	5.7

مؤشرات الخصوبة ، عدد الأطفال لكل امرأة .

المصدر : السكان والمجتمعات سبتمبر 1981 – 2001

- **أزمة الانتقال :**

محو أمية الجماهير ، وضبط النسل ، معاً ، يرسمان صورة للعالم مشجعة ، أكثر من تلك التي تبثها نشرات التلفزيون ، هذان المعياران يكشفان أن الإنسانية في طريقها لانتزاع نفسها من التخلف . إذا وضعناها جيداً نصب أعيننا فلن نكون فقط متفائلين ، بل إننا سنحتفل أيضا بصعود الإنسان إلى مرحلة حاسمة في تطوره .

وسائل الإعلام ، مع ذلك ، ليست مسؤولة عن رؤيتنا المشوهة للتاريخ ، التقدم ليس كما يفترضه فلاسفة الأنوار ، صعود في خط مستقيم ، وسهل على كل المستويات .

الانتقال من الحياة التقليدية ، من الروتين المتوازن للأمة ، من الخصوبة العالية ، وارتفاع معدلات الوفيات ، يترتب عليه ، في المرحلة الأولى ، قدر من الضلال والمعاناة ، أكثر مما ينتج آمالا وإثراء ، في أغلب الأحيان ، وربما حتى في اغلب الحالات ، الانطلاق الثقافي والعقلي ترافقه أزمة تحول أو انتقال السكان ، وقد اختل توازنهم لتقليدي ، يكون لهم سلوك اجتماعي وسياسي عنيف . الولوج إلى الحداثة العقلية يصاحبه ، عادة ، تفجر عنف أيديولوجي .

هذه الظواهر لم تظهر أول مرة في العالم الثالث ، وإنما في أوروبا ، معظم الأمم الأوروبية ، اليوم ، هادئة جداً ، لكنها مرت بمراحل تعبير سياسي وأيديولوجي عنيف ودامي . القيم المعبر عنها ، آنذاك ، كانت متنوعة جداً : ليبرالية ومساواة ، خلال الثورة الفرنسية ، مساواة وسلطوية خلال الثورة الروسية،

سلطوية ولامساواة في حالة النازية الألمانية ، لكن لا ننسى إنجلترا ، العاقلة جداً اليوم ، والتي كانت ، مع ذلك ، من أكثر أمم القارة ثورية ، لقد افتتحت عصرها السياسي الحديث بأن قطعت رأس ملك عام 1644 . الثورة الإنجليزية القديمة تبين تناقض الحداثة . لا أحد ينكر الدور الحاسم الذي لعبته إنجلترا في الانطلاق السياسي والاقتصادي لأوروبا . لقد كانت بلداً أنجز محو الأمية مبكراً . لكن أول الآثار الواضحة للانطلاق الإنجليزي ، كان أزمة أيديولوجية ، سياسية ودينية في تعبيرها ، أدت إلى حرب أهلية ، وجد الأوروبيون صعوبة في فهمها حتى اليوم .

إذا كنا ندين عنفها ، إلا أننا نعتقد فهم المعنى العام للمواجهات المرتبطة بالثورة الفرنسية ، وبالثورة الروسية ، وبالنازية الألمانية . القيم التي عبرت عنها هذه الأحداث ، سلبية كانت أم إيجابية ، تبدو دائما حديثة ، لأنها علمانية . لكن كم أوروبي يستطيع اليوم اختيار معسكره ، في الصراع الميتافيزيقي بين كرومويل والبروتستانت الظهريين ، والكاثوليك أنصار الملك ستيوارت ؟ . لقد جرى الاقتتال باسم الله ، بشكل معتدل، في إنجلترا القرن 17 . أشك أن الإنجليز أنفسهم ، يرون حاليا في دكتاتورية كرومويل العسكرية ، مرحلة ضرورية تقود إلى الثورة الليبرالية الجيدة لعام 1688 ، بيير مانيت كان محقاً ، عندما وضع على رأس كتابه عن الليبرالية كتيب الشاعر والثوري ميلتون ، الذي كان يطالب " بحرية الطباعة بدون إذن وبدون رقابة " الذي كتبه عام 1644[1] إننا نجد في هذا النص ،

---

1 - بيير مانيت : الليبراليون - فاليمارد 2001

مع ذلك قدراً من الأوهام ا لدينية مساو للدفاع عن الحرية ، وكتيب آخر لنفس الكاتب ، والمناضل ، بيير وفيه ، خمس سنوات بعد ذلك ، إعدام شاول الأول .

الجهاد باسم الله في هذه السنوات ، ليس في كل أبعاده ذي طبيعة مختلفة ، وإذا كان أبعد من أن يكون ليبراليا ، إلا أنه مع ذلك لا يمثل أساسا تراجعاً ، وإنما يعبر عن أزمة انتقال . العنف الأوهام الدينية ليست إلا مؤقتة .

حالة إيران ، في وجهة النظر هذه معبرة جداً ، في عام 1979 ثورة دينية تطيح بالشاه ، تبع ذلك حقبتان من التطرف الديني والصراع الدامي ، لكن معدل محو الأمية عال ، والذي في البداية حرك الجماهير الإيرانية ، وفي مرحلة ثانيةً جر البلد إلى تحديث عقلي عام . خفض معدل الخصوبة تبع ، تقريبا ، الاستيلاء على السلطة من قبل آية الله الخميني . الرهانات الأيديولوجية ، المعبر عنها في لغة إسلام شيعي ، لا يمكن للأوروبيين ، ذوي التقاليد المسيحية ، فهمها ، مع ذلك ليست اقل معنى من الصراعات بين الطوائف البروتستانتية في عهد كرومويل . التنديد بالظلم في العالم ، من قبل الأيديولوجيا الشيعية ، يتضمن إمكانية ثورية ، تماما مثل البروتستانتية الأصولية التي تنظر إلى الإنسان والمجتمع على أنهما فاسدين . لوثر ، وأكثر منه كالفان ، آيات الله القرن 16 ، ساهما في ولادة مجتمع محدد ومطهر ، أمريكا ابنة الحماس الديني ، تماما مثل إيران اليوم .

الثورة الإيرانية تقود اليوم ، رغم دهشة الجميع ، ورغم رفض الحكومة الأمريكية قبول ما هو بديهي ، إلى استقرار

ديمقراطي ، مع انتخابات عامة ، والتي وإن لم تكن حرة ، إلا أنها ليست مع ذلك أقل تعددية أساسا ، مع إصلاحيين ومحافظين، يسار ويمين .

أثر محو الأمية ، الثورة ، وهبوط الخصوبة ، دون أن يكون عالميا ، هو أمر كلاسيكي ، محو أمية الرجال يتقدم أسرع منه عند النساء ، باستثناء ليزانيت . اختلال الاستقرار ، وهو من صنع الرجال ، يسبق إذن في العموم انتشار ضبط النسل ، والذي يتوقف ، فوق كل شئ ، على النساء . في فرنسا ضبط النسل بدأ يعم بعد ثورة 1789 . في روسيا الهبوط العام للخصوبة تبع استيلاء البلاشفة على السلطان ، وغطى مجموع مرحلة ستالين[1] .

- الديمقرافيا والسياسة :

محو الأمية وانخفاض معدل الخصوبة ، ظاهرتان عالميتان ، جعلتا من الممكن عالمية الديمقراطية ، وهي الظاهرة التي شعر بها فوكوياما ، ولم يفحصها ولم يفسرها ، ولم ينتبه ، في كتابه ، إلى التحول العقلي الذي يسند مسيرة التاريخ السياسي . إنني أدرك ، بالتجربة ، أن فرضية وجود علاقة بين هبوط الخصوبة والتحديث السياسي ، لا تجد مصداقية عند علماء السياسة من غير علماء السكان من غير علماء السياسة ، إن فصلهما عن بعض مريح جداً في مختلف مستويات التاريخ الإنساني ، وكأن الحياة السياسية والحياة العائلية هما شيئان منفصلان ، يعيشهما

1 - من أجل تحليل عام للتداخلات أنظر . - تود : طفولة العالم سوى 1984 - اختراع أوروبا . سوى 1990

الـرجال والنساء ، مجزأة إلى قطع ، كل قطعة تعيش جانبا، سواء السياسة كما النسل.

مـن أجل إقناع القارئ ، فإني أذكر بالاستخدام الذي قمت بـه لهـبوط الخصـوبة ، بان مزجته بمؤشرات أخرى ، لكي أتوقع عـام 76 – في كـتاب السـقوط النهائـي – انهـيار الشـيوعية العالمـية[1]السوفيتية . النظريات التي كانت آنذاك موضة ، ومعظم المتخصصـين في الشـؤون السـوفيتية ، المحترفـين ، قبلوا الفرضية المقترحة ، خاصة المنشق الكسندر زينوفيف ، عن إنسان سوفيتي، وجـود مـن نمـط جديـد ، صـنعته سـتون سـنة مـن الدكتاتورية والـرعب . الـتكوين العقلـي المشوه ، وغير القابل للتغيير ' لهذا الإنسـان السـوفيتي يكفل البقاء الأبدي للشمولية . مؤرخ وعالم سـكاني ، وفـق تكـويني العلمـي ، استخلصت ، بالعكس ، من انخفـاض الـولادات في الاتحـاد السـوفيتي 42.7 ولادات لكـل 1000 نسمة عام 1923 – 1927 إلى 26.7 ولادة عام 1950 - 1952 إلى 18.1 ولادة عام 1975 – احتمال ظهور مواطنين روس طبيعـيين قـادرين علـى إسقاط الشيوعية تماماً[2] . في حالة روسـيا ، كما في حالة فرنسا وألمانيا ، مرحلة الانتقال كانت فترة مضـطربة بشـكل خاص ، والتي خلالها تغيرات السلوك الجنسي زادت في حـدة الحـيرة المـرتبطة بمحـو الأمية ، كان ذلك مرحلة ستالين .

يجـب ، حتـى لـو أن هـذا صـعب ، ويـبدو يـناقض فكـرة الـبداهة، قبول فكرة إن الأزمات والمجازر ، التي تعرضها علينا ،

1 - انظر : السقوط النهائي . لافونت 1976 .

2 - انظر : جان كلود كيباي – الانتقال الديمقراطي INEDرقم 113 بوف 1986 – ص 22

بشكل متواصل ، وسائل الإعلام ، ليست في معظم الأحيان ظواهر عدوانية ، وإنما اختلالات انتقالية ترتبط بعملية التحديث نفسها ، وإنه آليا ، الاستقرار يجب أن يعقب الاضطراب ،في غياب أي تدخل خارجي .

- المرحلة الانتقالية الإسلامية :

إذا أعدنا النظر ، في قائمة مناطق العالم ، التي تمسها ظواهر العنف ، في بداية الألفية الثالثة ، فانه سوف يدهشنا كثرة حضور البلدان الإسلامية . في السنوات الأخيرة ، شاعت نظرة عن الإسلام ، على أنه عنيف بشكل خاص ، شرير السلوك ، وإشكالي في داخله . حتى لو أن الصين أشار إليها هانتينقتون على إنها الخصم الأساسي للولايات المتحدة ، إلا أن عنف الإسلام وصراعه المفترض مع الغرب المسيحي ، هو الذي يسند حدة صدام الحضارات . بنية هذا الكاتب ، المنحوتة بالفأس ، هي تصنيف وفق الدين ، هكذا صنفت روسيا على أنها ارثوذوكسية ، والصين كانفوشيوسية ، هذا التصنيف لا يمكن أن يبدو إلا مسخرة ، بالنسبة لمن يعرف عدم التدين العميق ، للفلاحين الروس والصينيين ، الضعف الأساسي للدين ، في هذين البلدين ، هو الذي ساهم بشكل كبير ، في نجاح الثورة الشيوعية ، في النصف الأول من القرن العشرين .

نظرية هانتينقتون هي أساسا ابنة الجهاد الحديث ، إنها ليست إلا عكس تصوري لرؤية آية الله الخميني ، والذي يعتقد في نهاية الاستراتيجية الأمريكية كما يعتقد في صراع الحضارات.

ليس مع ذلك ضروريا النظر في أساسيات الإسلام ، ولا أن نركز على مزاعم تفضيل الإسلام للحرب ، من خلال دور محمد ﷺ العسكري ، أو التنديد بعبودية المرأة في العالم العربي ، لكي نفهم صعود العواطف الأيديولوجية والاقتتال في هذا المجال الديني ، العالم الإسلامي متنوع جداً . إذا أخذنا في الاعتبار مستويات تطوره التعليمي ، والذي مع ذلك ، متأخر جداً عموماً بالنسبة لأوروبا ، وروسيا واليابان والصين . لهذا ، في هذا الوقت ، وفي المرحلة التاريخية التي تعبرها ، عدة بلدان إسلامية هي في طريقها لإنجاز الانتقال الكبير ، إنها تتخلى عن الروتين العقلي المادي لعالم أُمي ، وتخطو نحو العالم الآخر ، المستقر ، الذي يتحدد وفق محو الأمية العالمية . بين العالمين ثمة معاناة واضطرابات ، هي نتاج التحول العقلي .

عدد من البلدان الإسلامية أنجزت مرحلتها الانتقالية ، من خلال أزمة أصولية ، والتي منطقياً جداً ، مست الشباب أولا ، الذين محيت أميتهم حديثاً ، وفي الخط الأول طلبة العلوم . في إيران الثورة تهدأ وفي الجزائر إسلام الجبهة الإسلامية للإنقاذ صار إرهابا واغتيالات ، وبدأت تصاب بالإنهاك ، في تركيا الصعود القوي للأحزاب الدينية لم ينجح في تهديد العلمانية الموروثة عن كمال أتاتورك . لا يمكن إلا أن نتفق مع جيل كيبل، عندما يصف في كتابه " جهاد ... " على مستوى العالم أثار الاسلاموية ، بثقة كبيرة ، تاريخية واجتماعية . كيبل يحدد ، في ماليزيا ، وهي البلد حيث معدلات محو الأمية عالية بشكل

خـاص 88 ٪ وعـام 2000 بدايـة انحسـار الأزمـة السياسـية الدينية[1].

إلى هـذه الدراسـة العمـيقة لانهيار الاسـلاماوية ، نضيف الفشـل الـذي تكبدته النضالية الدينية في أسيا الوسطى . هناك بالتأكـيد حرب أهلية في طاجكستان ، تصنع في المواجهة أطرافاً بعضـها يـرفع شـعار إسـلام نقـي ، واوزبكسـتان تعيش حالة خـوف مـن غـزو أصـولي ، الحقـيقة ، مـع ذلـك هـي أنـه في الجمهـوريات السـوفيتية السـابقة ، في أسـيا الوسطى ، العامل الـديني لا يلعـب إلا دوراً ثانـوياً . عدة محللين كانوا يتوقعون أن انهـيار الشـيوعية سـوف يـثير انفجـار المشـاعر الدينـية الإسـلامية . لكـن روسيا تركت ممتلكاتها السابقة ، وقد محيت الأمـية فيها ، وقادرة على أن تحقق ، ما بين 1975 – 1995 ، تحـولات ديمقـرافية واسعة وسريعة[2] ، نظمها السياسية لازالت تحمـل سمـات مـوروثة من المرحلة السوفيتية ، ولا زالت أبعد مـن أن تكـون ديمقـراطية ، هـذا أقـل ما يمكن قوله ، لكن لا تهيمن عليها أبدا إشكالية دينية .

- الأزمة القادمة : باكستان والسعودية :

مـع ذلك بعض البلدان الإسلامية ، بدأت اليوم فقط تتوجه نحـو محـو الأمية ، والتحديث العقلي . البلدان الرئيسيان في هذه الفئة هما :

---

1 - جيل كيبل : جهاد : توسع وانهيار الاسلاماوية . قاليمادر 2000

2 - بين عام 1975 و 2000 ، هبط عدد الأطفال لكل امرأة من 5.7 إلى 2.7 في اوزبكستان ، ومن 5.7 إلى 2.2 في توركمنستان ، ومن 6.3 إلى 2.4 في طاجكستان .

السعودية 35 مليون عام 2001 وباكستان 145 مليون . وهما فاعلان أساسيان ، من الدرجة الأولى ، في العمليات التي أدت إلى تفجير مركز التجارة العالمية ، والبنتاجون ، الباكستان جيشها ، وأجهزتها السرية ، كانت قد أقامت نظام الطالبان ، ومثلت قاعدة خلفية لمنظمة القاعدة . السعودية قدمت معظم الإرهابيين الذين نفذوا العملية الانتحارية ضد الولايات المتحدة بالطبع توجد علاقة بين العداء المتزايد ضد أمريكا من قبل شعبي هذين البلدين وبين الانطلاق الثقافي الذي بدأ يتقوى . في إيران صعود مماثل لمشاعر ضد الأمريكان ، مع تجربة إيران ، التي من حليف صارت عدوا ، كان من حقهم القلق بسبب هشاشة وضعهم الاستراتيجي على جانبي الخليج العربي – الفارسي .

السعودية والباكستان ، يكونان ، على الأقل لحقبتين ، منطقة خطره ، حيث سوف يتضاعف عدم الاستقرار بنسبة مهمة . كل تورط في هذه المنطقة المزدوجة يتضمن مخاطرة ، هكذا فرنسا أدركت هذا على حسابها ، في مايو 2002 ، مع العملية الانتحارية التي جرت في كراتشي ضد مجموعة فنيين من المفوضية العامة للتسليح .

لكن لا نستطيع ، بأي حال ، الاستنتاج من عداء هذين الشعبين المسلمين المندمجين مباشرة في مجال النفوذ الأمريكي ، وجود ارهاب دولي . جزء كبير من العالم الإسلامي في طريقه إلى الهدوء .

من السهل جداً أن نستخلص من الإحصائيات الحالية ، عن الأزمات ، شيطنة الإسلام ، لكنه حكم متسرع ، بشكل عام الإسلام يعبر عن أزمة التحديث الخاصة به ، ولا يمكن أن

يظهر، بكل تأكيد ، على أنه واحة سلام البلدان المتطورة حاليا ، والهادئة لا تستطيع الفخر بأحوالها الحالية ، عودة تأملية إلى تاريخها سيقودها إلى تواضع أكثر ، الثورات الفرنسية والإنجليزية كانت ظواهر عنف ، تماما مثل الشيوعية الروسية أو الصينية ، ومثل الموجة العسكرية الإمبريالية اليابانية . القيم الظاهرة المرتبطة بحرب الاستقلال والحرب الأهلية الأمريكية ، تبدو لنا مفهومة ،بسبب قربها الثقافي والتاريخي ، لكن الولايات المتحدة نفسها لم تكن بمنأى عن أزمة انتقالية[1] لكن بعض النقاشات الأيديولوجية ذات الصلة بالأزمة الأمريكية ، تكون أحيانا ، بالنسبة لنا غير مفهومة ، مثلا تلك ، الأساسية ، حول لون البشرة – لون الجلد – هذا التعصب الأمريكي ليس أقل ولا أكثر غرابة ، بالنسبة للفرنسي ، من النقاش الهستيري حول موضوع المرأة العربية الذي يشغل الثورات الإسلامية .

- الحالة اليوغسلافية : أزمة في غير محلها :

تفكك الشيوعية ، وتفكك يوغسلافيا ، دون أن يكون بمنأى عن القانون العام ، الذي يربط التقدم والضلال العقلي ، يقدم سمات خاصة به ، والتي ترجع إلى فوارق في مستويات التطور التعليمي بين مختلف الشعوب المكونة لمجموعة الاتحاد القديم[2]

---

1 – كلاسيكيا حرب الانفصال أو الحرب الاهلية اندلعت في فترة هبوط خصوبة السكان الانجلوساكسون الاصليين ، لقد كان ضحاياها وحدها 620 الف ، منهم 360 الف شمالي ، أي اكثر من كل الحروب ، بما في ذلك حرب فيتنام ، التي خاضتها الولايات المتحدة منذ 1776 .

2 – حول تطور الخصوبة في هذه المنطقة انظر ج.ب ساردون : انتقال وخصوبة في البلقان الاشتراكي . وكوكزاماتين ، بارات : أوروبا البلقان مختلفة ومتنوعة ؟ – 2001 .

التحول السكاني للصرب والكروات والسلوفان ، دون أن يكون مبكراً ، كما هو الحال في أوروبا الغربية ، فإنه ، في معظمه أنجز عام 1955 ، مؤشر الخصوبة في هذا التاريخ كان : 2.5 في كرواتيا ، وسلوفنيا ، 2.8 في مجموع صربيا ، في حالة هذه الجمهوريات حركة محو الأمية أطلقت ، بالتوازي ، هبوط الخصوبة والموجة الأيديولوجية الشيوعية ، في الجنوب ، في البوسنا وكوسوفو ، ومقدونيا وألبانيا ، الشيوعية آنذاك ، دخلت إلى مجتمعات لم تصل بعد مرحلة التحديث التعليمي والعقلي . نحو عام 1955 لازالت الخصوبة 4.3 في البوسنا ، 4.7 في مقدونيا ، 6.7 في ألبانيا وفي كوسوفو ، المعدل الوسط في البوسنا ومقدونيا يعكس التنوع الديني للسكان ، حيث يمتزج في البوسنا كاثوليك ، ارثوذوكس ومسلمين ، وفي كوسوفو ومقدونيا ، ارثوذوكس ومسلمين ، دون النظر هنا إلى التصنيف الديني إلا على أنه مجموعه سمات تسمح بتحديد أنظمة ثقافية مختلفة . يجب ملاحظة أن السكان المسلمين ، في المنطقة ،متأخرون بالنسبة للسكان المسيحيين ، في مسيرتهم نحو التحديث ، لكنهم ليسوا بمنأى عن قانون المرحلة الانتقالية المشترك . الخصوبة هبطت إلى 2.5 منذ عام 1975 في البوسنا ، وعام 1984 في مقدونيا وعام 1995 في كوسوفو ، وتبعت ألبانيا عن قرب ، حيث إنه في التاريخ الأخير كانت خصوبتها قد هبطت إلى 2.5 طفل كل امرأة .

بفضل التحليل الديمغرافي نستطيع أذن ، في الفضاء الذي تشغله يوغسلافيا السابقة ، وألبانيا ، الكشف عن أزمتي انتقال الأولى تغطي أعوام 1930 – 1955 ، وقادت السكان

المسيحيين ، كرواتاً وصرباً ، أساسا ، إلى الحداثة الديمغرافية والعقلية خلال الأزمة الشيوعية . أما الثانية ، فبين عام1965 – 2000 ، قادت السكان المسلمين إلى نفس التحديث ، لكن يجب اعتبار حدوث الثورة العقلية المتأخرة في الفضاء الإسلامي ، متداخلة مع انهيار الشيوعية ، على أنها عرضية تاريخية ، انهيار الشيوعية كان يمكن أن يمثل بالنسبة للصرب والكروات ، نوعاً من مرحلة ثانية ، ومخرجاً من أزمة التحديث كل هذه الشعوب ممتزجة ، نستطيع قبول أن الخروج من الشيوعية ، لم يكن ، فنياً ، مشكلة بسيطة ، وحولته أزمة الانتقالية عند الشعوب الإسلامية إلى كابوس دامي .

واقعة أن المواجهات الأولى خصت الصرب والكروات ، لا تعني أن العامل الإسلامي كان غائباً في المرحلة الأولى من الأزمة. لأنه ، يجب أن نكون واعين بان اختلاف الانتقال السكاني – الديمقرافي – يسبب على مستوى كل الاتحاد ، تغيرات مستمرة في الوزن بالنسبة لمختلف الشعوب ، وبهذا يخلق قلقاً عاماً بالنسبة للسيطرة على الفضاء . حيث أن الصرب والكروات سيطروا على خصوبتهم ، فإنهم شاهدوا نموهم يتباطأ ، في مواجهة السكان المسلمين الذين تكاثرهم السريع يطرح عملية غزو أو إغراق ديمقرافي . الهاجس العرقي ، ما بعد الشيوعية ، صار مأساويا ، بسبب ديناميكيات ،ديمقرافية مختلفة ، وتسرب إلى إشكالية الفصل بين الكروات والصرب .

نحن هنا في مجال أيديولوجي عقلي ، والذي لا يسمح بالتحقق منه علمياً . لكن التطهير العرقي بين الكروات والصرب ، ما كان له أن يتخذ هذا الحجم الذي نعرفه بدون

العامل الإسلامي . أعني وجود سكان في حالة تكاثر سريع لكنهم بدورهم يدخلون أزمة التحديث .

هكذا استقلال سلوفينيا ، الواقعة في الشمال ، بعيدة عن أي تداخل مع المسلمين ، أثار ، بالكاد ، ردود فعل أكثر قليلا من تفكك تشيكوسلوفاكيا إلى مكوناتها من التشيك وسلوفاك .

بهذا التحليل ليست نيتي البرهنة على عدم جدوى كل تدخل إنساني ، عندما تكون البلدان المعنية صغيرة ، يمكن إدراك أن أي فعل يأتي من الخارج ، يقود إلى تخفيف التوتر . مع ذلك، جهد من اجل الفهم التاريخي والاجتماعي . يجب أن يواكب تداخل القوى العسكرية للبلدان التي نفذت منذ زمن طويل من أزمة التحديث .

أزمة يوغسلافيا أثارت مواقف أخلاقية كثيرة ، لكن القليل من التحليل ، هذا مؤسف ، لان فحص خريطة العالم يكشف عن وجود منطقة واسعة من التفاعلات . ليس بين المسيحية والإسلام ، كما يزعم هانتينقتون ، وإنما بين الشيوعية والإسلام، تبدأ من يوغسلافيا إلى أسيا الوسطى . الارتباط العرضي بين انحسار الشيوعية والمرحلة الانتقالية الإسلامية ، بين نهاية وبداية التحديث العقلي ، كان في سنوات 90 في حالة تنافس دائم والذي يستحق بحثاً اجتماعياً عاماً .

المواجهات في القوقاز ، وتلك القصيرة في آسيا الوسطى ، لها نقاط عديدة مشتركة مع أحداث يوغسلافيا . التقاء أزمتي الانتقال يمكنه أن ينتج انتقالا متشدداً ، ولا يمكنه أن يحدد حالة بنيوية ودائمة للصراع بين الشعوب .

- صبر وزمن طويل :

النموذج الذي يربط بين التحديث العقلي ، مع عنصريه الأساسيين ، محو الأمية وانهيار الخصوبة ، وبين الاضطرابات الأيديولوجية والسياسية ، والتي تجعل في المواجهة طبقات ودياناً وشعوباً ، هو نموذج عام جداً . دون التخلص من قلق الانتقالية ، بعض البلدان لم تغرق أبدا في العنف الواسع . لكني أجد صعوبة في ذكر اسم بلد عاقل ، بسبب خوفي من نسيان أزمة أو مجزرة . البلدان الاسكندنافية نجت ربما مما هو أسوأ ، إذا أخذنا في الاعتبار الدانمارك ، السويد ، النرويج ، أما فنلندا ، ذات اللغة فينو – أوقريان – فقد شهدت حرباً أهلية بين الحمر والبيض . ذات أهمية ، غداة الحرب العالمية الأولى ، وفي زحمة الثورة الروسية .

إذا رجعنا إلى الإصلاح البروتستانتي ، نقطة أصلية في المسيرة نحو محو الأمية ، فإننا نجد سويسريين مضطربين ، متحمسين بسبب العاطفة الدينية ، يمكنهم الاقتتال باسم المبادئ العظيمة ، وحرق الهراطقة والسحرة ، لكنهم في طريقهم ، بفضل هذه الأزمة المبكرة ، لإنجاز أسطورة صفاتهم عن النظافة ودقة الإنجاز ، في انتظار تأسيس الصليب الأحمر ، وان يعطوا العالم دروساً في المصالحة المدنية ، إذن يجب الامتناع ، ولو تأدباً عن وصف الإسلام بأنه بطبيعته مختلف ، وان نحكم على جوهره .

أحداث 11/ 9/ 2001 ، من بين أحداث أخرى ، قادت لسوء الحظ إلى تعميم تصور صدام الحضارات ، في أغلب الأحيان ، وفي عالمنا المتسامح جداً ! ، وبواسطة النفي ، عدد المثقفين ورجال السياسة الذين أكدوا ، في الأيام والأسابيع

والشهور التي أعقبت الحادثة ، انه لا يمكن وجود صراع حضارات بين الإسلام والمسيحية ، يبرهن كفاية على أن هذا التصور البدائي موجود في رأس الجميع . المشاعر الطيبة التي تكون منذئذ جزءاً من قيمنا العليا – أيديولوجيا 20 ٪ من الأعلى – منعت توجيه تهمة مباشرة إلى الإسلام ، لكن الأصولية الإسلامية أعطيت رمزاً في اللغة الاعتيادية ، هو مفهوم الإرهاب ، والذي يريده كثيرون أن يكون عالمياً .

هكذا كما شاهدناه ، 11/9 حدث في مرحلة تراجع الحمى الاسلاماوية ، محو الأمية ، وتطور السيطرة على النسل ، يسمحان بان، نتابع ونفسر ، في العمق هذا الوضع الراهن الأيديولوجي .

مثل هذا التحليل يأذن بالطبع بان نؤكد أن الولايات المتحدة وحلفاءها الذين يتبعونها في هذه المنطقة ، ليسوا إلا في بداية مشاكلهم في السعودية وفي باكستان . لان هذين البلدين يبدءان القفزة الكبرى في الحداثة ، والاضطرابات التي تواكب ، في أغلب الأحيان ، مثل هذه التجربة . لكن مفهوم الإرهاب العالمي ، الذي يسمح لأمريكا بأن تعيد تحديد نفسها زعيمة " حرب صليبية " وأن تتدخل في أي مكان ، بشكل حماسي وسطحي ، كما في الفليبين أو في اليمن ، وان تقيم قواعد في اوزبكستان كما في أفغانستان ، وأن تسجل نقاطاً على هامش الشيشان ، ليس له أي مبرر اجتماعي ولا تاريخي ، عندما ندرس واقع العالم . وهو عبث من زاوية نظر العالم الإسلامي ، والذي سوف يخرج من أزمته الانتقالية بدون تدخل أجنبي بواسطة عمليات تهدئة آليه . مفهوم الإرهاب ليس مفيداً إلا لأمريكا إذا كانت في حاجة لعالم قديم يشتعل في حالة حرب دائمة .

الفصل الثاني

التهديد الديمقراطي العظيم

اختبار المعيار التعليمي والديمقرافي على مستوى العالم ، يعطي جسماً لفرضية فوكوياما ، عن وجود معنى للتاريخ ، محو الأمية والسيطرة على الخصوبة . يبدوان اليوم على أنها عامان . لكن من السهل ربط هذين المظهرين للتقدم بصعود الفردية ، والتي تقود إلى تأكيد الفرد في المجال السياسي . إحدى التعريفات الأولى للديمقراطية ، كانت تعريف أرسطو ، الذي يبدو اليوم وكأنه معاصر ، حين يربط الحرية بالمساواة ، من أجل أن يتاح لكل إنسان " أن يحيا حياته كما يريد " .

تعليم القراءة والكتابة ، جعل فعليا كل واحد يصل الى مستوى عال من الوعي . هبوط معدلات الخصوبة يكشف عن هذه التغيرات البسيكلوجية التي طالت المجال الجنسي . ليس إذن غير منطقي أن نلاحظ ، في هذا العالم الذي يتحدد بواسطة محو الأمية والتوازن الديمقرافي ، تعدد أنظمة سياسية تتوجه نحو الديمقراطية الليبرالية ، يمكننا طرح فرضية أن الأفراد ، وقد صاروا واعين ومتساوين ، بفضل محو الأمية ، لن يكون بالإمكان حكمهم أبديا بشكل سلطوي ، أو ، والذي يعني نفس الشيء ، أن التكاليف العملية لسلطوية تمارس على شعب بلغ درجة الوعي ، تجعل المجتمع الذي يتكبدها ، اقتصاديا ، غير قادر على المنافسة . في الواقع يمكن أن يتعدد النظر ، إلى مالا نهاية ، حول تفاعل التعليم والديمقراطية. هذا الترابط كان واضحاً جداً لأناس مثل كوندرسيه ، الذي جعل الحركة نحو التعليم في قلب كتابه " لوحة تاريخية لتقدم العقل البشري " [1] ، ليس صعبا أن

1 - كتب عام 1793 ونشر عام 1970 – مزان .

نفسر بواسطة هذا العامل المهم النظرة التي كانت لتوكفيل حول العناية الإلهية في مسيرة الديمقراطية .

هـذا الامتـثال يـبدو لي أكثر هيجلية من نظرة فوكوياما ، الذي يغـوص بعض الشيء في نزعة اقتصادية واستحواذ التقدم المادي علـى تفكـيره . يـبدو لـي أكثـر واقعية ، وأكثر معقولية كتفسير لـتعدد الديمقـراطيات في أوروبـا الشـرقية ، في الفضاء السوفيتي السـابق ، في أمـريكا اللاتينية في تركيا ، في إيران ، وإندونيسيا ، وتايوان ، وكوريا ، لأنه لا يمكن تفسير ازدهار النظام الانتخابي الـتعددي بواسطة الازدهار الاقتصادي المتزايد في العالم . مرحلة العـولمة تـرتبط ، في المجال الاقتصادي ، بانهيار معدلات النمو ، وتـباطؤ ارتفـاع مستوى معيشة الجماهير ، وأحيانا إلى خفضها ، وتقـريبا دائمـا صـعود اللامسـاواة . إنـنا هكذا لا نرى التفسير الاقتصـادي صالحاً . كيف أن لا يقين مادي متعاظم يستطيع أن يـؤدي إلى انهـيار الأنظمـة الدكـتاتورية والى اسـتقرار العمليات الانتخابـية ؟ فرضـية التعلـيم ، علـى العكـس ، تسـمح بادراك مسيرة المساواة تحت غطاء اللامساواة الاقتصادية .

مهما كان النقد الذي وجه لفوكوياما ، ليس من غير المعقول أن نأخـذ في الاعتـبار فرضـيته عـن عـالم يـتحد أخـيرا بواسطة الديمقـراطية الليـبرالية ، مع احتمال سلام عام وفق قانون دويل حـول اسـتحالة الحرب بين الديمقراطيات . مع ذلك يجب علينا التسـليم بـأن الاتجاهات التي تتبعها أمم مختلفة ، ومناطق العالم ، تكون متنوعة بما يكفي .

المـنطق السـليم يجعلـنا نشـك في التقاء مطلق ، حول نموذج اقتصادي وسياسي ليبرالي ، من قبل أمم عاشت تجارب تاريخية

متنوعة ، تنوع الثورة الإنجليزية ، والثورة الفرنسية والشيوعية ، والنازية ، والخمينية ، والشيوعية الوطنية الفيتنامية ، أو نظام الخمير الحمر . فوكوياما يجيب على شكوكه في واقعية هذا اللقاء، عندما يشير إلى الديمقراطية اليابانية الحالية ، شكلياً كاملة، لكن لها خصوصية الإبقاء في السلطان ، منذ الحرب ، والتجربة القصيرة ، أقل من عام 93 - 1994 على الحزب الليبرالي الديمقراطي . في اليابان اختيار الحكام يجري من خلال صراع طوائف داخل الحزب الحاكم ، لكن وفق فوكوياما ، غياب البدائل عن الحزب الذي في السلطة ، لا يحول دون وصف النظام الياباني بأنه ديمقراطي ، لأنه نتاج اختيار حر من قبل الناخبين .

النموذج السويدي ، المبني على هيمنة طويلة الأمد للحزب الاجتماعي الديمقراطي ، يذكرنا بالنموذج الياباني . وحيث أن النظام السويدي ظهر كنتاج محلي ، بدون احتلال أجنبي ، كما كان الحال في اليابان ، يمكننا إذن ، بدون شك ، قبول تعريف فوكوياما عن ديمقراطية ليبرالية حيث الإبدال ليس سمة مركزية.

مع ذلك نعايش البدائل الانجلو ساكسوني ، والاستمرارية اليابانية أو السويدية ، يوحي بوجود أنماط ديمقراطية فرعية ، متميزة جداً . إذن اللقاء لم يكن كاملاً.

- تنوع ديمغرافي بدئي :

المشكل الأساسي الذي يصطدم به عالم السياسة الارثوذوكسي ، هو أنه لا يملك اليوم أي تفسير مقنع للخلافات العقائدية المأساوية في المجتمعات في مرحلة التحديث . لقد رأينا في الفصل السابق ، أن كل الانطلاقات الثقافية تشترك جميعاً في : محو الأمية ، هبوط الخصوبة، نشاط الجماهير السياسي ، دون إغفال . الحيرة وعنف الانتقالية نتاج الاقتلاع العقلي . مع ذلك يجب التسليم بان دكتاتورية كرومويل العسكرية ، الذي إذن بتقاسم الكنائس بين الطوائف البروتستانتية المتنافسة ، والدكتاتورية البلشفية التي وسعت معسكرات الاعتقال على مستوى قارة ، عبرتا عن قيم مختلفة ، وأن التوتاليتارية الشيوعية تختلف ، من حيث القيم ، عن النازية ، والتي بالنسبة لها لا مساواة الشعوب كانت مادة قانونية .

لقد اقترحت عام 1983 في كتاب " الكوكب الثالث : بنى أسرية ونظم أيديولوجية " تفسيراً انتروبولوجيا للاختلاف السياسي وللمجتمعات في مرحلة تحديثها[1] . فرضية الأسرة تسمح اليوم بوصف وفهم التنوع المستمر للعالم الديمقراطي الذي ربما هو في طريقه إلى الولادة .

النظم الأسرية عند الفلاحين المقلوعين بفعل الحداثة ، كانت حمالة قيم متنوعة جداً ، لبرالية أو سلطوية ، مساواة أو لا مساواة ، والتي أعيد استعمالها ، كمواد بناء ، من قبل أيديولوجيات مرحلة التحديث .

---

1 - نشر سوي عام 1999

- الليبرالية الانجلو ساكسونية ، أدخلت ، في المجال السياسي ، مبدأ الاستقلال المتبادل ، الذي يسم العلاقات بين الآباء والأبناء في الأسرة الإنجليزية ، وكذلك غياب مرجعية المساواة في العلاقات بين الأخوة .

- الثورة الفرنسية حولت إلى عقيدة عالمية ، عن الحرية والمساواة بين الناس ، ليبرالية التفاعل بين الأباء والأبناء ، والمساواة في العلاقات بين الأخوة ، وهي علاقة نمطية لفلاحي الحوض الباريسي في القرن 17 .

- الفلاحون الروس ، الموجيك - يعاملون أطفالهم بطريقة متساوية لكنهم يبقون عليهم تحت سلطتهم حتى موتهم ، سواء تزوجوا أم لا ، أيديولوجية الانتقالية الروسية الشيوعية ، كانت، إذن ليس فقط مساواة على الطريقة الفرنسية ، وإنما أيضا سلطوية . هذه الصفة جرى تبنيها في كل مكان حيث تكون البنى الأسرية من النمط الروسي شائعة ، في الصين ، في يوغسلافيا في فيتنام . دون نسيان بعض مناطق أوروبا ، حيث التفضيلات الانتخابية الشيوعية لفلاحي توسانيا وليموزين وفينلاندا تشير إلى ذلك .

في ألمانيا قيم السلطوية واللامساواة ، في الأسرة ، التي تحدد لكل جيل وريثاً واحداً ، كفلت صعود قوة النازية ، أيديولوجيا سلطوية قائمة على اللامساواة.اليابان والسويد يمثلان تنوعات ، مخففة من هذا النمط الانتروبولوجي

بنية الأسرة العربية الإسلامية تسمح بتفسير بعض سمات النزعة الاسلاماوية المتطرفة ، أيديولوجية الانتقالية من بين

أيديولوجيات أخرى ، والذي يسم التركيب الوحيد للمساواة وطموح نحو الامة ، والذي لا يتوصل الى التجسيد في دولة. .

هذا النمط الانتروبولوجي يغطي ما وراء العالم العربي ، بلدانا أخرى مثل إيران ، باكستان ، أفغانستان ، اوزبكستان ، طاجكستان ، كردستان ، اذربيدجان ، وجزءاً من تركيا . وضع المرأة الدوني جداً في هذا النمط الأسرى ، ليس إلا العنصر الأكثر وضوحا فيه . إنه قريب من النموذج الروسي من حيث شكله الاجتماعي ، والذي يجعل الأب شريكا مع أبنائه المتزوجين ، لكنه يتميز عنه جداً ، من حيث تفضيله الزواج الداخلي ، أي الزواج بين أبناء العمومة . الزواج بين أبناء العم، خاصة بين أبناء الأخوين ، يدخل علاقة سلطة خاصة جداً في الأسرة كما في الأيديولوجيا ، العلاقة أبناء – أباء ليست سلطوية حقيقية ، العادة أو العرف يتغلب على الأب ، والشراكة الأفقية ، بين الأخوة ، هي العلاقة الأساسية ، النظام يقوم على المساواة ، وعلى الجماعية . لكنه لا يشجع أبدا على احترام السلطة بشكل عام وخاصة سلطة الدولة[1] .

معدلات الزواج الداخلي تتغير حسب الأماكن ، 50 ٪ في باكستان ، من 25 إلى 35 ٪ في الوطن العربي ، 15 ٪ في تركيا، اعترف بأنني انتظر بفارغ الصبر تطور عملية التحديث العقلي والأيديولوجي ، في الباكستان ، بلاد الحد الأقصى ، من زاوية

1 – من اجل معلومات أكثر انظر : الكوكب الثالث – مسلمو يوغسلافيا ، ألبانيا ، كازاخستان خاصة يتخذون الخط الأبوي ، جماعيون . يعتمدون المساواة ، لكنهم لا يأخذون بنظام الزواج الداخلي ، أما مسلموا ماليزيا وإندونيسيا فلديهم نظام اسري مختلف تماما ، يعطي المرأة وضعاً عاليا ، واحترام للأم مطلق ، ويعيش الزوج بعد الزواج قرب عائلة زوجته .

انتروبولوجية للـزواج الداخلـي . يمكنـنا التأكـيد من الآن . أن قفـزتها لـن تكـون مشـابهة، في كـل النقاط لقفزة إيران ، حيث معـدلات الـزواج الداخلي لا تزيد عن 25 ٪ هذا الحليف غير الموثـوق فـيه للـولايات المتحدة ، لا ينتهـي مـن بعـث رسـائله الأيديولوجية . ومن ادهاشنا .

لوحة 3 نسبة الزواج بين أبناء العم – أبناء الأخوة في النصف الأول لسنة 90

البلد	النسبة		البلد	النسبة
السودان	57		اليمن	31
باكستان	50		قطر	30
موريتانيا	40		الكويت	30
تونس	36		الجزائر	29
الأردن	36		مصر	25
السعودية	36		المغرب	25
سوريا	35		الإمارات	25
عمان	33		إيران	25
تركيا	15		البحرين	23

المصدر : الديمغرافية والبقاء الصحي .

يمكن أن نعدد الأمثلة والتطورات . المهم هنا هو إدراك بعد أنتروبولوجي بدئي مسجل في فضاء وفي أخلاق الفلاحين ، قبل عملـيات الـتحديث . أقالـيم ، شعوب ذات قيم أسرية مختلفة ، دخلـت في تـواريخ متوالية ووفق سرعة مختلفة ، في نفس حركة الاقتلاع إذا نحن أدركنا التنوع الأسري الأصلي للعالم الفلاحي،

كمتغير انتروبولوجي ، وعالمية عملية محو الأمية ، كمتغير تاريخي، سيكون بإمكاننا إدراك معنى التاريخ وظواهر الاختلاف معاً .

- مخطط ممكن : هستيريا الانتقالية ، ثم التقاء ديمقراطي :

أزمة الانتقالية ، تصيب في البداية ، بالهستيريا ، القيم الانتروبولوجية ، الاقتلاع الذي تسببه الحداثة يقود ، كردة فعل إلى إعادة التأكيد ، في شكل أيديولوجي ، على القيم التقليدية للأسرة ، لهذا فان أيديولوجيات المرحلة الانتقالية ، تكون جميعها، بشكل من الأشكال ، أصولية كلها ، سواء كانت واعية بهذا أم لا ، تعيد التأكيد على ارتباطها بالماضي حتى عندما تزعم ، بشدة أنها محدثة ، كالشيوعية مثلا . الحزب الواحد ، الاقتصاد المركزي ، وأيضاً الكي جي بي ، تقوم في روسيا بالدور الشمولي للأسرة الفلاحية التقليدية[1] .

كل المجتمعات التقليدية ، تنجز ، بنفس حركة التاريخ ؛ محو الأمية . لكن الانتقالية تجعل التعارض بين الأمم والشعوب مأساوياً . حينئذ العداء بين الفرنسيين والألمان ، بين الانجلوساكسون والروس يظهر في حده الأقصى ، لان كلاً منهم، يزمجر ، إن صح التعبير ، في شكل أيديولوجي ، معبراً عن خصوصيته الانتروبولوجية الأصلية .

اليوم العالم العربي الإسلامي ، يشدد مأساويا ، مرة أخيرة ، على اختلافه مع الغرب في موضوع المرأة خاصة ، بينما النساء

1 - عام 1853 ، في رسالة إلى غوستاف بوسونت ، عرف توكفيل روسيا التحتية مثل " أمريكا بدون أنوار وبدون حرية ، مجتمع دمقراطي مخيف " توكفيل **الأعمال الكاملة** ، ج 8 – مجلد 3 – ص 164 – قاليماود 1967 .

في إيـران والعـالم العربي ، في طريقهن إلى الإنعتاق ، بفضل منع الحمل .

ثـم الأزمـة تخـف ، ويـبدو تدريجـياً أن كـل الـنظم الانتروبولوجـية تتأثـر بشـكل مختلف ، ولكن متوازي ، بصعود نفـس الفـردية المـرتبطة بمحـو الأمـية . هكـذا عنصـر اللقـاء الديمقراطي ينتهي بان يظهر .

بالطـبع لا تـواجه كـل النظم الانتروبولوجية صعود الفردية الديمقـراطية بـنفس الطـريقة . وكـيف لهـا ذلـك ؟ قـيمة الحرية بالنسـبة لـبعض النظـم الانجلوساكسونية والفرنسية خاصة ، هي قـيمة أصـلية في أسـاس الأسـرة . حـركة الـتاريخ لا تحمـل إلا صـياغتها وتجذيـر تعـبيرها . في حالـة النظام الألماني ، الياباني ، الروسي ، أو العربي ، صعود الفردية القوي يهاجم بعض القيم الانتروبولوجـية البدائـية ، مـن هـنا ينتج العنف الشديد لعملية الانـتقال وبعض الاختلافات فيما تقود إليه ، مخففة قيم السلطة أو الجماعـية الـتي تسـم هـذه النظم في البداية ، لكن لا تلغيها . هكذا نستطيع فهم الاختلافات الملاحظة بين أنماط الديمقراطيات في العـالم الهادي ما بعد الانتقالية الديمقراطية . اليابان مع حزبها الديمقراطي الليبرالي الدائم في السلطة ، وانسجامها الاجتماعي، ورأسماليـتها الصـناعية والتصديرية ، ليست أمريكا . روسيا ما بعـد الشـيوعية ، إيـران مـا بعـد الخمينـية ، لـن تتبنـى الشـكل الاجتماعي للفردية التي تسود الولايات المتحدة .

إنـنا نجـد صعوبة في قبول فكرة أن كل الديمقراطيات الناتجة عـن الانتقالـية ، تكون أساساً مستقرة ، أو حتى متشابهة تماماً ، في أدائهـا ، مـع الديمقـراطيات الليـبرالية الانجلوساكسـونية

والفرنسية . توقع إمكانية عالم هادئ ، قبول توجه عام إلى الفردية المطلقة ، والاعتقاد في الانتصار العالمي للديمقراطية الليبرالية ، هي أمور مختلفة تماماً . في الوقت الحالي لاشيء يسمح باحتقار فرضية فوكوياما . حتى فشل الديمقراطية الأولى ما بعد الشيوعية ، الذي أدى إلى إقامة نظام مختلط يجمع بين الليبرالية الاقتصادية والسلطوية السياسية ، ليس عقبة في طريق النظرية ، يمكن النظر إلى هذه المرحلة على أنها مؤقتة . نموذج تايوان ، حيث نلاحظ ، منذ بعض السنوات ، تطور ديمقراطية حقيقية ، يشير إلى أنه ، في العمق ، لا يوجد تعارض بين الصين والديمقراطية ، على خلاف ما يقوله هانتينقتون .

على العكس نجد صعوبة في تخيل استقرار ديمقراطي وليبرالي ، على مدى طويل ، في أمريكا اللاتينية ، ذات البنى الأسرية النووية ، القائمة على المساواة الجذرية في بناها الاقتصادية ، وحيث تتبادل فيها الديمقراطية والانقلابات العسكرية ، منذ القرن التاسع عشر ، في الواقع حتى الاستقرار السلطوي ، لمدة طويلة ، من الصعب تخيله في حالة أمريكا اللاتينية ، عندما نعرف تاريخها . مع ذلك ، خلال صعوبات اقتصادية كبيرة ، وتخبطات سياسية صعبة الوصف ، فان الديمقراطية الأرجنتينية تقاوم . أما بالنسبة لفنزويلا ، حيث أوساط أرباب العمل والكنيسة ومحطات التلفزيون الخاصة ، وجزء من الجيش ، حاولا الإطاحة بالرئيس شوفيز ، في إبريل 2002 ، فإنها أظهرت صلابة ديمقراطية غير منتظرة . صحيح أن نسبة محو الأمية بين البالغين ، فيها ، اليوم تبلغ 93 ٪ وبين الشباب من 15-24 سنة تبلغ 98 ٪ ، فان بضعة محطات

تلفزيونية لا تكفي لخداع شعب يعرف القراءة وليس المشاهدة فقط . التحولات في العقليات عميقة جداً ، نساء فينزويلا سيطرن على الخصوبة ، حيث أن عدد الأطفال لكل امرأة ، كان في بداية أعوام 2002 ، 2.9 ٪ .

ثبات الديمقراطية الفينزويلية آثار دهشة الحكومة الأمريكية خاصة ، والتي كانت قد أسرعت وأيدت الانقلاب هذا التأييد كان إشارة مهمة تعبر عن لامبالاة جديدة بمبادئ الديمقراطية الليبرالية ، يمكننا تخيل فوكوياما مسروراً بمقاومة الديمقراطية الفينزويلية ، والذي يتفق مع نموذجه ، لكنه ربما انزعج عندما شاهد الولايات المتحدة لا تعبأ ، رسمياً ، بمبادئ الحرية والمساواة ، في الوقت الذي تنتصر فيه هذه المبادئ في العالم الثالث .

إذا اقتصرنا على المستهدف من هذا الكتاب ، وهو دراسة إعادة ترتيب علاقة أمريكا مع العالم ، نجد أنه ليس ضرورياً ، لكي نتقدم في الدراسة ، الوصول إلى خلاصة نهائية حول دمقرطة عامة للكوكب . يكفينا أن نلاحظ ، أن بعد مرحلة معينة من التحديث ، تهدأ المجتمعات وتجد شكلاً من الحكومة غير سلطوي ، مقبولا من أغلبية السكان ، هكذا يكفي أن نقبل صيغة حد أدنى من فرضية فوكوياما ، حول عالمية الديمقراطية الليبرالية ، وأقترب أدنى ما يمكن تبنيه من قانون دويل حول استحالة الحرب بين الديمقراطيات ، وإمكانية تطبيقه .

لماذا لا ننظر في إمكانية قانون موسع ، وليس دوقمانطيقياً ، يفترض أن الحرب أقل احتمالاً بين هذه المجتمعات الهادئة ؟ ، معرفة ما إذا كانت ديمقراطيتها ، بفضل محو الأمية ، تجعل من

نظمهـــا السياســـية معـــادلاً تماماً للـــنموذج الليبرالـــي الانجلوساكسوني، أو الفرنسي ، في هـذا الإطار ، تصير مسألة ثانوية جداً .

- الأمم المتحدة الأوروبية :

الفضـاء الأوروبـي الغربي ، بكل تأكيد ، هو المكان المفضل لتطبـيق فرضيات تفرعت عن أعمال فوكوياما ودويل ، حتى لو أن عـدم قـدرة القـادة علـى الوصـول وحدها إلى توازنها ، تمنع النظر إلى تجربتها على أنها دليل مطلق .

الـــولايات المـــتحدة كفلـــت عســـكريا ، قـــيام واســـتقرار الديمقـراطية الليـبرالية في أوروبـا ، غداة الحرب العالمية الثانية . ألمانـيا الفيدرالـية ، ولمـدة بعـض السنوات ، مثل اليابان ، محمية أمـريكية حقيقـية ، لكـن بعـد قـرنين مـن نشـاط مـبالغ فـيه ، أيديولوجي وحربي ، فان تحول أوروبا إلى حالة سلام وتعاون ، بـين كـل الأمم الأوروبية ، يبرهن على إمكانية هدوء العالم . في قلـب أوروبـا ، العلاقـات الفرنسـية الألمانـية . تكتسـب معاني خاصـة ، إذ مـن حالة حرب تحولت إلى ما يشبه – جداً – حالة سلام أبدي .

الاسـتقرار الديمقراطـي ، والهـدوء ، لا يتضـمن أبـدا ، في أوروبـا ، الـتقاء كـاملاً حول نموذج اجتماعي وسياسي وحيد ، الأمـم القديمـة بلغاتها ، بناها الاجتماعية ، أخلاقيات سلوكها ، لازالـت حـية . لكـي نـبرهن على بقائها ، نستطيع دراسة تنوع أشـكال إدارة الصـراعات والـنظم الحـزبية ، وأنمـاط إبـدال

الحكومات ، لكن نستطيع أيضاً ، أساسا الاكتفاء بالمستوى الديمقرافي .

فيما يتعلق بالنسل ، كل البلدان الأوروبية ، أنجزت مرحلتها الانتقالية مؤشرات الخصوبة ، فيها ، مع ذلك مختلفة جداً من 1.1إلى 1.9 طفل لكل امرأة . إذا حصرنا الاهتمام في الأمم الأوروبية الكبيرة ، والتي صارت متوسطة أو حتى صغيرة ، على مستوى العالم ، نجد ممكنا أن نضع في علاقة ، توزيع مستويات الخصوبة مع التقاليد الأيديولوجية . المملكة المتحدة وفرنسا يتميزان بمؤشرات خصوبة معقولة الارتفاع 1.7 – 1.9 طفل لكل امرأة لكل منهما ، قريب من عتبة تناسل الأجيال ، ومن 1.8 بين السكان " البيض الأوروبيين " في الولايات المتحدة [1] الثلاث ديمقراطيات الليبراليات القديمات يظللن قريبات ، أو متقاربات ، من حيث الولايات ، مع أماكن أخرى، المعدلات 1.3 في ألمانيا وإيطاليا ، 1.2 في أسبانيا ، وهي البلدان الثلاث المنتجة للدكتاتورية ، خلال المرحلة الانتقالية في النصف الأول من القرن العشرين .

هذا التوزيع ، ربما ، ليس صدفة ، في عصر وسائل ضبط النسل الحديثة ، وضع الزوجان نفسيهما ، بواسطة التقنية – حبوب أو غيرها ، في شكل من الحالة الاجتماعية الطبيعية لعدم الإنجاب . في زمن آخر ، كان يتوجب عليهما الكفاح ضد الطبيعة ، وأن يقررا عدم إنجاب أطفال أكثر ، اليوم يجب تقرير إنجاب طفل أو عدة أطفال . السكان ذوو التقاليد الأكثر سلطوية ، فانه يستمر في الوجود ، في شكل ديمقرافي ، تصور

1 – يخصم من 2.1 المعدل الوطني السكاني من اصل أمريكي لاتيني والسود .

أكثر سلبية للوجود ، قرار خفض الخصوبة الذي يجب أن يكون إيجابيا ، يكون اتخاذه فيها أكثر صعوبة .

مثل هذا التفسير يشير بان اختلافات في العقلية عميقة ، مستمرة الوجود بين الشعوب ، خاصة بين الفرنسيين والألمان ، لكن هذا التنوع في السلوك لا يمنع أداء نظامين يحترمان قواعد اللعبة الديمقراطية ، حتى لو أن التداول السلطة يبقى في ألمانيا نادراً ، بينما في فرنسا ، أي معسكر سياسي ، لا يمكنه ، إلا عرضاً ، الفوز في انتخابين متتاليين.

الأمم الأوروبية توجد ، رغم مؤسساتها المشتركة ، وعملتها الموحدة وتعاونها التكنولوجي ، ما يجعل ، بدون شك ، أكثر واقعية ، وربما أكثر حماسية أن نتحدث عن أمم أوروبية متحدة .

لنعبر إلى مستوى الكوكب ، ولنبقى على مستوى تاريخ عام جداً . نتسلح فقط بالمنطق السليم ، دون أن نزعج أنفسنا بإشارات فلسفية أو سياسية مطمئنة : كيف لا نزعم أن عالماً محيت أميته ، وقد وصل إلى حالة ديمقراطية مستقرة ، يكون فيه توجه أساسي للسلام ، والذي يوسع ، على مستوى الكوكب التاريخ القريب لأوروبا؟ .

كيف لا نتخيل أمما هادئة متفرغة لتطورها الروحي والمادي ؟

كيف لا نتخيل هذا العالم مستعيراً الطرق الذي اختارته الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان منذ الحرب العالمية الثانية ؟ انتصار أيديولوجيا الأمم المتحدة بشكل ما ؟

هذا العالم ربما حلم ، ما هو مؤكد ، أنه إذا ظهر فانه يجد شكله النهائي السياسي في انتصار منظمة الأمم المتحدة ، وليس

لديه دوراً خاصا يقترحه على الولايات المتحدة . أمريكا سوف يطلب منها أن تعود إلى كونها أمة ديمقراطية ليبرالية ، مثل غيرها، وأن تسرح آلتها العسكرية ، وأن تنجز انسحاباً استراتيجيا جيداً ، محاطة بعواطف كوكب يعترف بجميلها .

مثل هذا التاريخ لن يكتب ، نحن لازلنا لا نعرف إذا العالمية الديمقراطية الليبرالية والسلام ، يكونان عملية تاريخية لا يمكن تفاديها . نحن نعرف أن مثل هذا العالم سيكون تهديدا بالنسبة لأمريكا . هذه تابعة اقتصادياً ، تحتاج لمستوى من انعدام النظام، الذي يبرر وجودها العسكري والسياسي في العالم القديم .

- عودة إلى الواقعية الاستراتيجية : روسيا والسلام .

لننتهي بواسطة البداية ، من البلد الذي تحوله إلى الديمقراطية أعطى معنى لرؤية فوكوياما الأولى : روسيا قادرة ، صبيحة انهيارها الأيديولوجي ، على أن تهدد ، بواسطة اتساعها الجغرافي ، والديمغرافي والعسكري ، أي بلد في العالم ، التوسع العسكري السوفيتي يمثل المشكل الأساسي بالنسبة للولايات المتحدة ، ويبرر وجود دور الولايات المتحدة كحامية للعالم الحر، انهيار الشيوعية ، يمكن أن يقود ، على مدى متوسط ، إلى أن تكون روسيا ديمقراطية ليبرالية . إذا الديمقراطية الليبرالية لا تستطيع بالطبيعة الاعتداء على أخرى ، فان التحولات الروسية تكفي إذن وحدها ، لأن يتحول العالم ، من حيث الأساس ، إلى فضاء سلام . حالي تصير روسيا عملاقا متسامحاً ، فان الأوروبيين واليابانيين يصير بإمكانهم الاستغناء عن الولايات

المتحدة ، هذه فرضية جزئية بقدر ما هي مؤلمة بالنسبة لأمريكا ، التي ليس في إمكانها الاستغناء عن القطب الثلاثي الصناعي والمالي .

لندفع بالفرضيات أبعد ، إذا العالم القديم توجه نحو السلام، وإذا لم يعد في حاجة إلى الولايات المتحدة ، وإذا على العكس صارت هذه ، اقتصادياً تمارس القرصنة والتهديد ، فان دور روسيا أيضا سوف ينقلب ، لا شيء يحول مسبقاً ، دون تخيل روسيا ديمقراطية ليبرالية ، تحمى بدورها الكوكب ضد أمريكا التي تحاول إعادة تأكيد وضعية إمبريالية تماماً .

سوف أدرس ، بالتفصيل الوضع الاقتصادي والدور الاستراتيجي لروسيا في هذه المرحلة الأولية . مع ذلك من المناسب أن نذكر أنه رغم ضعفها العسكري ، فان روسيا لازالت البلد الوحيد الذي ترسانته النووية تمثل عائقاً أمام القوة العسكرية الأمريكية . اتفاق مايو 2002 ، بين جوج بوش وبوتين ، حول خفض الأسلحة النووية ، يبقي ، عند كليهما حوالي 2000 رأس نووي ، هذا يعني توازن الرعب القديم .

إذاً علاقة أمريكا بالعالم انقلبت ، من الحماية إلى العدوان المحتمل ، فان علاقة روسيا بالعالم سوف تنقلب ، من العدوان إلى الحماية المحتملة . في هذا النموذج ، العنصر الباقي الوحيد هو السمة العدائية في العلاقة روس أمريكان .

الفصل الثالث

البعد الإمبريالي

المقارنـة مـع إمـبراطوريتين قديمـتين ، أثيـنا وروما ، تفرض نفسـها على من يريد أن يستعرض ، باستخدام التاريخ ، تفكيراً في النظام الأمريكي ، المثال الأول يحظى بإعجاب محبي الولايات المتحدة ، أما الثاني فأنه سوف يعجب كارهي الولايات المتحدة. الموقـف لصـالح أمـريكا يقود عموماً إلى اختيار أثينا كمرجعية ، هكذا يقال ، في حالة الولايات المتحدة ، انها أقامت مجال هيمنة سياسـية خـارج الإطـار الوطني ، لم ينتج عن فتح عسكري على النمط الروماني .

بالنسبة لروما ، توسيع الأراضي ، مثل معنى التاريخ نفسه ، انـه الشـفرة الجينية للمدينة . يبدو انه يتضمن أيضا مبدأ التوسع باستخدام القوة المسلحة . كلل الباقي ، حياة سياسية ، داخلية ، فـنون اقتصاد وآداب كان ثانوياً . أثينا ، على العكس ، مصيرها العسـكري فرضـه علـيها التوسـع الفارسـي . الـذي قادهـا مع اسـبرطه إلى أن تكـون على رأس المدن الاغريقية لقد كانت أثينا في الأصـل مديـنة تجـار وحـرفيين ، ومهـد ولادة التراجـيديا والفلسفة والديمقراطية ، بعد هزيمة أولى للفرس ، إسبرطة مدينة بـرية ، انسـحبت من النضال ، بينما أثينا ، قوة بحرية ، واصلت النضـال ، مـن خـلال مـنظمة حلف ديلوس ، وهو كونفدرالية المـدن . الأكثـر قوة تقدم السفن والمحاربين ، والأكثر ضعفاً تقدم المال . هكذا قام أولاً مجال نفوذ أثينا في شكل زعامة ديمقراطية .

الولايات المتحدة قوة أساسا بحرية ، مثل أثينا ، منعزلة حتى بـيرل هاربـور ، ليس بالإمكان اتهامها بنزعة عسكرية وإمبريالية توسـعية فطـرية علـى غرار روما . تأسيس حلف الأطلسي كان بـرغبة مـن حلفـاء الـولايات المـتحدة الأوروبيين . التوازي بين

حلف الأطلسي وحلف ديلوس ليس إذن بدون معنى . الاتحاد السوفيتي يلعب دور الفرس الذي كانوا يهددون المدن الاغريقية، هذه الرؤية التفاؤلية الليبرالية لحلف الأطلسي ، لا يمكنها إغراء إلا الذين نسوا بقية تاريخ أثينا ، اذ سريعاً ما فسد حلف ديلوس ، ومعظم المدن الحليفة فضلت التنصل من التزاماتها العسكرية ، ورأت ان تدفع أثينا جزية بدلا من أن تقدم سفنا وطواقمها . المدينة القائدة ، انتهت بان استولت على الخزانة المشتركة في جزيرة ديلوس ، واستخدمتها ، لكي تمول ، ليس فقط إخضاع مدن الحلف المتمردة ، وإنما أيضا في بناء معابد الاكروبول المثال سواء كان ناقصا أو مفرط الكمال ، يمكنه أن يقود الأوروبيين ، ولم لا اليابانيين أيضا ، إلى التفكير الواقعي في سلوكهم العسكري .

أثينا انتهت بان هزمت على يد اسبرطه ، هذه ، بواسطة قوة الأشياء ، تحولت إلى مدافع عن الحريات الاغريقية . من سوء الحظ المعطيات التاريخية التي بقت على قيد الحياة ، لا تسمح لنا بتحليل دقيق للفوائد الاقتصادية التي تحصلت عليها أثينا من إمبراطوريتها ، ولا لأثر هذه الفوائد على البنية الاجتماعية للمدينة نفسها[1] .

– في أصل العولمة الاقتصادية : الوقائع السياسية والعسكرية : أنصار الإمبراطورية الرومانية مرجعية ، وهم كثرة، يشيرون إلى أن تاريخ الإمبراطورية الأمريكية لم يبدأ عام 1948، مع أحداث براغ ، وكردة فعل على قيام مجال سوفيتي النظام الأمريكي ظهر منذ 1945 ، كانت المحمية الألمانية

1 – حول مجموع هذه الأسئلة انظر : د. مييج : الإمبراطورية الاثنية . اكسفورد 1972 .

واليابانـية ، وهمـا وصـلتان مهـتمان بالنسـبة لأهميـتهما الاقتصـادية ، ألمانـيا كانـت القوة الصناعية الثانية قل الحرب ، الـيابان تكـون ذلـك الـيوم . ومـن المؤكد أن الولايات المتحدة فرضت سلطانها على هذين البلدين بواسطة القوة العسكرية ، وهمـا أساسيان في السيطرة على النظام الاقتصادي العالمي هذا يجعلنا نقترب من الإمبراطورية الرومانية .

الوثائـق تتوفـر في حالـة روما اكثر منها في حالة أثينا ، على المستوى الاقتصادي والاجتماعي ، ويمكننا تقدير تشوهات البنية الاجتماعية التي أدى إليها تراكم الثروة المنتجة في فضاء السيطرة العسكرية ، في مركز سياسي .

خلال المائة سنة التي أعقبت انتصارها الحاسم على قرطاج ، في نهاية الحرب البونية الثانية ، توسعت روما سريعاً نحو الشرق، وسـيطرت علـى مجمـوع حـوض البحـر المتوسط ، منذ صارت تستحوذ على موارد لا محدودة ، من أراضي وأموال وعبيد، إنها تجـني في مجمـوع مجـال نفـوذها ، مـوارد مالية ، لكنها تنقل أيضا كميات كبيرة من المنتجات الغذائية والصناعية . فلاحو وحرفيو إيطاليا فقدوا أهميتهم وجدواهم.

في اقتصـاد البحـر المتوسـط المعـولم هـذا ، بواسـطة الهيمـنة السياسـية لـروما ، انقسـم المجـتمع إلى قسـمين ، وجعل العمال اقتصـادياً بـدون جدوى ، يتواجهون مع أغنياء يعيشون على ما يشبه القرصنة ، أقلية متخمة بالثروة تعيش على استغلال سكان تحولـوا إلى مـا يشـبه الـبروليتاريا. الطـبقات الوسطى انهارت ، وهـي عملـية أدت إلى اخـتفاء الجمهـورية، وقـادت إلى ظهـور

الإمـبراطورية[1] ، وفـق تحلـيل ارسـطو حـول أهمـية الفـئات الاجتماعية الوسطى ، في استقرار الأنظمة السياسية . وحيث انه لم يكـن بالإمكـان تصـفية الفقـراء ، الخاضـعين ، لكـن جغرافيا مهمـين ، انتهـى الأمر بان قدم لهم الغذاء والترفيه على حساب الإمبراطورية ،لقد حصل الفقراء على الخبز والألعاب .

بالنسبة لمن يهتم بالعولمة الاقتصادية المالية ، التي تجري تحت إدارة أمـريكية ، المقارنـة مـع الـنماذج القديمـة ، غنـية جـداً بالدروس، سواء من حيث التشابه كما من حيث الاختلاف .

سـواء استندت إلى المثل الاثيني ، أو إلى المثل الروماني ، فان العـولمة تجعـل واضحاً الأصل السياسي والعسكري لمجال الهيمنة الاقتصادية . هذه النظرة السياسية للاقتصاد ، تصحح من حيث معنـى المصـطلح ، الرأي الشائع ، حاليا ، الذي يقدم لنا العولمة على انها ظاهرة لا سياسية ، وأنه يوجد عالم اقتصادي ليبرالي ، لا تـوجد فـيه دولـة ولا أمة ولا قوة عسكرية . لكن الحقيقة انه سواء انطلقنا من أثينا أو من روما ، فإننا لا نستطيع تفادي النظر إلى أن تكـون اقتصـاد عالمـي معـولم هـو نـتاج عملـية سياسـية عسـكرية . وان بعـض غرائب الاقتصاد المعولم لا يمكن تفسيرها بدون الرجوع إلى البعد السياسي – العسكري للنظام.

من الإنتاج إلى الاستهلاك :

النظـرية الاقتصـادية الليـبرالية ، صـراحة ،ثـرثارة ، عـندما يتعلق الأمر بفضائل التبادل الحر ، وانه وحدة القادر ، وفق هذه

---

1 – أنظر ج. الفولدي : تاريخ روما الاجتماعي 1991 .

النظرية ، على الحد الأقصى للإنتاج والاستهلاك لكل سكان الكوكب ، إنها تلح على ضرورة أن كل بلد يخصص من إنتاج الخيرات والخدمات التي يكن فيها اكثر امتيازاً من غيره ، إنها تتحدث ، إلى مالا نهاية ، عن السمة الآلية للتعديلات التي يقوم بها السوق : توازنات كبرى ورائعة تقوم بين الإنتاج والاستهلاك ، بين التصدير والاستيراد ، بواسطة تارجحات قيم العملات الوطنية ، المدرسة الاسكو لاستيكية الاقتصادية تتحدث عن ، وتخترع وتصف عالماً مثالياً منسجم تماما ومتناسق، فيه كل أمة تشغل حيزاً مساوياً لغيرها ، وتعمل من اجل الصالح العام للمجتمع .

هذه النظرية التي نجد إرهاصاتها عند اسميث وريكاردو ، يجري اليوم تطويرها وتحديثها ، إنها تنتج 80 ٪ في الجامعات الأمريكية الكبرى ، وهي تمثل ، مع الموسيقى والسينما إحدى أهم الصادرات الكبرى الأمريكية أما درجة توافقها مع الواقع ، فهي ضعيفة ، من نمط هوليودي . تفقد بساطتها المركبة ، وتصير خرساء ، عندما يتعلق الأمر بتفسير الواقعة المحرجة ، وهي ان العولمة لا ينظمها مبدأ التناسق وإنما عدم التناسق . العالم ينتج اكثر فأكثر من اجل أن تستهلك أمريكا أي توازن لن يقوم في الولايات المتحدة ، بين الاستيراد والتصدير ، الامة المستقلة ذاتياً، المنتجة فيما بعد الحرب مباشرة ، صارت قلب نظام فيه تتجه إلى أن تستهلك اكثر مما تنتج .

قائمة العجوزات الأمريكية مثيرة للدهشة ، لأنها تتضمن كل البلدان المهمة في العالم . مثلا في عام 2001 ، 83 مليار دولار كان العجز الأمريكي مع الصين ، 68 مليار مع اليابان

60 مليار مع الاتحاد الأوروبي ، منها 29 مليار مع ألمانيا ، 13 مليار مع إيطاليا ، 10 مليار مع فرنسا ، 30 مليار عجز في العلاقة مع المكسيك ، 13 مليار مع كوريا ، وحتى إسرائيل وروسيا وأوكرانيا تملك فائضاً في تبادلها التجاري مع الولايات المتحدة ، على نحو 4.5 – 3.5 – 0.5 لكل منهما .

هكذا كما يتبين استخلاصه من قائمة البلدان التي تحقق فائضاً في التبادل مع الولايات المتحدة ، فان استيراد المواد الخام ليس السبب الرئيس في العجز الأمريكي ، وهو وضع يمكن أن كون طبيعياً بالنسبة بلد متطور .

النفط ، هاجس الاستراتيجية الأمريكية ، مثلا، لا يفسر إلا 80 مليار من العجز التجاري عام 2001 . المنتجات الأخرى ، أساسا صناعية تمثل 360 مليار .

إذا قارنا العجز التجاري الأمريكي ، ليس مع الناتج الوطني الخام ، الذي يشمل الزراعة والخدمات ، وإنما مع الناتج الصناعي وحده ، فإننا نصل إلى نتيجة مثيرة لدهشة : إن الولايات المتحدة تعتمد في 10 ٪ من استهلاكها الصناعي على سلع ، والتي استيرادها لا يغطيه تصدير منتجات وطنية . هذا العجز الصناعي لم يكن عام 1995 إلا 5 ٪

لا نتخيل ، فوق كل شيء ، انه يتركز في سلع ذات تقنية دونية ، وان الولايات المتحدة تتفرغ لمنتجات ذات تقنية عالية . الصناعة الأمريكية لازالت رائدة في مجالات معينة ، الكومبيوتر، مثلا يمثل القطاع الأكثر وضوحاً ، لكن يمكن أيضا ذكر المعدات الطبية ، والطيران .. مع ذلك سنة بعد أخرى نرى

تقـدم الـولايات المـتحدة يـنهار ، في كـل المجـالات ، بما في ذلك قطاعـات التقنـية العالية ، عام 2003 شركة ايرباص ، تنتج من الطائـرات مـا يسـاوي إنـتاج شركة بوينج ، حتى وان لا يتوقع تعـادل مطلـق في القـيم إلا نحو عام 2005 ، 2006 . فائض الميـزان الـتجاري الأمريكي ، بالنسبة لسلع ذات تقنية متقدمة ، انـتقل من 35 مليار دولار عام 1990 إلى 5 مليار عام 2001 وسوف يكون في حالة عجز في يناير 2002[1] .

السـرعة الـتي ظهر بها هذا العجز الصناعي الأمريكي ، هي إحـدى السمات الأكثر أهمية في العملية الجارية . قبيل انكماش عـام 1929 ، 44.5 ٪ مـن الإنـتاج الصـناعي العالمي يوجد في الـولايات المتحدة ، مقابل 11.6 في ألمانيا ، 9.3 ٪ في بريطانيا ، 7 ٪ في فرنسـا ، 4.6 ٪ في الاتحاد السوفيتي ، 3.2 في إيطاليا ، 2.4 في اليابان[2] . سبعون سنة بعد ذلك ، سار الإنتاج الصناعي الأمريكي اقل قليلا منه في الاتحاد الأوروبي ، وبالكاد أعلى منه في اليابان .

هـذا الانهـيار للقوة الاقتصادية ، لم يعوضه نشاط الشركات الأمـريكية المـتعددة الجنسـية ، مـنذ عـام 1988 ، الأربـاح التي تحـولها هـذه الشـركات إلى الـولايات المـتحدة ، كانـت اقل من الأربـاح الـتي تحـولها الشـركات العاملة في الولايات المتحدة إلى بلدانها الأصلية .

1 - الميزان التجاري لولايات المتحدة ، في التقنيات المتقدمة . مكتب الإحصاء .

2 - ارنولد توينبي ، وآخرون : العالم في مارس 1939 . قاليماود 1958 .

- ضرورة قطيعة كوبرنيكية : الوداع للإحصاءات الداخلية :

معظم المحللين الاقتصاديين ، احتفلوا ، قبيل انكماش عام 2001 بالديناميكية الهائلة للاقتصاد الأمريكي ، وبولادة معادلة جديدة تمزج قوة الاستثمار مع ديناميكية الاستهلاك وتضخم ضعيف . معضلة تربيع الدائرة لأعوام 70 أمكن حلها . أمريكا وجدت الطريق إلى النمو بدون رفع مبالغ فيه للأسعار . بداية عام 2002 ، القلق من تأخر الإنتاجية الأوروبية أو اليابانية ، صار بالنسبة لإعلامنا وصحافتنا أمراً مفروضاً . في نفس الوقت حيث حكومة الولايات المتحدة تفرض رسوم جمركية من اجل حماية صناعة التعدين المختلفة . والعاب الفيديو اليابانية ، بلاي ستيشن 2 ، وفيم كوب تسخر من x بوكس ، وهي محاولة مايكروسوفت لمواجهة المنافسة في هذا المجال ، وفي نفس اللحظة حيث كاليفورنيا تفتقد الكهرباء ، ونيويورك تشكو من إمدادات مياه الشرب .

منذ حوالي خمس سنوات ، النظرة المتفائلة ، لكي لا أقول الساذجة ، لاقتصاد الجانب الآخر من الأطلسي ، وللمعنى الحقيقي لمعدلات نمو الناتج الوطني الخام ، والذي لا نعرف بالضبط ماذا يعني ، تبدو لي قابلة للاعتراض عليها . إننا شيئاً فشيئاً في مواجهة اختيار : أن نصدق أرقام الناتج الوطني الخام ، الناتج عن القيم المضافة التي تحققها كل الشركات العاملة داخل الولايات المتحدة ، أو أن نقبل الواقع الذي يصفه الميزان التجاري . هذا الميزان يقيس التبادل بين البلدان ، ويكشف عن العجز الصناعي الأمريكي . حالي إن استيراد سلعة يتبين صعبا

فان توترات حقيقية تظهر ، كما في حالة الكهرباء ، وهو النقص الذي كشف عنه خلل كاليفورنيا .

لقد ترددت كثيراً في موضوع حقيقة الديناميكية الأمريكية ، قضية إنزون Enzon وأيضا قضية اندرسين التي قلتها ، فرضت على القرار . إفلاس انزون أدى إلى تبخر 100 مليار دولار من أرقام العمل ، رقم سحري ، افتراضي ، خرافي ذكرته الصحافة . تزوير الحسابات من قبل إدارة انديرسين Andersen ، لا يسمح بان نقول اليوم ما هو الجزء من هذا المبلغ الذي يمثل القيمة المضافة ، التي حسبت باعتبارها كذلك في حساب الناتج الوطني الخام الأمريكي . لكن على كل حال 100 مليار تمثل حوالي 1 ٪ من الناتج الوطني الخام للولايات المتحدة . ترى كم عدد المشروعات ، التي بمساعدة مكتب حسابات انديرسين ، أو غيره ، من مكاتب المحاسبين ، زورت حساباتها ؟! .

التعدد الحالي لمثل هذه القضايا يفترض أن اغلب المشروعات معنية بذلك .

ما هو هذا الاقتصاد الذي فيه الخدمات المالية ، والتأمينات والعقارات تقدمت مرتين أسرع من الصناعة ما بين 1994 – 2000 لكي تصل إنتاج في " القيمة "يساوي 123 ٪ من إنتاج القيمة الصناعية ؟ كلمة قيمة ين قوسين لان ما يميز قيم الخدمات عن قيم السلع الصناعية هو أن الأولى ، في معظمها لا تستطيع أن تتبادل في السوق الدولي ، بالطبع باستثناء ذلك الجزء من هذا النشاط الذي يضمن إمداد الاقتصاد الأمريكي بالرأسمال ، بنقود سائلة ، ضرورية لتغطية الاستيراد ، مضخم

بسبب التزوير الذي تقوم به المشروعات الخاصة ، الناتج الوطني الأمريكي الخام ، بدأ من حيث المصداقية الإحصائية يشبه الناتج الوطني الخام السوفيتي .

لوحـــة 4

قطاعات الاقتصاد ومعدلات النمو في الولايات المتحدة

	جزء الناتج الوطني الخام 2000 ٪	النمو 1994 – 2000 ٪
ناتج وطني خام	100	40
الزراعة	1.4	15
صناعة منجمية	1.3	41
بناء	4.7	68
صناعة	15.9	28
مواصلات	8.4	36
تجارة جملة	6.4	41
تجارة تجزئة	9.1	44
مالية تأمينات	19.6	54
خدمات شخصية	21.9	59
الدولة	12.3	27

المصدر : مكتب التحليل الاقتصادي الأمريكي

النظرية الاقتصادية الارتودوكسية ليس بإمكانها تفسير انحسار النشاط الصناعي الأمريكي ، وتحول الولايات المتحدة إلى فضاء يتخصص في الاستهلاك ، ويعتمد على العالم الخارجي في إمداداته ، نظرة إمبريالية ، من النمط الروماني ، تسمح ، على العكس ، بادراك العملية باعتبارها نتاج اقتصادي لتنظيم سياسي وعسكري .

غداة الحرب العالمية الثانية ، الولايات المتحدة ، في مواجهة دمار أوروبا واليابان ، وصعود قوة النظام السوفيتي ، نظمت منطقة نفوذها ، في نظام كلي صارت هي مركزه . مرحلة ما بعد الحرب ، قواعد اللعبة ، وفق التفضيلات الأمريكية الأيديولوجية ، فرضت نظاما تجاريا وماليا ، والذي وحده يكفل وحدة الفضاء عسكريا وسياسياً تحت سيطرتها . من الممكن ، في المرحلة الأولى ، إن المزاعم الأمريكية حول ضمان رفاهية اغلب أجزاء الكوكب ، كانت مبررة تماما . من العبث اعتبار ظهور هذا النظام العالمي على انه ظاهرة مدمرة ، خلال أعوام 1950-1975 ، بشهد على هذا خطة مارشال ، التي أمدت أوروبا بوسائل إعادة البناء ، وأمدت الولايات المتحدة بوسائل تفادي أزمة اقتصادية جديدة ، من نمط أزمة 1929 ، هذه الخطة تظل عملاً سياسياً ذكياً واقتصاديا نادراً في التاريخ . إذن يجب أن نتحدث ، في هذه المرحلة عن إمبريالية إيجابية .

الولايات المتحدة ، مركزة جهودها على النضال ضد الشيوعية ، أعطت أولوية مطلقة للاندماج السياسي في مجال هيمنتها العسكرية ، واثقة إلى حد ما من السمة الدائمة والانطولوجية لسياستها العسكرية . لهذا الهدف فتحت اسواقها

لمنتجات الأوروبية وخاصة اليابانية ، مضحية أولا بدون وعي ، ثم ببعض القلق ، بحدوث اختلالات واسعة في صناعاتها . العجز التجاري ظهر في بداية أعوام 70 ، ثم اتسع منذ ذلك الحين ليشمل التبادل مع مجموع بلدان العالم ، ما وراء ، حتى هيمنة أمريكا السياسية الأصلية .

انهيار الشيوعية سمح بدخول بلدان مهمة جديدة ، في نظام التبادل هذا ، ان الصين وليس أوروبا أو اليابان التي تحقق أقوى فائض تجاري في تبادلها مع الولايات المتحدة . الإفراط الاستهلاكي الأمريكي هو منذئذ العنصر الأساسي لبناء اقتصادي عالمي ، الذي يراه البعض إمبرياليا . أمريكا ، مع ذلك، لم تعد أساسية بالنسبة للعالم فيما بتعلق بإنتاجها وإنما من حيث استهلاكها ، في وضع من عدم كفاية الطلب الكلي العالمي، وهو ظاهرة بنيوية خلقها التبادل الحر .

- الدولة الكنزية لاقتصاد عالمي متدني :

تحرير التبادل التجاري ، أدى ، حسب النظرية الاقتصادية ، مرة ليس عادة ، إلى صعود اللامساواة في العالم ، ويتجه إلى أن يدخل في كل بلد فوارق في الدخول ، التي تسم الكوكب في مجموعة . في كل مكان المنافسة الدولية شجعت ركود كتلة الأجور ، وصعود أو بالأحرى ، انفجار الأرباح . الضغط على دخول العمل ، الذي ترتب عن التبادل الحر ، ينشط المعضلة الاقتصادية التقليدية للرأسمالية ، والتي نلاحظ اليوم انبعاثها عالميا : أجور مسحوقة لن تسمح باستيعاب إنتاج ينمو

باستمرار. هذه الظاهرة الاعتيادية درسها مالتوس وكينز في إنجلترا ، ومعظم الاقتصاديين الاجتماعيين في القرن 19 وفي القرن 20 . وتظل مفهومة تماماً من قبل الاقتصاديين غير المنضبطين – من غير اقتصادي المؤسسة – في الولايات المتحدة .

إذا اقتصاديو الجامعات الأمريكية ، بشكل عام ، يسلمون بصعود اللامساواة الناتجة عن التبادل الحر ، إلا أن ركود الطلب، في المقابل موضوع محرّم ، بما في ذلك غير المنضبطين الزائفين ، مثل بول كروتمان . إن تبادل هذا الأثر للعولمة هو علاقة قطيعة مع المؤسسة . فقط المتمردون الحقيقيون يخاطرون بالكشف عنه مثل شالمير جونسون ، المتخصص في أسيا ، ومؤلف كاب : " تكاليف ونتائج الإمبراطورية الأمريكية " ، أحد الكتب الأشد قوة حول سلوك الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية[1] . لكن روبير جيلبان محلل واعي للعولمة . واعياً باستمرارية وجود دول – أمم ، وبالاختلافات البنيوية ، بين الرأسمالية الانجلوساكسونية واليابانية أو الألمانية ، والذي يدرك الهشاشة الاقتصادية والأيديولوجية للهيمنة الأمريكية ، لكنه لا يجرؤ على طرح هذه المشكلة ، التي تتضمن الخروج عن حسن السلوك بالنسبة للمؤسسة .

اقترفت هنا بعض اظلم في حق جوزيف ستيفليتز ، رئيس الاقتصاديين في البنك العالمي سابقاً ، وعضو غير مطعون فيه في المؤسسة ، لان جائزة نوبل التي منحت له تمثل شهادة انحياز . في كتابة انكشاف الوهم الكبير ، يطرح مشكلة الطلب الكلي العالمي ، ويردد مرات عدة عدم قدرة صندوق النقد الدولي

1 – هينري هوت : نيويورك ، حول الانهيار البنيوي للطلب .

إدراك عـدم كفايـة الطلـب الـوطني أو حتى الإقليمي ، في أسيا خاصـة[1] لكـن سـتيفليتز يظـل وفـيا للتـبادل الحر ، ولا يستطيع عملـيا إلا أن يتأسـف علـى عـدم وجـود هيـئة عالمـية من اجل الانـتظام . لا اعـرف هـل هـو ساذج أم حاذق ، أم ربما هو معاً ساذج وصادق : قاسي على بيروقراطي صندوق النقد الدولي ، لكنه متمسك بدوقما مهنته . لا يجب الإلحاح كثيراً ، وعبثا ، إن أحـد اكـبر ممثلـي التحلـيل الاقتصادي الأمريكي ، يعيد التأكيد بعـد كينـز ، علـى إن عدم كفاية الطلب الكلي أمر ممكن ، وانه مـن الضـروري إجـراء تنظيم على مستوى العالم . هذا يشير إلى بدايـة مـنعطف ، حتـى لـو ان حكـومة واشـنطون مـن حـيث التعريف ، في وضع سيئ للتفاوض على توابعه .

الـتوجه إلى ركـود الطلـب ، الناتج عن التبادل الحر ، وعن الضـغط علـى الأجـور ، هـو أمـر واضـح ، ويفسـر الانخفاض المنـتظم لمعـدلات الـنمو في الاقتصـاد العالمي ، وانكماشاته التي صـارت متكـررة اكثـر فأكثر . كل هذا ليس جديداً ، لكن علينا دفـع التحليل حتى الوصول إلى تضمناته الاستراتيجية ، بالنسبة للـولايات المـتحدة ، الحالـية ، تدنـي الاسـتهلاك العالمـي ، في صـالحها ، ذلـك لان ركـود الطلب على مستوى عالمي و الذي يتـيح للـولايات المـتحدة ، تبريـر دورهـا التنظيمـي ، والقرصنة الاقتصـادية المعـولمة ، وان تدعـي وتطالـب بوظـيفة دولة كنزية عالمية .

في اقتصـاد عالمـي ، مكبوح ، متدني ، نسبة استهلاك أمريكا اكثـر ممـا تنـتج تنتهـي بـان تعتبر أمرا حسناً بالنسبة للعالم كله .

---

1 - جوزيف ستيقلتز : انكشاف الوهم الكبير فايرد 2000 .

هكذا في كل كساد يجري التحمس لاستمرارية ديناميكية الاستهلاك الأمريكي ، والذي يصير سمة إيجابية أساسية في اقتصاد لم يعد مرادا رؤية عدم إنتاجيته الأساسية . معدلات ادخار الأسر الأمريكية قريبة من الصفر ، لكن كل استعادة انطلاق الاقتصاد الأمريكي تُضخم استيراد السلع القادمة من العالم . العجز التجاري يتعمق ، محققا كل سنة رقماً قياسياً سلبياً، لكن نحن مسرورون ، واكثر من هذا مرتاحين ، انه عالم لافونتين مقلوباً ، فيه النملة تتوسل إلى الفيل أن يتفضل بقبول الغذاء .

موقفنا هنا بالنسبة للولايات المتحدة ، هو موقف الرعايا العالميين ، والكينزيين ، الذين ينتظرون من دولتهم إنعاش الاقتصاد . فعلياً من وجهة نظر كينز ، إحدى وظائف الدولة هي الاستهلاك من اجل دعم الطلب . في النهاية نظريته العامة ، كانت له كلمة لطيفة بالنسبة للفراعنة بناة الأهرامات ، انهم منفقون – مبذرون – لكنهم ينظمون النشاط الاقتصادي . أمريكا هي أهراماتنا التي تغذي بفضل عمل كل الكوكب . إننا لا نستطيع إلا ملاحظة التوافق المطلق بين هذه الرؤية لأمريكا ، دولة كينزية للعالم ، والتفسير السياسي للعولمة . العجز التجاري للولايات المتحدة يجب أن يوصف ، في هذا النموذج بأنه جزية إمبريالية .

المجتمع الأمريكي ، من وجهة نظر اقتصادية ، صار دولة العالم كله ، انه مع ذلك يعتقد نفسه ، بطبيعته ، خصماً للدولة ، وجاهد من اجل اختزال نشاط الدولة في الاقتصاد الوطني ، وذلك بواسطة إلغاء التنظيمات الذي قام به ريغان ، لكن نفى

الدولـة مـن المجتمع ، انتهى بأن جعل من المجتمع دولة ، مع كل السـمات السـلبية الـتي يعـزوها الاقتصـاديون الكلاسـيك ، والكلاسـيك الجدد ، للدولة : لا إنتاجية لا مسؤولية مالية ، مع مـن ناحـية أخـرى الإمكانـيات الإيجابـية الـتي يسـلم بهـا الاقتصـاديون الكنـزيون للدولـة : القـدرة على حفز الطلب في فترات الركود .

الآليات النقودية والبسيكولوجية غامضة ، لكن هؤلاء الأمريكان النشطين جداً . القادرين على تقبل لا أمان سوق العمل ، البدون تنظيم ، صاروا ، في مجموعهم ، موظفين غير منتجين ، ومستهلكين بالنسبة للكوكب . تطرف المسؤولية الفردية لم يقد إلا إلى لا مسؤولية جماعية .

- التشويه الإمبريالي للمجتمع الأمريكي :

هـذا الـتطور الامبريالـي للاقتصاد ، والذي يذكرنا بروما ، غـداة الاسـتحواذ علـى حـوض البحـر المتوسـط ، مس بطريق مخـتلفة قطاعـات مخـتلفة مـن المجتمع ومن الاقتصاد الأمريكي . الصـناعة ، وطـبقة عاملـة ، كانـت حتـى ذلـك الحين مندمجة في الطـبقات الوسـطى ، تكـبدت ضـربة قاصـمة ، تفككها الجزئي يذكـر بـتفكك طـبقة الفلاحـين والحرفيين الرومان، اللتين دمرتا بسـبب تدفق الإنتاج الزراعي والسلع القادمة من صقلية ومصر والـيونان . في حالـة العمال الأمريكان ، سنوات 70-90 يمكن اعتبارها إفقار نسبي ، وأحيانا مطلق .

دون الدخول في تفاصيل الآليات الاقتصادية ، وإذا بقينا على مستوى معين من العمومية . فإننا نلاحظ أن التحول الإمبريالي للاقتصاد الأمريكي ، يتجه إلى تحويل البنى العليا للمجتمع الأمريكي إلى بنى عليا لمجتمع إمبريالي ، المسمى عولمة في اللغة الحالية يتجاوز الإطار الوطني ، هذا المجتمع في طريقة إلى التعولم . احتوى ، في المرحلة الأولى ، مجموع العالم الحر ، ثم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والشيوعية ، صار يحتوي ، تقريبا . كل الكوكب افتراضاً .

في الولايات المتحدة ، نسبة الدخل الوطني ، التي تستحوذ عليها نسبة 5 ٪ من السكان الأكثر ثراء . انتقلت من 5.5 ٪ عام 1980 إلى 21.9 عام 2000 بينما حصة الأثرياء وهم 20 ٪ انطلقت من 43.1 ٪ إلى 49 ٪ . وحصة الأقل ثراء هبطت من 56 ٪ إلى 50.6 ٪ ، الفئات الأربع شهدت حصتها تهبط من 24.7 ٪ إلى 22.9 ٪ ، ومن 17.1 ٪ إلى 14.9 ٪ ، ومن 10.6 ٪ إلى 9.0 ٪ ومن 4.5 ٪ إلى 3.7 ٪ لكل منها .

وفق الترتيب الذي أجرته مجلة فوبيز ، الأربعمائة أمريكي ، الأكثر ثراء عام 2000 صاروا اكثر ثراء مما كان ، الأربعمائة الأكثر ثراء عام 1990 ، بحوالي عشر مرات . بينما الناتج الوطني تضاعف فقط . الانتفاخ الهائل لدخول الجزء العلوي من المجتمع الأمريكي ، لا يمكن تفسيره دون اللجوء إلى النموذج الإمبريالي ، وكذلك الركود أو النمو المتواضع جداً لنمو دخول أغلبية السكان .

لوحــة 5

تطور الدخول في الولايات المتحدة

متوسط الدخل- دولار 2000 -	1980	1994	2000	94/80	2000/94
5 ٪ من الأكثر ثراء	132551	210684	250146	٪59 +	٪ 19 +
20 ٪ الأثرياء فئة عليا	91634	121943	141620	٪33 +	٪ 16 +
٪20الأربع فئات	52169	58005	65729	٪11 +	٪ 13 +
٪20 الثلاث فئات	35431	37275	42361	٪ 5 +	٪ 14 +
٪20 فئتان	21527	22127	25334	٪ 3 +	٪ 14 +
٪20الأشد فقرا،فئة دنيا	8920	8934	10190	٪ 5 +	٪ 14 +

انقسام الفترة 80–2000 إلى مرحلتين ، يكشف ، مع ذلك، أن تضاعف اللامساواة ليس سمة كل الفترة ، وإنما يرتبط بالمرحلة الأولى من إعادة البناء الإمبريالي .

ما بين 80-94 ارتفاع الدخول كان قويا ، بقدر ما إن أصحاب هذه الدخول كانوا أغنياء ومشبعين . النمو كان 59 ٪ بالنسبة لـ 5 ٪ الأكثر ثراء ، ثم يتدنى بقدر ما تهبط فئات الدخول ، ليصير صفراً بالنسبة ل 20 ٪ الأشد فقراً . عندئذ يمكن الحديث عن تفاقم مأساوي للامساواة .

ما بين 94 – 2000، مع ذلك ، الحركة غيرت وجهتها وطبيعتها ، نمو الدخول الأكثر ارتفاعاً صار ضعيفاً + 19 ٪ بالنسبة لأكثر ثراء . كل المجموعات الأخرى ، بما في ذلك الأشد فقراً ، استفادت من زيادة ، تقريبا متساوية ، في

الدخول، 13-16 ٪ أنصار الاقتصاد الجديد رأوا في هذا التغيير مرحلة المساواة في عملية التحديث ، والتي كان يجب أن تتضمن ، في البداية مرحلة نمو اللامساواة ، وهي إحدى النظريات المفضلة في العالم الاقتصادي الصغير في هاد فارد .

لكن متابعين المقارنة مع تاريخ روما ، لا يمكن أن يدهشنا الارتباط بين المرحلة الثانية من التطور الحديث للمجتمع الأمريكي ، وهي الأكثر مساواة بالنسبة لنمو الدخول . وبين الانتفاخ الهائل للعجز التجاري الأمريكي ، ولذي انتقل من أكثر قليلاً من 1000 مليار دولار عام 1993 إلى 450 مليار عام 2000 ، نظام الجزية الإمبريالي ، في السلع المادية وصل إلى النضج ، هكذا مجموع السكان يمكنهم الاستفادة منه .

لقد شهدنا ما بين 1970 و 2000 ، في الولايات المتحدة ، عملية تركيز اجتماعي من نمط روماني ، شاملة تطور بلوتوكراتيا وتوسع في الفقراء . بالمعنى الذي تحمله كلمة Plebe ، لا يعنيان فقط مستوى الثروة وإنما أيضا واقعة ان هذه الثروة ، كانت كبيرة أو غير ذات أهمية ، لا تنتج مباشرة عن نشاط إنتاجي ، وإنما نتاج هيمنة سياسية على العالم الخارجي[1] .

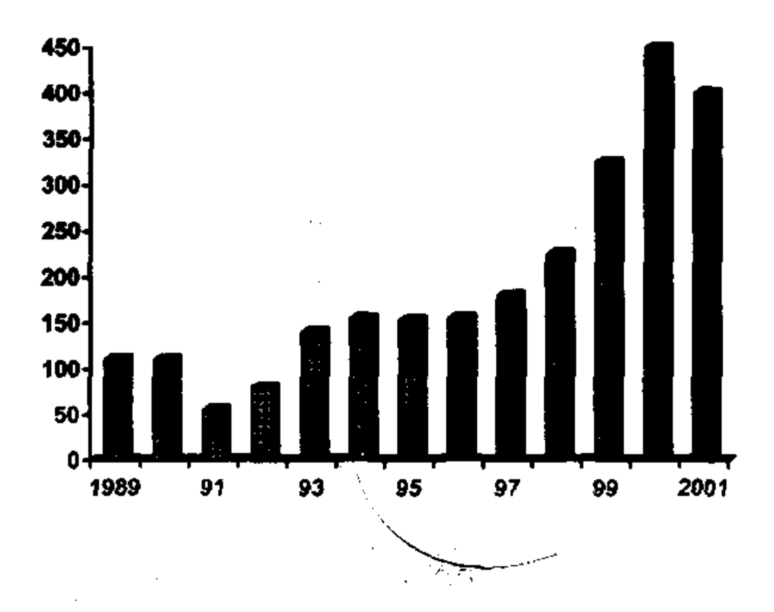
1 - ليس صدفة ، بدون شك انه للمرة الأولى في grand peblum الأمريكي ، وهو المصارع Gladiator ، تكون الإمبراطورية الرومانية موضوعاً يطرح ايجابيا من حيث المبدأ . ولكن نقديا بالنسبة لانحطاطها . لقد صرنا بعيدين عن replum ، المضاد للرومان عموماً مثل كوفاديس ، واسبارتكوس ، وبن هو .

سوف أتناول ، في الفصل القادم ، الآليات الغامضة كفاية ، والتي بواسطتها ، هذه الثروة تنتزع من العالم ، ثم يعاد توزيعها ، في إطار اقتصاد ليبرالي ، لكني أوأكد على مصداقية المقارنة .

أمريكا وصلت ، ما بين 94 – 2000 مرحلة panem et circenses اكثر مما وصلت مرحلة معجزة الاقتصاد الجيد ، اقتصاد الطريق السريع للمعلومات .

بالتأكيد أبالغ بعض الشيء ، من اجل توضح الحجة ، الاقتصاديون الذين يريدون الاعتقاد في السمة الفعالة ، والمنتجة حقاً ، في الاقتصاد الأمريكي ، ليسوا مخطئين باطلاق ، في المرحلة الحالية ، الشيء الوحيد ، غير المعقول ، هو غياب ، أو بالأحرى اختفاء نقاش سنوات 90-95 ، والذي كان أحد محاوره الشك الذي يمس الفعالية الحقيقية للاقتصاد الأمريكي .

منتقلين من النموذج إلى الواقع التاريخي ، يمكننا القول ان أمريكا ترددت ، خلال السنوات العشرين الأخيرة ، بين شكلين من التنظيم الاقتصادي والاجتماعي ، الأمة أو الإمبراطورية . أمريكا ابعد من ان تكون قد فقدت كل السمات الوطنية ، وتفشل باعتبارها إمبراطورية لكن الواضح ان التسارع في التوجه الإمبريالي ، حدث ما بين 90-2000 ولتحديد اكبر ما بين 94-2000 .



المصدر مكتب التجارة الخارجية

- نقاش سنوات 90 - 1995 : الأمة ضد الإمبراطورية

اختيار الاقتصاد الإمبريالي لم يحدث دون نقاش وجدال . لقد وجد في الجانب الآخر من الأطلسي ، اكثر منه في أوروبا ، العديد من الباحثين الذين ينددون بالتبادل الحر ، ونتائجه على عالم العمال الامريكان ، صحيح ، في اغلب الأحيان ، خارج الجامعات الأكثر أهمية ، بالنسبة للحكومة ، انه في الولايات المتحدة ، أعيد اكتشاف فريدريك ليست ، وهو منظر ألماني لنظام الحماية ، والذي هو صيغة اقتصادية تحدد فضاء وطنيا محمياً من العالم الخارجي ، ولكن ليبرالي في أدائه الداخلي[1] .

1 - فريدريك ليست : نظام وطني للاقتصاد السياسي قاليمارد 2000

استراتيجيوا التجارة ، أنصار الدفاع عن الصناعة الأمريكية ضد أسيا ، عموماً ، واليابان خصوصاً ، نشروا عدة نصوص ، وكانت لهم أهمية سياسية ، نوعاً ما ، في بداية الفترة الأولى من رئاسة كلينتون .

استراتيجيوا التجارة ينظرون إلى المشاكل من زاوية اقتصادية ، وتجارية . ميكائل ليند كان الأول الذي أعد ، عام 95 تصوراً لتطور المجتمع الأمريكي مرتبطاً بتأكد التبادل الحر ، ولم يكتف بالتنديد بسحق الوسط العمالي والشعبي ، مساهمته الأكثر أهمية كانت تحديد ووصف الطبقة الجديدة من القادة الأمريكان : الطبقة البيضاء ما فوق الطبقات . لم يجر تحديدها فقط من خلال دخولها ، وإنما أيضا من خلال عاداتها الثقافية والعقلية ، وتفضيلها الدراسات القانونية والدراسات غير التقنية . تعصبها للإنجليزية الرخيص ، تعاطفها مع التمييز الإيجابي لصالح الاقليات في المجال العرقي ، وحذقها في حماية أطفالها في التنافس العقلي في المجال الجامعي . ليند رسم صورة لأمريكا جامدة ، حيث النقابات ليس لها نفوذ على الحزب الديمقراطي والذي يصير اقل فأقل ديمقراطية[1] انه الأول ، كما يبدو لي ، الذي أدرك انه في المرحلة الحالية ، حدث انقلاب بين أوروبا والولايات المتحدة ، القارة القديمة صارت منذئذ أكثر ديمقراطية من العالم الجديد[2] ليند ، مثقف ومناضل ، يطالب بإعادة تحديد

---

1 - ميكائل ليند : الامة الأمريكية القادمة ، نيويورك 1995 . هبات الشركات للحزب الديمقراطي تتفوق على هبات النقابات ص 187 .

2 - نفس المصدر ص 231 .

وطني لأمريكا ، كبلد مكثف بذاته وديمقراطي ، وليس تابعا واوليقادشياً .

كان هذا عام 1905 ، تضاعف العجز التجاري ما بين 94 – 2000 وكذلك تطور الدخول ، يوحي بان المعركة من اجل أمة ديمقراطية مستقلة بذاتها قد خسرت في سنوات 95 – 2000 هذا المسار وتسارع الدينامية الإمبريالية التي يكشف عنها، لا يمكن فهمها بمعزل عن التطور الموضوعي الملاحظ عند الخصم وقطب التوازن الروسي ، هكذا ، كما سنراه في الفصل السادس ، المكرس للمنطق العام للسياسة الخارجية الأمريكية ، حركة الولايات المتحدة نحو نظام إمبريالي ، تام ، لا تتوقف فقط ، ولا أولياً على أثر علاقات القوة الداخلية في المجتمع الأمريكي . الإمبراطورية على علاقة مع العالم ، والذي يتوجب عليها السيطرة عليه ، واحتوائه ، وتحويله إلى فضاء داخلي في سلطان الدولة .

– هل نتحدث عن مستقبل الإمبراطورية الأمريكية ؟

خلال التاريخ ، التكوينات الإمبريالية الحقيقية ، اتصفت دائماً بصفتين مرتبطتين معاً من خلال علاقات وظيفية .

– الإمبراطورية تنشأ عن إرغام عسكري ، هذا الإرغام يسمح بالحصول على جزية تغذي المركز .

– المركز ينتهي بان يعامل الشعوب الواقعة تحت سيطرته كمواطنين اعتياديين ، والمواطنون الاعتياديون يُعاملون كشعوب واقعة تحت السيطرة . ديناميكية السلطان تقود إلى تطور مساواة عالمية والتي اصلها ليس حرية الجميع ، وإنما اضطهاد الجميع .

هـذه العالمية الناشئة عن الطغيان تتطور إلى شعور بالمسؤولية نحو كـل الـرعايا ، في فضـاء سياسـي ، حـيث لم يعد يوجد اختلاف أساسي بين الشعب الغازي والشعوب المفتوحة .

هاتـان الصـفتان يسـمحان ، مباشرة ، بأن نرى ما إذا كانت رومـا أولا غازيـة ، ناهـبة ، ثـم عالمـية ، موفرة للطرق وقنوات المـياه، والقانـون والسلام ، تستحق حقاً لقب إمبراطورية . أثينا لا تمثل إلا شكلاً مجهضاً ، يمكن ، كحد أقصى ،أن نمنح الأخيرة فرصة الاستفادة من الشك . فيما يتعلق بالفتح العسكري ، وان نقـبل ان قـوتها العسـكرية كانـت مقـبولة بسـبب وجـود جزية تدفعها مدن حلف ديلوس ، لكن أثينا لم تتقدم في اتجاه العالمية ، انها اكثر من ذلك عملت على الحكم ، في إطار قانونها الخاص، على بعض النزاعات القانونية بين أعضاء حلف المدن المتنازعة . في المقابـل لم توسـع مثل روما قانونها ، بل إن قانون أثينا ، على العكس ، يتجه إلى التقليص في فترة السلطان المركزي المترسخ .

بالنظـر إلى كـل صـفة مـن الصفتين ، تمثل الولايات المتحدة عـدم كفايـة واضـحة ، لا ينطـبقان عليها بالكامل ، دراسة هذا تسـمح بـان نـتوقع انـه لـن تـوجد إمبراطورية أمريكية نحو عام 2050 .

نمطـان مـن المصـادر الإمـبريالية ينقصـان أمريكا ، سلطانها الارغامـي العسـكري والاقتصـادي غـير كـاف للحفـاظ علـى المستوى الحالي من استغلال الكوكب ، وعالميتها الأيديولوجية في طـريقها إلى الانحطاط ، ولا تسمح لها بمعاملة كل الناس وكل الشـعوب بشـكل متساوي . من اجل ضمان السلام والازدهار حتى لو كان ذلك لكي تستغلهم.

الفصلان القادمان يدرسان هذه العيوب الأساسية .

الفصل الرابع

هشاشة الجزية

من المعتاد ، في هذه الأيام ، التنديد بجيش الولايات المتحدة، على أنه جيش مفرط في ضخامته ، والذي يشهد وحده على طموح إمبريالي ، ويطرح عندئذ أن الإنفاق العسكري ، للقوة العظمى الوحيدة ، يمثل ثلث الإنفاق العالمي ، لا ننتظر مع ذلك أن القادة الأمريكان ينفون قوة جيشهم ، الدراسة المنهجية للأنفاق ، تشير مع ذلك إلى أنه يمثل قلقاً حقيقياً فيما يتعلق بقدرة الولايات المتحدة ، والذي قاد بوش ، حتى قبل عمليات 9/11 إلى اقتراح زيادة في الميزانية . نحن في مواجهة وضع وسط، الجهاز العسكري الأمريكي أكبر مما يحتاجه ضمان أمن الامة ، لكنه أصغر من أن يحافظ ، بشكل دائم ، على الهيمنة على أوراسيا البعيدة جداً عن العالم الجديد.

الهشاشة العسكرية الأمريكية ، بمعنى من المعاني بنيوية ، كامنة في تاريخ أمة لم تضطر أبدا إلى مواجهة خصم ند لها . إننا نفكر مباشرة في الدور الذي لعبته الحروب الهندية ، والتي تواجه فيها ، بشكل غير متكافىء ، قبائل أمية سيئة التجهيز مع جيش حديث على الطراز الأوروبي .

- عدم القدرة العسكرية التقليدية :

الشك إذن يحوم حول حقيقة النزعة العسكرية للولايات المتحدة ، الانتشار الصارخ للموارد الاقتصادية ، خلال الحرب العالمية الثانية ، لا يمكنه جعلنا ننسى تواضع فعالية الجيش الأمريكي في الميدان ، لندع جانباً القصف بالقنابل الثقيلة ، الذي مارسه الانجلوساكسون ، والذي أصاب المدنيين بشكل كبير ،

لكـن لم تكـن لـه ، بـدون شـك ، كنتـيجة واضحة ، إلا تعميق مقاومة الشعب الألماني في مجموعة لهجوم الحلفاء .

حقـيقة الحرب العالمية الثانية الاستراتيجية ، أن الانتصار في الجبهة الأوروبية تحقق بفضل روسيا ، والتي تضحياتها البشرية ، قـبل وخـلال وبعـد سـتالينغراد ، أتاحت تحطيم الآلة العسكرية الألمانـية ، النـازية ، الإنزال في النورماندي ، يونيو 44 لم يحدث إلا متأخـراً ، بيـنما كانـت الفـرق الروسـية قـد وصـلت حدود روسـيا الغـربية في اتجـاه ألمانـيا . لا يمكـن فهـم الغمـوض الأيدلوجي، فيما بعد الحرب ، إذا نسينا أنه في عقول الكثيرين ، في تلـك الفـترة ، قـناعة بـأن الشيوعية الروسية هي التي هزمت النازية الألمانية وساهمت أكثر في حرية أوروبا .

علـى كـل المستويات ، كما رأى المؤرخ ، والخبير العسكري البريطانـي لـيدل هـارت ، سـلوك الفـرق الأمـريكية كـان بيروقـراطيا، بطيـئاً ، وغـير فعـال ، آخذا في الاعتبار الفروق في القـوة العسـكرية والاقتصـادية والبشرية الحاضرة[1] في كل مرة ، حالمـا يكـون ذلـك ممكناً ، العمليات التي تتطلب روح التضحية يعهـد بهـا إلى فـرق حلـيفة : بولـندية وفرنسية في مرتفع كاسان بإيطالـيا ، بولـنديين مـن أجـل محاصـر الشـاطئ الـنورماندي . الاسـلوب الحالـي ، في أفغانسـتان ، والذي يقوم على توريط ، ودفـع الأمـوال ، إلى زعمـاء القـبائل ، عملية بعملية ، ليس إلا الصـيغة الحالـية . حمى منهج قديم ، هنا أمريكا ليست قريبة من رومـا ولا من أثينا ، وإنما من قرطاج ، التي تؤجر مرتزقة ، قولو

1 - ليدل هارت : تاريخ الحرب العالمية الثانية . لندن 1973.

أو غيرهم ، طائرات ب 52 تلعب دور الفيلة ، لكن لا أحد في دور (حنا بعل) .

في المقابل سيطرة القوة الجوية الأمريكية ، غير قابلة للنقاش، إنها واضحة منذ حرب المحيط الهادي ، حتى لو أن هناك ، أحيانا ، توجه لنسيان هذا عندما يجري الحديث عن المواجهة الأمريكية اليابانية ، إنه عدم تكافؤ القوات المادية المتواجهة ، بعد بعض المعارك البطولية الأولى ، مثل معركة ميد واي ، التي جرت ضد قوات مكافئة . فإن حرب المحيط الهادي ، أخذت سريعاً طابع أو شكل " حرب هندية " عدم التكافؤ في القوة التقنية أدى إلى عدم مساواة هائلة في الخسائر[1] .

بعد الحرب العالمية الثانية ، كل خطوة صارت تقرب الجيش الأمريكي من مواجهة مع المنتصر الحقيقي في الحرب البرية في هذا الصراع ، روسيا كشفت الهشاشة العسكرية الأمريكية الأساسية .

في كوريا كانت أمريكا نصف مقنعة عسكرياً ، ولم تكن كذلك أبداً في فيتنام . الاختبار أمام الجيش الأحمر ، من حسن الحظ ، لم يحدث . أما بالنسبة لحرب الخليج فإنها انتصرت ضد وهم ، الجيش العراقي ، أداة عسكرية لبلد متخلف تعداده 20.0 مليون نسمة (عشرون مليون نسمة) .

---

1 - الاحصائيات المتوفرة لا تسمح بتحديد الجبهات ومسارح العمليات ، ولكن الارقام الكلية للموتى في العمليات تعطي مؤشرات كافية : الولايات المتحدة : ضد المانيا واليابان 300.000 المملكة المتحدة 260.000. فرنسا 250.000 روسيا 13.000.000 ، اليابان ضد كل الخصوم 1750.000 المانيا 3.250.000

الظهـور الحـديث لتصـور حـرب بـدون قتلـى ، من طرف الـولايات المـتحدة علـى الأقـل يقـود إلى منـتهاه تفضيلا أصليا لمـواجهة غـير متكافـئة ، إنـه يسلم ، ويصيغ ، ويزيد في خطورة عدم القدرة التقليدية ، البرية ، للجيش الأمريكي .

لسـت هـنا أحـاول اتهام الولايات المتحدة، بأنها غير قادرة علـى الحـرب ، مثل الآخرين ، أعني بشكل غبي ، حرب مجزرة لخصـومها ، ولمواطنـيها علـى السـواء ، القـيام بالحـرب بأقـل التكالـيف بالنسـبة للـنفس وبأقصى التكاليف بالنسبة للخصم ، يمكن أن ينتج عن منطقي نفعي ، مع ذلك غياب تقاليد عسكرية أمـريكية ، بـريا ، يمنع احتلال الأرض ، وتكوين فضاء إمبريالي بالمعنى المعتاد للمفهوم .

الجيش الروسي ، اليوم تقلص إلى جز صغير مما كانت قوته، الكـل يسـخر من صعوباته في الشيشان ، لكن في القوقاز روسيا في طـريقها للتدلـيل علـى أنها لازالت تستطيع جبي ضريبة الدم من سكانها ، وبدعم من الناخبين . هذه القدرة مصدر عسكري مـن نمـط اجتماعـي ونفسـي ، والـتي أمريكا في طريقها لفقدانها نهائياً ، مع تطور مفهوم حرب بدون موتى .

- جغرافية الإمبراطورية :

في عـام 1998 ، ثمـان سـنوات بعد انهيار النظام السوفيتي ، وقبـيل انطـلاق الحرب ضد الإرهاب ، انتشار القوات الأمريكية في العالم ، لازال يتحدد ، بشكل كبير ، بالمواجهة الكبرى الماضية، أي الحـرب الـباردة : خـارج الـولايات المـتحدة ، نجـد 60053 جـندي في ألمانـيا – 41257 في الـيابان – 35665 في كـوريا –

11677 في إيطاليا – 11379 في المملكة المتحدة – 3575 في أسبانيا – 2864 في تركيا – 1679 في بلجيكا ، 1066 في البرتغال ، 705 في هولندا – 498 في اليونان[1] .

هذا التوزيع للقوات الأمريكية، يعطي نظرة غير ذاتية للإمبراطورية بالعدد الذي يوجد فيه موقعا السيطرة الأساسيين للولايات المتحدة، من سيطرتها الحقيقية على العالم القديم، كما يقول ذلك صراحة بريزنسكي، وهما المحميتان الأوروبية وفي الشرق الأقصى اليابان، بدونهما لا توجد قوة أمريكية عالمية، وهاتان المحميتان يغذيان بشكل واسع، في حالة اليابان وألمانيا، 85٪ العسكريين الأمريكيين في الخارج.

إلى جانب هذه الأماكن، توجد أماكن أخرى جديدة، في جنوب شرق أوروبا تشمل المجر، كرواتيا، البوسنا،مقدونيا، لا يوجد بها عام 98 إلا 13774 جندي. ثم الشرق الأوسط، مصر، السعودية، الكويت البحرين، ويوجد بها فقط 9956 جندي. وإذا أضفنا تركيا، المجموع 12820 جندي، هذه القوات متعددة المهام، تتوجه معاً ضد روسيا، ونحو الشرق الأوسط. لكن في الأساس جنود الامبراطورية يسهرون دائماً: تمركز 12 ألف جندي في أفغانستان و 1500 في أوزبكستان أكمل ولم يعيب هذا الاستعداد الجغرافي الأساسي.

- إنسحاب مجهض.

مثل هذه الملاحظة لا تتضمن التنديد بارادة ثابتة ودائمة للعدوان الأمريكي. من الممكن حتى تقديم حجج مناقضة:

---

1 – مكتب الاحصاء الامريكي ، ملخص احصائي للولايات المتحدة 2000 لوحة 580 .

خلال العشرية التي أعقبت إنهيار الامبراطورية السوفيتية، لعبت الولايات المتحدة، بإخلاص لعبة خفض التوتر والانسحاب. في عام 1990 كانت الميزانية العسكرية الامريكية 385 مليار دولار، عام 98، كانت 280 مليار، أي بخفض قدره 28٪. ما بين 1990-2000، العدد الكلي للعسكريين الأمريكان، في الخدمة، هبط من 2 إلى 1.4 مليون، أي هبوط قدره 32٪ في عشر سنوات[1].مهما كانت طبيعة الناتج الوطني الخام الأمريكي فان الحصة المخصصة للإنفاق العسكري ، انخفضت من 5.2 ٪ عام 90 ، إلى 3 ٪ عام 99 . أننا لا نرى كيف مثل هذا التقليص ، بهذا الحجم يمكن أن يفسر على أنه علامة ظاهرة عن إرادة إمبريالية . هكذا التنديد ، بدون انقطاع ، بالمشروع الدائم للهيمنة الأمريكية على العالم . يكون عبثا . انهيار الإنفاق العسكري الأمريكي لم يتوقف إلا نحو عام 96-98 ولم تبدأ الميزانية في الصعود إلا عام 98 .

1) نجد تحليلاً جيداً للانفاق العسكري والقوة العسكرية الأمريكية في كتاب أوهانلون: سياسة الدفاع خيار إدارة بوش. 2001-2002. معهد الصحافة 2001.

لوحة (6) العسكريون الأمريكان في الخارج عام 1998

بلدان حيث يوجد أكثر من 200 عسكري

البلد	عدد العسكريين	البلد	عدد العسكريين
ألمانيا	60053	بلجيكا	1679
اليابان	41257	الكويت	1640
كوريا	35663	كوبا،قوانتانامو	1527
إيطاليا	11677	البرتغال	1066
المملكة المتحدة	11379	كرواتيا	866
البوسنا	8170	البحرين	748
مصر	5846	ديقوغراسيا	705
بنما	5400	هولندا	703
المجر	4220	مقدونيا	518
أسبانيا	3575	اليونان	498
تركيا	2862	الهندوراس	427
اسلندا	1960	استراليا	333
السعودية	1722	هاييتي	230

على الأرض : 218957

محمولون : 40914

المجمــوع : 259871

المصدر : موجز إحصائي للولايات المتحدة سنة 2000 ص 368

مرحلتان يمكن الكشف عنهما ، وجودهما يكشف انقلاباً في الاستراتيجية الأمريكية ، بعد منتصف سنوات 90 بقليل . ومرة أخرى الفترة 1990 – 2000 لا تبدو متجانسة .

- ما بين 90-98 انسحاب إمبريالي في المجال العسكري كان واضحاً ، والذي يتوافق مع صعود الجدال حول الحماية والاختيار المحتمل لمنظور وطني ديمقراطي في المجال الاقتصادي والاجتماعي ، غداة انهيار الشيوعية . إعادة تحديد الولايات المتحدة ، كأمة كبرى زعيمة أمم ليبرالية وديمقراطية ، ولكن متساوية ، في مبدئها ، مع الأمم الأخرى ، نظر إليه بجدية. هذا الاختيار كان سيتضمن العودة إلى الاستقلال الاقتصادي النسبي، وأيضا التقشف ، وليس خفض التبادل مع الخارج ، وإنما توازن الميزان التجاري الخارجي ، وهو ظاهرة اقتصادية للمساواة بين الأمم.

- هذا التوجه انقلب وفق مراحل ، وبالأحرى نقول إنه فشل على مراحل ، ما بين 97 – 99 ، العجز التجاري تفجر ، وبين 99-2001 بدأت أمريكا إعادة العسكرة ، هكذا يوجد رابط ضروري ، بين ازدياد التبعية الاقتصادية ، ونمو الآلة العسكرية . إعادة تطوير القوات المسلحة ينتج عن وعي يضعف الولايات المتحدة الاقتصادي ، المتزايد .

- زيادة الإنفاق العسكري 15 ٪ الذي أعلنه بوش ، نتج عن خيارات سابقة على أحداث 11-9 . نحو عام 1999 والإدارة السياسية الأمريكية أدركت عدم كفاية قوتها العسكرية ، في فرضية اقتصاد ذي نمط إمبريالي ، أي تابع ، مشاكل الأمن العسكري لقوة تعيش على ما تحصل عليه بدون مقابل من

الثروات الخارجية ليست من نفس طبيعة مشاكل البلدان الساعية لتوازن ميزانياتها .

من الصعب ، في حالة الولايات المتحدة ، أن نعتبر هذا الاستحواذ على الثروة ، على أنه الحصول على جزية بالمعنى التقليدي ، الذي وفقه تحصل الدولة أو الإمبراطورية ، عليها مباشرة ، باستخدام العنف والإرغام العسكري ، فقط نفقات الإقامة والإعاشة المدفوعة للفرق الأمريكية ، من اليابان وألمانيا، يمكن تحليلها على أنها جزية من النمط الكلاسيكي . الأسلوب الذي تتوصل به أمريكا للاستهلاك بدون مقابل ، يكون غريباً ، لكي لا نقول غامضاً وخطيراً .

- غرابة وتلقائية الجزية :

أمريكا تستورد، وتستهلك ، إنها تنتزع، لكي تسدد وارداتها، علامات نقودية في العالم كله ، ولكن بشكل أصيل ، ليس له مثيل في تاريخ الإمبراطوريات . أثينا تحصل على جزية . كمساهمة سنوية من المدن الحليفة ، في بداية الأمر إراديا ، ثم مجبرة بالقوة . روما في مرحلة أولى نهبت خيرات البحر المتوسط، ثم استحوذت على قمح سيشيليا ومصر ، إما مباشرة ، أو باستخدام أموال الضرائب . الاستيلاء بالعنف كان في طبيعة روما ، حتى إن القيصر سلم بأنه لا يستطيع الاستيلاء على جرمانيا ، لان هذه زراعتها غير مستقرة وبدائية ، ليست قادرة على تغذية الفرق الرومانية .

الـولايات المـتحدة لا تحصـل بالقـوة إلا علـى جـزء مـن العلامـات النقودية ومن السلع الضرورية لها . هناك كما رأينا ، الإقامـة وإمدادات إعاشة الفرق الأمريكية في اليابان وفي ألمانيا ، وفي حالـة الخليج، مسـاهمات مالـية مباشرة من دول الحلفاء ، والـتي ، علـى خـلاف بـريطانيا وفرنسا ، لم تشارك في العمليات العسكرية . هنا نحن نقترب جداً من الجزية الاثينية . هناك أيضا تصدير الأسلحة . وهو أمر حقيقي ،والتي بيعها يأتي بالأموال ، لكـن قيمـتها ليست محددة ، وفق النظرية الاقتصادية الليبرالية ، حـول تفضـيلات المستهلكين الأفـراد ، نـرى علاقـات قوة بين الـدول هي التي تتيح هذا البيع ، والذي يكشف أحيانا عن قوة إرغـام أمـريكية حقيقـية . كمـا لاحـظ هذا ، في غير صالحهم ، ممثلو داسو السذج ، في كوريا .

المـوارد الماليـة التي يحققها بيع السلاح ، للولايات المتحدة ، تكـون معادلـة لجـزية تنتزع بالطرق السياسية والعسكرية ، لكن حجمهـا لا يسمح أبدا بالحفاظ على المستوى الحالي للاستهلاك الأمريكـي . المعـادون لأمـريكا ، يـتحدثون صـادقين عن الدور السـاحق للـولايات المـتحدة في تصدير السلاح 32 مليار دولار عام 97 . 58 ٪ من المبيعات العالمية . هذه الحصة تكون ضخمة علـى المسـتوى العسـكري . لكـن إذا كـان هذا الحجم له معنى علـى المسـتوى الاقتصـادي ، في هـذا الـتاريخ حـيث العجـز الـتجاري لازال 180 ملـيار دولار ، إلا أنه لم يعد يمثل شيئاً في مقابل 450 مليار دولار عجز تجاري عام 2000 .

السـيطرة الأمـريكية علـى بعض مناطق إنتاج النفط ، تعتبر عنصـراً مهمـا في الجـزية التقلـيدية ، وضـعية هيمـنة الشـركات

المتعددة الجنسية النفطية الامريكية والسياسية والاقتصادية ، تسمح بالحصول على ريع عالمي لكن مستواه لا يكفي اليوم لتمويل الواردات الأمريكية من السلع من كل الأصناف . أهمية النفط داخل مجال الجزية السياسية تساهم مع ذلك ، في تفسير استحواذ العنصر النفطي على السياسة الخارجية الأمريكية .

يبقى أن معظم الجزية التي تحصل عليها الولايات المتحدة بدون إرغام سياسي أو عسكري ، وبواسطة طرق ليبرالية تلقائية. المشتريات الأمريكية من السلع ، من كل العالم ، يجري تسديدها . الفعلة الاقتصاديون الأمريكان ، يحصلون من السوق العالمي النقدي ، الأكثر ليبرالية -منها كافة- ، على العملات الأجنبية التي تتيح لهم القيام بهذه المشتريات . من أجل ذلك يبدلونها بالدولار ، عملة سحرية ، قيمتها لم تنخفض خلال فترة اشتداد العجز التجاري ، على الأقل حتى ابريل 2002 . سلوك سحري جداً ، حتى إن بعض الاقتصاديين استخلص من هذا ان الدور الاقتصادي للولايات المتحدة ، عالميا ، لم يعد الإنتاج ، مثل غيرها من الأمم ، وإنما امتلاك العملة .

- عقدة أوناي

في العالم الأصلي للنظرية الاقتصادية ، الطلب على العملات الأجنبية ، الضرورية لشراء سلع من العالم ، يجب أن يقود إلى خفض الدولار ، وهو عملة ليس عليها طلب كبير ، من أجل شراء السلع الأمريكية ، التي تصير أقل فأقل قدرة على المنافسة على مستوى الكوكب ، مثل هذه الحركة لوحظت في الماضي القريب نسبياً ، في سنوات 70 خصوصاً التي شهدت ظهور العجز التجاري ، وعلى عكس ما يفكر ، في فرنسا،بعض

الديجوليين ، دور الدولار كعملة احتياط ، لا يمنح إذن الولايات المتحدة ، ضماناً للقوة الشرائية النقودية ، مستقلة عن الأداء الجيد لاقتصادها التصديري . يبقى مع ذلك ، أن ربع قرن بعد ذلك ، في بداية القرن الثالث ، رغم عجز تجاري لا سابق له في التاريخ ، وفي غياب معدل فائدة مرتفع ، ورغم معدل تضخم نسبياً أكثر ارتفاعا منه في أوروبا واليابان ، الدولار ظل قويا لوقت طويل ، ذلك لان نقود العالم تجري نحو الولايات المتحدة. في كل مكان ، الشركات ، المشروعات ، البنوك ، مؤسسات الاستثمار ، الخواص ، أخذو يشترون الدولار ، كافلين بهذا إبقاء تعادليته على مستوى مرتفع . هذه الدولارات لا تستخدم، في مثل هذا المحتوى ، في شراء سلع استهلاكية ، وإنما في أن تحقق، في الولايات المتحدة ، استثمارات مباشرة ، أو الحصول على قيم مستندات الخزانة الأمريكية ، التزامات خاصة ، واسهم .

إنها حركة الرأسمال المالي التي تضمن توازن ميزان المدفوعات الأمريكي : سنة بعد أخرى ، وإذا بسطنا الآلية الملاحظة إلى أقصى حد ، نجد أن حركة الرأسمال نحو الفضاء الداخلي الأمريكي ، تتيح شراء السلع القادمة من مجموع العالم . إذا أخذنا في الحسبان واقعة أن معظم السلع المشتراة من الخارج، مواجهة للاستهلاك ، تتوافق مع طلب متجدد بلا نهاية ، على المدى القصير ، بينما الرأسمال المالي المستثمر في الولايات المتحدة يجب أن يتوافق ، في الغالب ، مع استثمارات على مدى متوسط أو طويل ، يجب القبول بوجود شئ من التناقض ، لكي لا نقول بنيوياً غير مستقر في هذه الآلية .

عقب بيانات متكررة ، من وزير الخزانه الامريكيه ، بجده ايكونوميست اللندنية ، ببعض القلق ، أطلقت اسم " عقيدة أوناي " على التأكيد بأنه في عالمنا البدون حدود ، توازن الحساب الخارجي لم تعد له أية أهمية [1] ، فيلكس روهاتين ، سفير الولايات المتحدة السابق في باريس ، يعبر أفضل عن خوف المسؤولين الأمريكان ، عندما ، قلقوا ، بسبب آثار فضيحة انرون على المستثمرين الأجانب ، ويذكر أن أمريكا في حاجة إلى مليار دولار يومياً . من الدخل المالي لتغطية عجزها التجاري[2] .

مكتب التحليل الاقتصادي الأمريكي ، يتابع بقلق مؤكد ، سنة بعد أخرى تغطية الواردات من خلال التدفق المالي . مادامت النقود الوطنية موجودة فان التوازن يجب أن يتحقق بطريقة أو بأخرى . الخطاب المطمئن عند اوناي — أن دورة طمأنة الأسواق عندما يقول أي شئ . لا معنى له إلا في عالم نقودي إمبريالي تام . اذا الدولار له سعر إجباري وقوة تحريرية على مجموع الكوكب ، وهو الوضع الذي شرطه الأساسي سلطان إرغام عسكري ودولي مطلق ، باختصار احتكار فيبريان للعنف الشرعي الممارس من الولايات المتحدة على مستوى العالم ، الجيش الأمريكي الذي لم يقبض بعد لا على الملا عمر ، ولا على بن لادن ، يبدو غير قادر على القيام بهذه المهمة : إذا استهلك الأمريكان بشكل مفرط ، وإذا التدفق المالي توقف فان الدولار سوف ينهار . لكني هنا ربما أكون ضحية مفهوم قديم

---

1 – مقالة نشرت في ايكو 11 ابريل 2002 .

2 – في مقالة عنوانها فضح الرأسمالية . شرها نيويورك ريفو 2002/1/31 .

جـداً عـن الإمـبراطورية وعـن السـلطان ، عندما أعطى أهمية كـبيرة للمفهـوم السياسـي والعسـكري للارغـام . التدفق المالي الحالـي يمكـن أن يكـون ، في مـرحلة الـرأسمالية المعولمة حاجة داخلـية ، العنصـر الـثابت في اقتصاد إمبريالي من نمط جديد .. إنها فرضية يجب طرحها .

- قوة عظمى تعيش يوماً بيوم :

التفسـير السـائد الـذي يقدمـه الاقتصـاديون ، الـذين لا يـرغبون في مواجهة متاعب (إما لانهم يتبعون جامعات رسمية أمـريكية وإمـا لأنهـم يعملـون في مؤسسـات تعيش على انتقال الـرأسمال) يـؤكد علـى أن الـنقود سوف تستثمر في الولايات المتحدة ، لأن الاقتصـاد الأمريكـي أكثـر حـيوية ، وأنـه يتقـبل المخاطـرة أفضـل ، وأنـه يتـبدى أكثر عائدية بالمعنى الدقيق .. لم لا؟ اللا إنتاجية الفيزيقية التكنولوجية أو الصناعية لاقتصاد مثل اقتصاد الولايات المتحدة لا تتضمن في ذاتها أن مستوى عائديته يكـون طفـيفاً . في اقتصاد ما وخلال مدة كافية ولاكن محدودة ، إدراك تعـايش عائديـة عالـية للمشـروعات والشـركات وتطور مـبالغ فـيه لقطاعات غير مجدية ، لا يطرح مشكلة أبداً . النشاط المالـي يمكـن أن يكفي نفسه، وأن يمكن من الحصول على أرباح في عمليات لا تمس المجال الإنتاجي الحقيقي .

لكـن كمـا رأيـنا نصـيب المالـية يـتجاوز ، مـنذئذ ، نصيب الصـناعة في الحـياة الاقتصادية الأمريكـية ، ويمكن الذهاب أبعد مـن ذلـك : معـدل ربـح عالـي في نشـاطات ذات مستوى تقني

وصناعي منخفض ، يقود الاقتصاد نحو اللا إنتاجية . نشاط انرون المتعلق بالسمسرة – الوساطة – كان من هذه الزاوية نموذجياً ، لأنه يتعلق بالحصول على أرباح عمليات وساطة ليست مباشرة منتجة . النظرية الاقتصادية تؤكد لنا أن هذا النشاط يجعل التوازن في حده الأقصى بين الإنتاج والاستهلاك . كما كان يقال قبل عصر الافتراض: البرهان على الحلوى يكمن في أكلها. في حالة انرون صار منذئذ واضحاً أنه ليس هناك ما يؤكل ، لاشيء حقيقي على كل حال ، لكن ظاهرة انرون وجدت وساهمت ، خلال بضع سنوات ، في قيادة الاقتصاد الحقيقي نحو إنتاج منخفض ، أي نحو عجز في الطاقة .

القول بأن النقود تذهب إلى الولايات المتحدة ، لأن المستثمرين يطلبون العائدية ، يعنى الخضوع لمسلمات عصرنا ، التي تؤكد لنا أن معدل ربح عال يتضمن مستوى مخاطرة عال ، وهو بالنسبة للأغنياء أفق أحلامهم . مثل هذا الحافز – حب الربح ولذة المخاطرة – يقود إلى تفوق بنيوي لشراء الأسهم واستثمارات أجنبية مباشرة في الولايات المتحدة . لكن ليس هذا هو الحال ، تدفق الأموال المتجهة نحو الولايات المتحدة ، لا يندمج في النظرة الدينامية والمغامرة عن حدود جديدة ، هي منذئذ عالمية ، أي اقتصاد نيث والطرق السريعة للمعلومات ، البحث عن الأمان ، كما سنرى، يتغلب على العائدية .

الأكثر إثارة للدهشة ، بالنسبة لمن يهتم بتوازن ميزان المدفوعات الأمريكي ، هو تنوع المواقف المتخذة ، بواسطة شراء سندات الخزانة أو الأسهم ، وبواسطة الاستثمارات المباشرة

والالتزامات الخاصة في تمويل العجز الأمريكي[1] ، هذه الحركات العنيفة لا يمكن تفسيرها من خلال تنوع معدلات الفائدة ، والتي ليس لها نفس النسق ولا نفس الحجم . مشتريات سندات الخزانة ، والسندات الخاصة لا يستثني بالطبع من مطلب العائدية، لكنها تكشف أيضا تفضيلاً للأمان ، لمعدلات ثابتة مضمونة من خلال نظام اقتصادي سياسي مصرفي ، ونقود موثوق فيها . لكن هذه المشتريات الامانية – المأمونة – كانت وتكون مهمة جداً من أجل التمويل الجاري للولايات المتحدة .

لندع جانباً ، في التحليل ، المكانة غير المستقرة والغامضة للديون المتنوعة ، مصرفية وغير مصرفية ، ونركز على السمات الكلاسيكية المطمئنة لحركة الرأسمال المالي ، وأيضا نركز على سنوات 90 ، وهي حقبة حاسمة ، خلالها هضم العالم انهيار الشيوعية ، وعاش تأليه العولمة المالية ازدياد تدفق الرساميل نحو الولايات المتحدة ، كان جارفاً ، من 88 مليار دولار عام 1990 إلى 856 مليار عام 2001 . هذه الأرقام لا تشمل بالطبع الحركة العكسية ، مرتين أقل أهمية ، المتمثلة في خروج الرأسمال من الولايات المتحدة لقد استلزم الأمر ميزاناً إيجابيا من 485 مليار دولار عام 2000 لتعويض العجز في ميزان السلع والخدمات . لكن ما وراء الكتلة المتعاظمة للرأسمال المالي المهاجر إلى أمريكا ، المثير للدهشة ، خلال عشر سنوات : هو تنوع أنماط التدفق : عام 1990 نجد الأولوية للاستثمارات المباشرة وإقامة أو شراء شركات من قبل أجانب (55 ٪ من تحصيل النقود) .

---

1 – مكتب التحليلات الاقتصادية .

عـام 91-92-95-96-97 ، شـراء سـندات الخـزانة كان مهمـاً ، ويستخدم في تغطية عجز الموازنة الأمريكية . ما بين 97 -2001 شـراء الأسـهم والسندات الخاصة صعد بقوة ، منتقلاً مـن 28 ٪ من المجموع إلى 58 ٪ نستطيع هكذا الاعتقاد في تأليه الرأسمال الليبرالي ، فعال وسمسار معا .

لكـن إذا ، كمـا كـان ممكـناً في سـنوات 2000-2001 ، تفكـيك الخانـة " مشـتريات قيم خاصة ، إلى أسهم ذات عائدية متغيرة ، والتزامات ذات معدل ثابت ، سيكشف لنا أن الصورة البطولـية السـائدة ، عـن الـبحث عن الربح الأقصى من خلال مخاطـر أقصى ، فان شراء الأسهم لا يصف جوهر الظاهرة . في قيمـتها ، عام 2000 شراء الأسهم الأمريكية ، من قبل أجانب يمـثل مقـدار 192.7 ملـيار دولار ، لكن في نفس التاريخ شراء السـندات بلـغ مقـدار 292.9 ملـيار دولار . إذا قيمـنا هـذه الصـفقات وأحجامهـا ، في نسبة مئوية للنقود الحية التي تنتزعها الـولايات المتحدة مـن العـالم ، فإننا نحصل على 19 ٪ بالنسبة للأسـهم ، 30 ٪ بالنسـبة للسـندات . في عـام 2001 ، سـنة الانكمـاش والرعب الإرهابي ، الحجم الذي تمثله الأسهم هبط إلى 15 ٪ مـن المجمـوع . لكن شهدنا تأليه شراء السندات والتي مثلت 43 ٪ من المجموع .

لوحه 7

شراء سندات واستثمار مباشر من الاجانب في الولايات المتحدة

السنة	المجموع ملايين الدولارات ٪	سندات خزانة ٪	أسهم ٪	استثمار مباشر ٪	ديون ٪
1990	88861	3-	2	55	46
91	78020	24	45	30	1
92	116786	32	26	17	26
93	191387	31	42	27	19
94	243006	41	23	91	43
95	343504	29	28	71	26
96	441952	35	29	20	16
97	715472	20	28	15	37
98	507790	10	43	35	12
99	74789	3-	46	40	16
2000	985470	5-	49	29	27
2001	865584	2	58	18	22

هـذه النتيجة للتحليـل ، وبدون تلاعب بالكلمات ، مهمة جـداً ، كما بين ذلك جيداً كينز ، الشخص الذي يستثمر أمواله يعـيش قلقـاً مزدوجاً ، الخوف من خسارتها ، والخوف من عدم الـربح في أقصـى حـد ممكـن . علـى خـلاف مـا تـذهب إلـيه أيديولوجـيا الليـبرالية الجديدة الحديثة ، التاريخ الحقيقي للمالية الحالـية يشير إلى تفوق مطلب الأمان في اختيار الولايات المتحدة كـبلد اسـتثمار . هـذا يـبعدنا عـن مزاعم الرأسمالية الليبرالية ، لكـنه يجعلـنا نقـترب أكثـر مـن تصـور سياسي إمبريالي للعولمة الاقتصـادية والمالـية . ذلـك لأن الـولايات المـتحدة هي القلب السياسـي للنظام الاقتصادي وتبدو ، حتى تاريخ قريب ، المكان الأكثـر أمانـا مـن أجل استثمار النقود . اللا أمان الذي تكشف حديثاً ، ينتج عن انكشاف التزوير المحاسبي في الولايات المتحدة ، وليس بسبب أحداث 11/ 9 .

ثمـة مشـكلة ، مـع ذلـك لم تحل ، العالم كله يفضل استثمار أمـواله في الـولايات المتحدة . فليكن . لكن لماذا العالم يملك كل هذه الكمية للنقود المطلوب استثمارها ؟

تحلـيل الآثـار المالـية للعـولمة الاقتصادية ، في كل مجتمع من المجـتمعات الوطنـية ، يسـمح بـإدراك آلية ، في العمق بسيطة بما يكفي .

- دولة من أجل الأغنياء :

حتى لو قبلنا أن الرأسمالية هي التنظيم الاقتصادي الوحيد المعقول ، وهذه حالتي ، يجب التسليم بان هذا النظام ، إذا ترك لحال سبيله ، فانه سريعاً ما يدمر نفسه بواسطة اختلالات أساسية فيه ، بما في ذلك بالنسبة للأغنياء . لننسى جماهير العمال، وسحق أجورهم ، لننسى أيضا المصلحة العامة المضروب بها عرض الحائط ، بواسطة التوجه إلى عجز الطلب الكلي ، ونتبنى ولو مرة واحدة ، وجهة نظر المحظوظين ، ونجبر أنفسنا على أن نكون عميانا ، وأن نهتم بمشاغلهم ، أي بمصير أرباحهم.

ارتفاع معدلات الربح ، يزيد في دخول الطبقات العليا ، لكن هذه الدخول المنتفخة لا تكون بأي طريقة حقيقية فيزيقية . كتلة أرباح هي مجموع مالي مجرد . مجموعة علامات نقودية ، والتي لا يستطيع ملاكها ، بالطبع ، استخدامها من أجل استهلاكهم وحده . يمكنهم مضاعفة إنفاقهم الشخصي ، وأن يوزعوا نحو الأسفل من المجتمع ، من خلال شراء الخدمات ، جزءا من الدخول المتحصل عليها ، هذه الآلية الآن مهمة جداً في الولايات المتحدة ، حيث تطور الخدمات لم يعد تطور الخدمات الحديث ، لكنه عودة إلى التبذير القديم للمجتمعات الأرستقراطية الماضية . النبلاء آنذاك المالكون للثروة يعيلون حاشية من الأتباع ، المستخدمين في مهام خدمية أو حربية ، البلوتوكراسيا الجديدة تربط نفسها بخدمات المحاماة ، المحاسبين الحرس الشخصي .

أفضـل مـن حلّـل آلـيات الـتوزيع هذه ، يظل بدون شك ، الاقتصـادي الإنجليـزي آدم سمـيث ، الذي كان أمام عينيه ، في نهايـة القـرن 18 ، يجـري إعادة توزيع ، نحو الأسفل ، للثروة ، بواسـطة الاسـتخدام الواسـع للخـدم " الشـخص يغتني عندما يسـتخدم عمـالاً أكثـر ، يصـير فقـيراً عندما ينفق على كثرة من الخدم " [1].

لكـن الكـتلة المالية المستخرجة اليوم كبيرة جداً ، لقد رأينا ، فـيما سبق ، الانتفاخ الهائل لجزء الدخل الوطني الأمريكي الذي يستحوذ عليه 20 ٪ الأكثر ثراء ، أو حتى 5 ٪ من الأكثر ثراءً . بدرجـة أقـل هذه الظاهرة نجدها سمة في كل بلدان العالم المعولمة اقتصادياً ، ماذا يصنع بدخول لا تستخدم ؟ كيف الحفاظ عليها؟ أو إذا انتقلـنا مـن الخـوف إلى أمـل الاغنـياء : كـيف يمكـن استثمارها؟ وجعلها تنتج نفسها وتتوسع بذاتها ؟ .

الاسـتثمار المالـي ضرورة ، وأكثر من ذلك وجود مجال آمن لـبلورة الأربـاح هـو ، بالنسبة للرأسمالية ، حاجة انطولوجية . كـان هـناك الدولـة الـتي تقترض ، والتي دورها أدركه ماركس جـيداً ، الـريع العمومـي كـان مبكـراً جدا بالنسبة للبرجوازية ، واداة أمـان مالـي . ثـم هـناك البورصـة حـيث تصـب أمـوال الأربـاح، في محـتوى رأسمالـية عالمـية ، عائـده ، خـلال بضـع سنوات إلى الحالة الهمجية ، البلد الذي يتزعم التحول إلى المالية، الدولـة المركـزية للـنظام الاقتصـادي الجديـد ، يملك شكلاً من الامتـياز يجعلـه يستوعب ، بهدف المحافظة والامان ،ربحاً عالمياً لم

---

1 - ثـروة الامم 1979 ص 430 . في المعنى الاقتصادي الذي يعنيه سميث مفهوم خادم يشمل جزء كبير من الاقتصاد الامريكي الجديد اقتصاد الخدمات .

يعد متعدداً . أمريكا تملك كل الميزات : أيديولوجية متكيفة ، وأكبر آلة عسكرية ، وأكبر رسملة بورصية مبدئية ، اليابان جانباً، الرسملة البورصية ، في البلدان الغربية الأخرى ، ظهرت نحو عام 1990 ، صغيرة مقارنة مع الولايات المتحدة . اليابان التي اقتصادها لازال على النمط الوطني ، ومحمي ، والتي لغتها ضمان الغموض لا يمكنها أن تكون منافساً جدياً .

الولايات المتحدة زعيم مالي ، وعسكري ، تقدم في البداية شروط أمان في حدها الأقصى ، وال استريت ، والذي مؤشراته البورصية تبدو منذئذ ، تقود مؤشرات العالم كله ، من الأمس إلى الارتفاع ، واليوم إلى الانخفاض ، صار نفطة الوصول النهائية للآلية : 3059 مليار دولار من الرسملة إلى الولايات المتحدة عام 1990 . 13451 مليار عام 1998 . لكن كل هذا ليس له علاقة كبيرة بمفهوم الفعالية الاقتصادية / والإنتاجية ، بالمعنى الطبيعي الحقيقي ، حتى لو أن صورة التقنيات الجديدة تكون عنصراً غامضاً ، مهما في العملية .

لوحة 8

الرسملة البورصية . ملايين الدولارات

	1990	1998	
الولايات المتحدة	3059	13451	٪240
اليابان	2918	2496	٪15.0
المملكة المتحدة	549	2374	٪180
ألمانيا	355	1094	٪208
فرنسا	314	992	٪216
كندا	242	543	٪124
إيطاليا	149	470	٪283

المصدر : مختصر احصائي للولايات المتحدة **2000** – لوحة **1401**

ارتفاع الرسملة البورصية لا يقارن مع النمو الحقيقي للاقتصاد الأمريكي ، لا يمثل ، في الواقع ، إلا نوعاً من تضخم الأغنياء . الحصول على أرباح ينفخ دخولا تذهب إلى الاستثمار في البورصة ، حيث الندرة النسبية " للسلع " الممكن شراؤها ، الأسهم ، ترتفع قيمتها الاسمية .

- **التبخــر :**

استغلال الطبقات العاملـة ، في العالم المتطور ، الاستغلال المفرط للبلدان في طور النمو ، لا يطرح مشكلة عويصه في وجه تـوازن هـذا المجتمع المعولم . إذا الطبقات القائدة ، في كل بلدان العـالم ، وخاصـة في المحميات الأوروبـية واليابانية ، وجدت في ذلك مصلحتها .

الهشاشة المتزايدة للهيمنة الأمريكية ، تأتي في جزء منها ، من أن الآلـية المنظمة تصـير تهديـداً بالنسـبة للطبقات المحظوظة في الهـوامش الخاضـعة ، سـواء تعلـق الأمـر بمـلاك أوروبـيين ، ويابانـيين، أو بالـبورجوازية الجديـدة في البلدان في طور النمو . علينـا إذا الآن متابعة الاهـتمام بالمصـير العالمي للربح ، والذي سيقودنا إلى أبعد من التنديد الأخلاقي إلى إمكانية تبخره .

إذا خـرجنا مـن نمـوذج عـام ، ومجـرد ، يسـتخدم كلمـات الـرأسمالية ، الـربح ، الأغنياء ، البورصة ... الخ ونعيد إدخال هـذه الكلمـات إلى واقع العالم ، علينا القول ، بكل بساطة ، إن جـزءاً مهمـاً مـن أربـاح العـالم ،يجـري نحـو الـنظام البورصـي الامريكـي . لا أزعـم وحـدي إرادة تقـديم صورة كلية لآليات إعـادة الـتوزيع في الـولايات المـتحدة ، لهـذا الـدخل القادم من الخارج .

كـثير مـن المالـيين والأيديولوجـيين ، يجعلـون مـن الـنظام البورصي لعبة مرايا مشوهة : من استخدام خدمات لا تحصى ، كالمحـامين ، والمحاسـبين مـن قـبل مـلاك الرأسمال ، إلى مديونية الأسـر المتوسـطة ، والـتطهيرات المتوالـية الـتي يتكـبدها وال

استريت. دون نسيان الخفض المتوالي للفائدة على النقود ، مع معدل فائدة حقيقي صفر ، والذي يعادل ، في اقتصاد المضاربة توزيع مجاني للنقود . لكن إذا سلمنا بأن الاقتصاد الأمريكي ، في حقيقته الإنتاجية ضعيف ، كما يشهد على هذا الاستيراد الواسع والمتزايد للسلع الاستهلاكية ، فان علينا اعتبار أن الرسملة البورصية ، هي كتلة وهمية ، وأن النقود المتجهة إلى الولايات المتحدة ، تدخل حقيقة في وهم .

من خلال دروب غامضة ، التي يتصورها محظوظو الهامش ، على أنها استثمار في الرأسمال ، تتحول ، بالنسبة لأمريكا ، إلى علامة نقودية تخدم الاستهلاك الجاري للسلع المشتراة من أنحاء العالم . الاستثمار في الرأسمال يجب إذن ، بشكل أو بآخر أن يتبخر .

عالم الاقتصاد يمكنه التحليل ، التوقع ، الافتراض : انهيار مؤشرات البورصة . اختفاء انرون ، انهيار مكتب المحاسبة اندرسين ، وأن يقدم فرضيات ومعالم . كل إفلاس أمريكي يترجم ، بالنسبة للبنوك الأوروبية واليابانية في تبخر أرصدة . ثم إننا نعرف بالتجربة ، في فرنسا ، أن فضيحة كريدي ليونيه ، بالنسبة لعاشق أمريكا ، جان ماري ميسير ، تجعل استثماراً واسعاً في الولايات المتحدة هو اعلان كارثة حتمية . نحن لا نعرف بعد كيف ولا بأي قدر ، قصفت أجنحة المستثمرون الأوروبيون واليابانيون وغيرهم ، لكن نعرف أن ذلك سوف يحدث . الأكثر معقولية هو أن رعب بورصي، بقدر لا سابق له،

يتبعه انهيار الدولار. تداعي هذه الأحداث سيكون نتيجته وضع نهاية للوضع الإمبريالي الاقتصادي الأمريكي . نحن لا نعرف إذا انخفاض الدولار الذي بدأ في بداية ابريل 2002 ، عقب قضية انرون ، اندرسين ، ليس إلا مزاجية النظام او بداية نهايته. لاشيء من هذا كان مرادا أو موضع تفكير ، لكن انفجار الآلية سيكون مدهشاً كما كأنه ظهورها .

بالقدر الذي فيه دخول الفقراء ، والطبقات الوسطى ، والمحظوظين تقدمت ، بنفس النسق ، في الولايات المتحدة ، من 95-2000 . فإن الأخلاقيين يمكنهم العثور على بعض الدعم، في رؤيتهم أن الفقراء plebe الأمريكان سوف يستحوذون على جزء من أرباح العالم كله . إنه العودة الأصولية إلى جيس جيمس [1] الذي يسرق من الأغنياء ليعطي للفقراء ، مثل هذه الآلة ألا تكشف القوة الإمبريالية للولايات المتحدة مماثلة لإمبريالية روما ؟! .

لكن أمريكا لا تملك قوة روما العسكرية ، سلطانها على العالم لا يمكنه الاستغناء عن موافقة الطبقات المالكة في الهامش ، ما وراء انتزاع معين ومستوى معين من اللا أمان المالي ، الانتماء للإمبراطورية ، بالنسبة للآخرين ، لا يمكنه إن يكون خياراً حكيماً .

---

1 - خارج عن القانون ، مشهور من الغرب الامريكي ، سنوات 1860 – 1880 مع أخيه ، على رأس عصابة تسطو على البنوك والقطارات .

خضوعنا الإرادي لا يمكن له الدوام ، إلا إذا عاملتنا الولايات المتحدة على نحو عادل ، وأفضل من ذلك ، أن تعتبرنا، اكثر فأكثر كأعضاء في المجتمع المركزي المهيمن . هذا هو مبدأ كل ديناميكية إمبريالية ، الولايات المتحدة يجب أن تقنعنا بعالميتها ، بالكلمات وبسلوكها الاقتصادي بأننا " جميعاً أمريكان " لكن أمريكا أبعد ما تكون هكذا ، وأبعد من أن تعاملنا كأمريكان ، إننا إكثر فأكثر نعامل كرعايا من الدرجة الثانية ، لان تراجع العالمية ، من سوء حظ العالم ، هو التوجه الأيديولوجي للرئيس الأمريكي الحالي .

الفصل الخامس

تراجع العالمية

أحد مصادر القوة في الإمبراطوريات، ومبدأ الدينامية والاستقرار معاً هو العالمية، القدرة على المعاملة المتساوية للناس وللشعوب. مثل هذا الموقف يتيح التوسع المستمر لنظام السلطان، من خلال دمج الشعوب والأفراد الواقعين تحت السيطرة، في نواة مركزية. القاعدة العرقية البدئية يجري تجاوزها، حجم الجماعة البشرية التي تندمج في النظام بتوسع بلا توقف، لأن هذا النظام يأذن للخاضعين بأن يعيدوا تحديد أنفسهم كمسيطرين. في عقل الشعوب الخاضعة، العنف البدئي الذي يمارسه المنتصر يتحول إلى كرم.

نجاح روما وفشل أثينا، رأينا ذلك، يرجح أقل إلى القدرة العسكرية المختلفة منه إلى الانفتاح التدريجي لقانون المدينة الرومانية، والانغلاق أكثر فأكثر لقانون مدينة أثينا. الشعب الاثيني ظل جماعة عرقية، يحددها الدم. وابتداء من 451 ق.م توجب أن يكون الوالدان مواطنين، كشرط الانتماء للمدينة. الشعب الروماني الذي ليس لديه ما يحسد عليه أصلا بالنسبة للوعي العرقي، توسع في المقابل، بدون توقف ليشمل تدريجياً كل شعوب لاتيوم، إيطاليا، واخيراً كل شعوب حوض البحر المتوسط. عام 212 م مرسوم كاراكلا منح كل سكان الإمبراطورية الأحرار قانون المدينة، الولايات انتهت بان قدمت لروما معظم أباطرتها.

أمثلة أخرى عن نظم يمكن إيرادها ، ذات نزعة عالمية قادرة على عدم تعدد قوتها العسكرية ، بأن عاملت الشعوب والأفراد على قدم المساواة . الصين التي تضم ، حتى اليوم ، أكبر تجمع بشري ، أمكن جمعه تحت سلطان دولة واحدة ، الإمبراطورية العربية الأولى والتي نموها الهائل تفسره المساواة الإسلامية القصوى للإسلام ، والقوة العسكرية للفاتحين وتفسخ دولة روما وفارس . في الوقت الحديث الإمبراطورية السوفيتية التي انهارت بسبب ضعفها الاقتصادي تستند إلى قدرتها على معاملة الشعوب بشكل متساوي ، والتي تبدو في الأصل سمة الشعب الروسي ، أكثر منها سمة البنية العليا الأيديولوجية الشيوعية . فرنسا التي كانت قبل انهيار سلطانها النسبي ، إمبراطورية حقيقية على مستوى أوروبا ، تعمل وفق قانون ذا توجه عالمي. ومن الإمبراطوريات الحديثة التي فشلت ، يمكن الإشارة إلى النازية ، والتي عنصريتها العرقية منعتها من أن تضيف قوة الجماعات المسيطرة عليها إلى القوة البدئية الألمانية .

الدراسة المقارنة تشير إلى أن استعداد الشعب الفاتح معاملة الجماعات المهزومة على قدم المساواة ، ليس نتاج عوامل خارجية ، إنما يوجد في شكل قانون انتروبولوجي بدئي ، إنه سابق ثقافي ، الشعوب التي بنيتها العائلية تقوم على المساواة ، تنظر إلى الاخوة كمتساوين ، حالة روما ، الصين ، العالم العربي، روسيا ، فرنسا حوض باريس ، تتوجه إلى النظر للشعوب ، بشكل عام كمتساوية ، الاستعدادات الأولية للاندماج تنتج عن هذا السابق القائم على المساواة . الشعوب التي بنيتها العائلية الأصلية لا تتضمن تحديداً دقيقاً يقوم على

المساواة بين الاخوة ، حالة أثينا ، وخاصة المانيا ، لا تتوصل إلى إدراك المساواة بين الأفراد والشعوب . الاحتكاك العسكري يتوجه إلى تدعيم الوعي بالذات " العرقي " للفاتح ، ويقود إلى ظهور نظرة تشتيتية أكثر منها متجانسة للإنسانية ، وإلى وضع تمييزي أكثر منه ذي توجه عالمي .

الأنجلو ساكسون من الصعب وضعهم على المحور، اختلاف عالمية الإنجليز يكونون بوضوح مع الاختلافية ، لقد نجحوا في الحفاظ على هوية القالوا والاسكتلنديين ، في كل القرون ، الإمبراطورية البريطانية قامت ، ما وراء البحار ، بفضل تفوق تكنولوجي ساحق ، واستمرت قليلاً ، أو لم تعمر طويلا ، لم تحاول أبدا دمج الشعوب الخاضعة لها . الإنجليز مارسوا سلطاناً غير مباشر ، والذي لم يمس العادات المحلية . كان هذا تخصصهم، التخلي عن المستعمرات سهلاً نسبياً ، قمة البراغماتية ، لان الإمبراطورية البريطانية لم يكن في نيتها أبدا تحويل الهنود والأفارقة وغيرهم إلى بريطانيين ، وفق الشكل النمطي . الفرنسيون الذين كثير منهم حلموا بجعل الفيتناميين والجزائريين فرنسيين اعتياديين ، وجدوا صعوبة أكبر في قبول التراجع الإمبريالي ، مدفوعين بعالميتهم الكامنة ، انخرطوا في مقاومة إمبريالية والتي كبدتهم كوارث عسكرية وسياسية متوالية .

لا يجب مع ذلك المبالغة في النزعة الاختلافية الإنجليزية ، أخذا في الاعتبار حجم إنجلترا الصغير ، اتساع التكوين الإمبراطور البريطاني ، حتى وإن كان هشاً ، كشف عن استعداد أكيد ، لمعاملة الشعوب المفتوحة ، بشكل ، نسبياً ، مساوي ومهذب . الأعمال الكبرى للانتروبولوجيا الاجتماعية

البريطانية ، وهي أعمال ايفانس برتشارد ، حول نوير السودان، أو ماير خودت حول تالانس غانا ، الرائعة بدقتها وحساسيتها، تم إنجازهـا في الحقبة الاستعمارية . هـذه التحليلات تجمـع الاستعداد الإنجليزي التقليدي لوصف الاختلافات العرقية ، مع إدراك جـاد للعالمية الإنسانية الـتي تخفـيها تنوع البنى . الفردية الانجلوساكسونية تبقـى دائماً على إمكانية إدراك مباشر للفرد ، للإنسـان بشكل عـام اكثـر مـن الإنسـان الـذي شـكله رحـم الانتروبولوجيا .

الحالـة الأمـريكية تعـبر بشـكل حـاد عـن التـناقض الانجلوساكسـوني في المـبدأين المتنافسـين ، النـزعة الاختلافـية والنـزعة العالمـية . الـولايات المتحدة يمكـن وصفها ، في شكل أولي ، على أنها نتاج وطني ودولة لعالمية جذرية . الأمر يتعلق ، قـبل كـل شـئ لمجتمع ولـد مـن دمـج مهاجرين جاءوا من كل شعوب أوروبا ، النواة الإنجليزية الأولى كشفت عن قدرة مطلقة لاستيعاب أفراد من أصول عرقية مختلفة . الهجرة توقفت خلال النصـف الثاني لسنوات العشرين ، ثم عادت في السنوات 60 ، لكـنها اتسـعت نحـو أسيا وأمـريكا الوسطى والجنوبية . القدرة علـى الـدمج ، على توسيع المركز ، أتاحت النجاح الأمريكي ، وهو ما يوجد من نجاح إمبراطوري في مصير الولايات المتحدة ، الكـتلة الديمقـراطية 285 عام 2001 ، 346 مليون متوقع عام 2025 ، تشهد وحدها على هذا الاستعداد .

لكـن يمكـن أيضا وصف الولايات المتحدة بشكل مناقض ، من خلال نزعة اختلافية . جذرية . في تاريخها هناك دائماً آخر ، مخـتلف ، لا يمكن استيعابه ، محكوم عليه بالتدمير ، أو في غالب

الأحيان بالتميز العنصري ، الهندي والأسود لعبا ويستمران في لعبه ، في حالة الأسود والهندي ، في شكل هيزبانيك ، " دور الإنسان المختلف . النظام الأيديولوجي الأمريكي الذي يركب العالمية مع الاختلافية ، في كل واحد ، هذان المفهومان المتعارضان ظاهرياً ، يعملان في الواقع بطريقة تكاملية . في البداية هناك عدم اليقين من الآخر ، حيث لا يمكن تحديده مسبقاً كمماثل أو مختلف ، بعض الأجانب ينظر إليهم على انهم مشابهين مساوين ، وآخرون على أنهم مختلفين دونيين تشابه واختلاف ، مساواة ودونية يولدان معاً بواسطة البلورة رفض الهنود والسود أتاح معاملة المهاجرين الأيرلنديين ، الألمان اليهود ، الطليان ، كمساوين ، أو أنداداً . تحديد هؤلاء ، كأنداد أتاح في المقابل النظر إلى الهنود والسود كدونيين .

اللايقين الانجلوساكسوني حول وضع الآخر ، ليس واقعة حديثة ، إنها تأتي بالعكس ، ربما من بداثية انتروبولوجية معينة من انتماء الإنجليز إلى فئة تاريخية – ثقافية على هامش العالم القديم سواء اندمجوا أم لم يندمجوا في الإمبراطوريات التي توالت فيه ، فإنهم لا يستوعبون جيداً مبدأ المساواة وعدم المساواة هذه البدائية لا تخص إلا المجال العائلي ، ولم تمنع أبدا إنجلترا والولايات المتحدة أن يظهرا ، في المرحلة الأكثر حداثة ، من التاريخ ، كرواد الحداثة الاقتصادية .

الثقافة الإنجليزية إذاً تتسم بعدم تحديد قيم المساواة واللامساواة . بينما هي واضحة جداً في أوراسيا[1] ، إذا رجعنا

1 - سوف أطور هذه النقطة في كتاب قادم حول أصل النظم العائلية ، والذي يبرهن على السمة العتيقة ، بالمعنى الإنتروبولوجي ، للشكل العائلي الانجلو ساكسوني . هذه العتاقة الانتروبولوجية لا تذكر شيئاً

إلى النموذج الانتروبولوجي الذي يربط البنية الانتروبولوجية والإدراك الأيديولوجي مسبقاً ، فإننا نستطيع الكشف – فعليا – في العائلة الانجليزية التقليدية ، عن عدم تحديد يتعلق بالمستوى الأيديولوجي : الاخوة مختلفون ، ليسوا أنداداً وليسوا غير متساوين . على قواعد الوراثة القائمة على اللامساواة عند الألمان أو عند اليابانيين ، والقائمة على المساواة عند الفرنسيين ، والروس والعرب أو الصينيين ، ترد حرية الاختيار عند الآباء الإنجليز ، الذين بإمكانهم توزيع أموالهم كما يريدون بين أبنائهم. هذه الحرية لا تقود – بشكل عام – خارج الأرستقراطية الإنجليزية ، إلى عدم مساواة كبيرة بين الأبناء ، مثل حرمان كل الأبناء لصالح واحد منهم فقط .

التوتر بين الاختلافية والعالمية ، يجعل علاقة الانجلوساكسون مع الآخر ، مع الأجنبي ، مثيرة للاهتمام وذات خصوصية : إنها غير مستقرة .

الشعوب ذات النزعة العالمية ، تحدد مسبقاً ولمرة واحدة ، الشعوب الخارجية ، الأجنبية ، على أنها مماثلة لها ، وهو موقف يقودها ربما ، إلى عدم التسرع عندما ، واقعياً لا يستجيب الأجانب ، لأول وهلة لهذا القبلي الأيديولوجي . استعداد كراهية الأجانب عند الشعوب ذات النزعة العالمية يكون واضحاً ، عصبية الفرنسي أمام حبس النساء العربيات ، احتقار الصيني التقليدي أو الرومان لشعوب الهامش التي لا تسيء

عن استعدادات التطور الثقافي والاقتصادي للمناطق التي تتسم بهذا النمط العائلي ، وسوف أجد الفرصة للبرهنة على أن بعض الاشكال العائلية المتطورة جداً في المعنى الانتروبولوجي – عرب وصينيين – تعرقل التطور . باختصار تطور العائلة يمكنه أن يعيق التطور التعليمي والاقتصادي .

معاملـة نسـائها ، دون نسـيان الخـوف المرضـي مـن السود عند الـروس غـير المعـتادين علـى البشرة السوداء ، لكن ابداً النظام الأيديولوجـي المعاكس لم ينظر ولم يدان . الشعوب التي صراحة اختلافـية ، علـى الأقـل في مـرحلة الفـتوحات الـتي تقوم بها ، كالألمان حتى النازية ، واليابانيين في فترة العسكرتادية ، يصنفون شعوب الكوكب إلى فوقيين وإلى دونيين .

علاقة الانجلو ساكسون بالعالم متحركة ، في رؤوسهم حدود انتروبولوجـية ، والـتي لا تـوجد عـند الشـعوب ذات النـزعة العالمـية، ويقـربهم هـذا مـن الشعوب ذات النزعة الاختلافية . لكـن هـذه الحـدود يمكن أن تغير موضعها ، نحو التوسع أو نحو الانكمـاش ، هـناك نحـن والآخـرون ، لكـن من بين الآخرين ، الـبعض يكـون مثلـنا ، وبعض آخر مختلفين عنا ، من هؤلاء من يكـون مشـابها ويمكـن تصنيفه كذلك . من بين المشابهين هؤلاء الـبعض يمكـن تصنيفه كمختلف . هكذا دائماً هناك حد يفصل الإنسـان الكامـل عـن الآخـر . الفضاء العقلي الإنجليزي يمكن تقليصـه إلى الحـد الأدنـى ، إلى أنفسـهم . لكـن يمكـن أن يتسع ليشمل كل البريطانيين . بالتأكيد اليوم في طريقه للاتساع ليشمل كل الأوروبيين .

يمكـن قـراءة تـاريخ الولايات المتحدة ، على أنه محاولة ،في هـذا الموضـوع ، تعـبر عـن تـأرجح الحدود ، مع توسع مستمر للجماعـة المركـزية من الاستقلال وحتى عام 1965 ، تبع ذلك توجه انكماش من 1965 حتى يومنا هذا .

أنجليـز في بدايـة الأمـر ، عرف الأمريكان كيف يدمجون كل الأوروبـيين وبعد تردد واضح حول وضع مساواة الايرلنديين ،

الطليان ، واليهود ، فئة " أبيض " أتاحت صياغة هذا التوسع الجزئي ، مستبعداً الهند والسود والاسيويين إلى ما وراء الحاجز العقلي الذي يفصل المشابه عن المختلف . بين عام 1950 - 1965 حدث توسع جديد ، الأسيويون والهنود المحليون أعيد تحديدهم على أنهم أمريكان بالكامل ، هذه الظاهرة يمكن قياسها من خلال دخولهم سوق الزواج الأمريكي العام . نساؤهم ، بشكل خاص ، لم تعد محرمة بالنسبة لذكور الجماعة المهيمنة ، هؤلاء يمكنهم الزواج منهن . بين عام 1950 - 1965 ، مشكلة السود ، مع ذلك أظهرت توترا أقصى بين العالمية والاختلافية . في المستوى السياسي الواعي ، الكفاح من أجل الحقوق المدنية ، حاول إدخالهم في الفضاء المركزي ، لكن في المستوى اللاواعي ، للمعتقدات العميقة ، الوضع لم يتغير ، والتمييز ، في موضوع الزواج من نساء السود لم يتقلص إلا بشكل محدود جداً .

التوجه نحو التوسع يمكن تفسيره بطريقة تفاؤلية ، من خلال فرضية عقل إنساني ، صار أخيراً قادراً على الاعتراف ، مع الزمن ، بندية الآخر . مثل هذا التفسير يقتضي وجود دينامية مساواة مستقلة ، أولولية باطنية لمبدأ المساواة على مبدأ عدم المساواة . لكن إن أردنا فهم صعود النزعة العالمية ، بقوة ، في أمريكا سنوات 50-65 ، من سوء الحظ مؤقتاً ، والأكثر إمبريالية ، فإننا لا نستطيع التغاضي عن عامل تفسيري ثاني ، إنه منافسة الإمبراطورية السوفيتية . هكذا فترة الحرب الباردة كانت فترة العالمية الأمريكية القصوى .

روسيا اخترعت وحاولت فرض الشيوعية على العالم ، وهي بالتأكيد الأيديولوجية الأكثر عالمية منذ الثورة الفرنسية، الثورة الفرنسية تقدم مبدأ الحرية لكل الناس ، وليست أقل مساواة، الثورة الروسية اقترحت على العالم: القو لاق للجميع. لكن مهما كانت عيوبها ، لا يمكن أن يؤخذ على الشيوعية أنها لم تعامل كل الشعوب الخاضعة على قدم المساواة . فحص الأداء العيني للإمبراطورية السوفيتية يظهر أن العنف واستغلال الدولة كان أقسى على المركز الروسي منه على الشعوب التابعة. الديمقراطيات الشعبية الشرق أوروبية كانت تتمتع بحد أقصى من الحرية .

العالمية الزوسية واضحة : كانت لها قدرة قوية على الإغراء – كما رأينا – ذلك عند قيام الأممية الشيوعية ، مثل الثوريين الفرنسيين بيد أن لدى البلاشفة استعداداً طبيعياً للنظر إلى كل الناس وكل الشعوب بنفس الطريقة ، موقف ليس فقط مثيراً للإعجاب ، بل أيضا في صالح التوسع السياسي .

خلال الحرب الباردة ، اضطرت أمريكا إلى مواجهة هذه القدرة المهددة ، في الداخل كما في الخارج ، العالمية عبرت عن نفسها ، في الخارج ، بأن توسعت لتشمل البلدان ا لحليفة المتطورة ، داخل اقتصاد ليبرالي متجانس ، ومن خلال تشجيع عملية تصفية الاستعمار في مجموع المجال الغربي .

أما في داخل المجتمع الأمريكي ، فإن منافسة العالمية الشيوعية، جعلت النضال ضد تمييز السود ضرورة . العالم مجبر على الاختيار بين نموذجين ، لا يمكنه اختيار أمريكا التي تعامل بعض مواطنيها على أنهم دونيين . دمج اليابانيين واليهود مثل

نجاحاً لا يمكـن إنكاره ، أما في حالة السود فان دمجهم في النظام السياسـي ، لم يصـاحبه انعـتاق اقتصـادي وانتشـار في المجـتمع الأمريكـي العـام . طـبقة وسطى سوداء تطورت ، لكن كان لها الفيتو الخاص بها ، مضافاً إلى تلك الأغلبية من السود الفقراء .

الفـترة الأكثـر حداثـة ، تـرتبط بانهـيار الخصـم الشيوعي ، شـهدت تـراجع العالمـية الأمـريكية . كـل شيء يجري كما لو أن ضـغط الإمـبراطورية المنافسـة قـاد الولايات المتحدة الى أبعد مما تسـتطيعه فعلاً في مجال العالمية . اختفاء هذا الضغط أتاح للنظام العقلـي الأمريكـي ، أن يسـتعيد توازنه الطبيعي ، وإذن تقليص دائرة دمج الشعوب في عالميتها .

- تـراجع العالمـية الداخلـية ، السود والناطقين بالأسبانية ، عوامل كاشفة .

السـمة المـتعددة الأعـراق للمجتمع الأمريكي ، وللإحصاء الأمريكـي ، تسـمح لـنا بـأن نتتـبع - داخلـياً - تدنـي العالمـية الامـريكية ،وأن نـدرك ، مـن خلال تحليل ديمقرافي ، فشل دمج السـود ، والظهـور الممكن لجماعة ثالثة متميزة ، وهـم الناطقون بالاسـبانية ، في الواقـع هـم لاتيـنو أمـريكان ، من أصل هندي مكسيكيون في أغلبيتهم الساحقة .

الإحصاء الأمريكي ، يشير ، مع ذلك لأول وهلة ، إلى زيادة طفـيفة في عدد الزيجات المختلطة . بالنسبة للسود الأمريكان من جـنس الذكور ، في نهاية القرن الماضي : من 2.3 ٪ عند الأكثر مـن 55 سـنة ، إلى 11 ٪ عـند من عمرهم بين 15-24 سنة . لكـن الزيادة بالنسبة للنساء السود لا تكاد تذكر : نساء الجماعة

الخاضعة لا يجب أن يتزوجن ذكور الجماعة المسيطرة . الزواج ما بين الاعراق يكون أكثر حدوثاً بين الفئات التي تلقت تعليما عالياً .

بالنسبة للأسيويين ، الزيادة على العكس أكثر أهمية ، صعدت من 8.7 ٪ إلى 30.1 ٪ من الزاج المختلط بالنسبة لنفس الجماعة العمرية . شباب اليهود الأمريكان ، بلغوا بالنسبة لهم معدل زواج 50 ٪ . الدخول إلى سوق الزواج العام يصاحبه صعود صاخب للتضامن مع دولة إسرائيل .

الإحصاءات الأكثر حداثة ، تكشف مع ذلك ، أن الزيادة الطفيفة في عدد الزيجات المختلطة ، الملاحظة عند السود ما بين سنوات 80-95 توقفت بعد ذلك . الحولية الاحصائية للولايات المتحدة تسمح بأن نتتبع حداً أدنى من الانفتاح في سنوات 80-95 . ثم جمود الوضع العرقي في السنوات التالية . معدل الزواج المختلط كان بالنسبة للنساء 1.3 ٪ عام 80 ، 1.6 عام 90 وصعد إلى 3.1 ٪ عام 95 ، لكي يستقر في 3 ٪ عام 98 . لكن كان ذلك ، بدون شك ، أكثر مما يحتمل بالنسبة للإحصائيين الأمريكان ، الذين شعروا – غريزيا – بأن هذه الزيادة مهما كانت طفيفة ، كانت مستحيلة " كفاية يعني فعلياً أكثر من كفاية " . بالنسبة لعام 99 استبعدوا الهيزبانيك السود والبيض من الإحصاء ، هذا الاختيار التصنيفي أدى إلى خفض معدل الزواج المختلط بين نساء السود إلى 2.3 ٪ [1] إنذار زائف، أقلية حاملة العالمية الأسبانية حققت نسبة كبيرة من الزواج المختلط ، البورتوريكيون بدون شك ، حاليا حوالي 98 ٪ من

1 – ملخص احصائي للولايات المتحدة 2000 ص 51 لوحة 54

نساء السود ، عندما يكن زوجات ، يعشن مع أسود . إذا أضفنا إلى هـذا الزواج الداخلي العرقي ، المطلق تقريبا، نجد أن حوالي نصـف النسـاء السـود هن أمهات عازبات ، ولسن ، بكل تأكيد متزوجات من بيض . إننا نصل إلى ملاحظة دوام واضح للشكل العرقـي، ربمـا أكثـر صـوابا أن نتحدث عن تفاقم المشكل ، لأن معطيات ديمقرافية أخرى تشير إلى التراجع .

معـدل وفـيات الأطفال ، نسبة وفاة أطفال دون عمر السنة الـواحدة ، تقليدياً اكثر ارتفاعاً عند السود منها عند البيض ، في الـولايات المتحدة . في عام 97 ، 6 أطفال لكل الف نسمة عند البـيض ، 14.2 عـند السـود . الاداء يكـون متواضـعاً بالنسـبة للأمريكان البيض أنفسهم ، لان معدلهم أعلى من معدل اليابان، وكـل بلـدان اوروبـا الغربية . لكن على الأقل انخفض عام 99 وهـبط إلى 5.8 لكل الف نسمه . بينما معدله عند السود – امر خارق – صعد ما بين 97-99 من 14.2 إلى 14.6 [1] .

القـارئ ربمـا لم يـتعود علـى تفسـير اجتماعـي للمؤشـرات الديمقـرافية ، ويمكـنه اعتـبار أن هـذه الزيادة طفيفة ، ويعتقد أن وفـيات الاطفـال لـيس لهـا معنـى عام بالنسبة للمجتمع معدل وفـيات الاطفـال هو ، في الواقع ، مؤشر حاسم يكشف الوضع الحقيقـي للأفـراد الاكثـر هشاشة في مجتمع أو في قطاع معين من المجتمع . الارتفاع الطفيف لوفيات الأطفال الروس ، ما بين 70 -74 جعلـني أدرك مـنذ عـام 1976 تفـاقم الوضـع في الاتحـاد السـوفيتي ، وأتـاح لـي بـان أتوقـع انهـيار الـنظام [2] . الارتفـاع

1 - الاحصاء الحيوي الوطني . مجلد 49 رقم 8 سبتمبر 2001 .

2 - تود – الأنهيار النهائي . سبق الاشارة اليه .

الطفيف لوفيات أطفال السود في الولايات المتحدة ، هو علامة فشل الدمج العرقي في نهاية نصف قرن من الجهود.

النظام العقلي الأمريكي ليس مع ذلك ثنائي العرقية ، في بادية هذا القرن الثالث ، وإنما ثلاثي العرقية ، وذلك عندما تجعل الاحصاءات والحياة الاجتماعية من الهيزبانيك ، وهم في الواقع مكسيكيون من أصول هندية ، مجموعة ثالثة، خاصة، أساسية من حيث حجمها[1] .

المجتمع الأمريكي استعاد البناء الثلاثي الذي كان له لحظة الاستقلال أو عندما حلله توكفيل في بداية القرن 19 : بيض ، سود ، هنود .

مصير الجماعة المكسيكية يظل مجهولاً بالنسبة لعلماء الاجتماع ، بعض المؤشرات ، مثل إتقان أطفالهم اللغة الإنجليزية، يضع في المقدمة تواصل عملية الدمج ، على عكس ما يذهب إليه الجدل الحالي ، الحامي ، حول الناطقين بالأسبانية ، لكن يمكن ملاحظة : أن فترة ارتفاع معدل الزواج المختلط عند الأجيال الأكثر شباباً ، أعقبتها فترة انخفاض ، 17.2 عند السن 25-34 ، صارت 15.5 عند السن 15-24 [2] .

هذا الهبوط لا يكشف بالضرورة ، عن تغير في وضع السكان المعنيين ، لكن يمكن أن ينتج آلياً عن ظهور سكان ذي أغلبية مكسيكية في المقاطعات مثل تكساس ، وكاليفورنيا الأكثر

---

1 - هناك خمس مجموعات من الاحصائيات الامريكية التي تميز من ناحية البيض والسود والهيزبانيك ، في الوقت الحالي الهنود قلة قليلة مندمجة من خلال الزواج المختلط ، مثل الاسيويين ، ويجب اعتبار هم بقايا ايديولوجية .

2 - الديمغرافيا الامريكية نوفمبر 1999 .

قـرباً مـن الحدود . مع ذلك حتى هذا الأثر المحض إقليمي يشير إلى انفصـال جماعـات البـيض ، ولـنقول جماعـات الهيـزبانو – انديان.

مؤشـرات الخصـوبة ، عـند مخـتلف الجماعـات ، عام 99 ، تكشـف تمامـاً عـن انسداد عقلي دائم : 1.82 بالنسبة للبيض ، غـير الهيـزبانيك ، 2.06 بالنسـبة للسـود غـير الهيزبانيك ، 2.9 بالنسـبة للهيـزبانيك[1] عـام 2001 مؤشر الخصوبة في المكسيك كان 2.8 .

هـل حقاً يدهشنا أن نلاحظك في قلب مجتمع استبدل تمجيد المسـاواة في الحقـوق بـتقديس "التنوع " في الاصول والثقافات والاعراق ،وسمى تعدد ثقافي الفشل في الاندماج ؟ .

تقلـص قـيمة المسـاواة ، في المجتمع الأمريكي ، لا يسم فقط مجـال علاقـات الاعـراق ، الـتطور الاقتصادي لأعوام 80-95 يمكـن وصـفه ، رأيـنا هـذا ، علـى أنـه مسـار إجـباري نحـو اللامساواة، يقود ، في بعض القطاعات ذات الدخل المنخفض – في الغالـب سـود كمـا لـو كـان صـدفة – نحـو ظواهـر التراجع والانفجار .

مع ذلك ، مرة أخرى ، يجب تفادي الغرق في الكاريكاتورية، وأن نجـتهد لأدراك مجمـوع آلـيات الـنظام العقلـي الأنجلـو ساكسـوني في مجمـوعة . والـذي في حاجـة للتمييز بين السود ، بالطبع ، والمكسيكيين ، ربما ، لكي يدمج الآخرين ، اليابانيين أو

1 - ملخص : الحكومة – السكان – الأمة htt p www

اليهود . هكذا يمكننا الحديث عن دمج تفضلي أكثر منه نزعة عالمية .

دمج اليهود في قلب المجتمع الأمريكي ، في إطار تراجع العالمية الداخلية يمثل أهمية خاصة ، بالنسبة لمن يهتم بالاختيار الاستراتيجي الامريكي ، لأنه يحدث كصدى لتراجع العالمية خارجياً ، والذي هو ظاهر في علاقة أمريكا بالعالم ،وواضح في إدارة الصراع الشرق أوسطي . إدخال إسرائيل في النظام العقلي الأمريكي يجري داخلياً بقدر ما يجري خارجياً ، استبعاد العرب – يجيب على استبعاد السود والمكسيكيين .

في الولايات المتحدة ، التركيز الأيديولوجي على الدولة العبرية لا يقف عند الجماعة اليهودية . فرضية تراجع عام للعالمية الأمريكية ، تسمح بفهم هذا التركيز . لكن علينا دراسة التاريخ الذي ينكشف بتواضع : قوة العلاقة بين أمريكا وإسرائيل هي واقعة جديدة لا مثيل لها ، الأمر إذن لا يتعلق هنا بتفسيرها وإنما بأستخدامها كاشفة عن توجهات عميقة تعمل في الولايات المتحدة . اختيار إسرائيل هو الظاهرة الأكثر وضوحاً لتراجع العالمية الأمريكية وصعود قوي لنزعة الاختلافية ، والتي تعبر عن نفسها ، على المستوى الخارجي يرفض العرب ، وعلى المستوى الداخلي من خلال صعوبة دمج المكسيكيين . أو باستمرارية التمييز ضد السود .

- تراجع العالمية خارجيا : اختيار اسرائيل .

اختيار أمريكا لإسرائيل يمثل غموضاً حقيقيا بالنسبة للمختصين في التحليل الاستراتيجي . قراءة الكلاسيك الحديثين

لا تقــدم أيــة إضــاءة ، كيســنجر يــدرس المســألة الإســرائيلية الفلسـطينية بالتفصيل ، لكــن بغضــب اتباع " الواقعية " الذي عليه الـتعامل مـع شـعوب لا عقلانـية تكـافح من أجل ملكية أرض موعودة .

هانتينقـتون يضـع إسرائيل خارج الحضارة الغربية التي بريد أن يجعـل مـنها كـتلة اسـتراتيجية[1] بريزنسكي لا يذكر إسرائيل وكـذلك فوكوياما . هذا غريب جداً إذا أخذنا في الاعتبار أهمية العلاقـة مـع إسـرائيل في قيام خصومة معممة للولايات المتحدة مع العالم العربي ، أو بشكل أوسع مع العالم الاسلامي .

عقلانـية وجـدوى هذه العلاقة صعبة على البيان ، فرضية تعـاون ضـروري بين الديمقراطيات ، هي غير متماسكة ، الظلم الـذي يقـع على الفلسطينيين يوما بعد يوم ، بواسطة الاستعمار الإسـرائيلي ، لمـا بقي لهم من أرض ، هو – في ذاته – نفي لمبدأ المسـاواة ، أسـاس الديمقـراطية . الأمـم الديمقراطية الأخرى ، الأوروبـية خاصة ، لا تتعاطف مع إسرائيل مثل التعاطف الذي يسم الولايات المتحدة .

الجـدوى العسـكرية للجـيش الإسرائيلي ، يمكن أن تكون ، تقـريباً ، الحجـة الأكثر جدية ، ضعف الجيش البري الأمريكي ، البطـيء جـداً ، ولا يـتحمل الخسـائر ، يتضـمن الاسـتخدام ، المنهجـي الأكثـر فأكثـر ، لجـيوش حلـيفة ، وحتـى مرتـزقة في العملـيات البرية . القادة الأمريكان تستحوذ عليهم مسألة الريع النفطـي ، لا يجـرؤون ، ربمـا ، علـى الاسـتغناء عـن دعم محلي

---

1 - بوصــولية واصــحة بمجلــة مومينتاري المحافظة الجديدة ، نشر اللجنة اليهودية الامريكية لم تشر ، في التحليل الذي قدمته عن الكتاب ، إلى استبعاد اسرائيل خارج المجال الغربي مارس1997 .

للجيش الأول في الشرق الأوسط ، جيش إسرائيل ، بلد ، والذي صغر حجمه ، شكله ، تسلحه المفرط ، يذكر بصورة حاملة طائرات ثابتة ، من وجهة نظر الاستراتيجي الواقعي ، عسكري أو مدني ، إمكانية الاعتماد على قوة عسكرية قادرة على تصفية أي جيش عربي في بضعة أيام أو أسابيع ، تكون اكثر أهمية من التعاطف أو من احترام العالم الإسلامي . إذا كان هذا هو الحساب ، مع ذلك ، لماذا لا يتحدث عنه الاستراتيجيون الواقعيون ؟ وهل يمكن ، جدياً ، تخيل جيش إسرائيل يسيطر علي آبار نفط السعودية والكويت والإمارات ، وهو لم يكن قادراً على الصمود ، بدون خسائر مهمة ، في جنوب لبنان بالأمس وفي الضفة العربية اليوم ؟ .

التفسيرات التي تلح على دور الجماعة اليهودية الأمريكية ، وقدراتها على التأثير على العملية الانتخابية ، تتضمن جزءاً صغيراً من الحقيقة ، إنها نظرية اللوبي اليهودي والتي يجب أن تستكمل بنظرية لا لوبي عربي ، في غياب جماعة عربية ذات أهمية كافية لتوازن الجماعة اليهودية ، التكاليف السياسية لدعم إسرائيل تبدو صفراً بالنسبة لأي سياسي يبحث عن إعادة الانتخاب . لماذا خسارة أصوات الناخبين اليهود إذا لم يكن هناك نفس القدر من الأصوات العربية الممكن اكتسابها ؟.

لكن لا يجب المبالغة في حجم الجماعة اليهودية ، والتي مع 6.5 مليون نسمة ، لا تمثل إلا 2.2 ٪ من سكان الولايات المتحدة . كما أن أمريكا أيضا لا تخلو من تقاليد ضد السامية . ويمكن تخيل أن كثرة من الناخبين بين 97.8 ٪ الأمريكان غير اليهود يعاقبون السياسيين المتعاطفين مع إسرائيل . لكن الضد

سامية ليسوا منذئذ ضد إسرائيل . إننا نقترب هكذا من قلب اللغز ؟ .

الجماعات المعتبرة ، من قبل اليهود أنفسهم ، على أنها ضد السامية ، هي جماعات الأصوليين المسيحيين ، وهم سياسياً يندرجون في اليمين الجمهوري[1] . لكن دعم إسرائيل يكون في حده الأقصى عند الناخبين الجمهوريين . واليمين الديني الأمريكي الذي يدعم بوش اكتشف أن لديه حماسا لدولة إسرائيل ، مقابل إيجابي لكراهيته للإسلام ، وللعالم العربي ، إذا أضفنا أن من جانبهم ، ثلاثة أرباع اليهود الأمريكان يستمرون في التوجه نحو اليسار الوسط ، ويصوتون لصالح الحزب الديمقراطي ، ويخشون الأصولية المسيحية ، فإننا نصل إلى تناقض حاسم : توجد خصومة ضمنية بين اليهود الأمريكان وجزء من الناخبين الأمريكان الذين يؤيدون إسرائيل أكثر .

لا يمكننا إذن فهم الدعم الأكثر فأكثر تصميماً لإسرائيل شارون ، دون وضع فرضية وجود شكلين من الدعم ذي طبيعة مختلفة ، واللذين تكوينهما ودوافعهما متناقضة ، يفسران معاً استمرار وعدم انسجام السياسة الامريكية نحو اسرائيل .

هناك من ناحية الدعم التقليدي من اليهود الامريكان ، الذي يقود عندما يكون الحزب الديمقراطي في السلطة ، إلى محاولات حماية إسرائيل مع احترام ، قدر الإمكان ، حقوق الفلسطينيين . ما قام به كلينتون من أجل الحصول على اتفاق سلام ، في كامب ديفيد ، يشير إلى هذا النوع من الدوافع .

---

1 - اللجنة اليهودية الامريكية 2001 .

دعـم آخـر لإسرائيل ، أكثر حداثة ، وأقل أصالة ، هو دعم اليمين الجمهوري الذي يسقط على المجال الشرق أوسطي تفضيلة للامساواة التي تسم أمريكا الحالية ، لانه يمكن وجود تفضيل من أجل اللاماسواة ومن أجل الظلم .

الأيدلوجيات العالمية تعلن تكافؤ الشعوب ، هذا الموقف يجعلنا نعتقد أن مبدأ المساواة ضروري لتكوين تحالفات بين الشعوب ، مع ذلك يمكن تقمص اللا آخر ، بشكل مستقل عن مفهوم المساواة ، خلال حرب بيلوفنيس ، أثينا بطلة الديمقراطيات ، تساند ، بالتأكيد كلما استطاعت ذلك ، ديمقراطيات الفضاء الإغريقي ، لكن اسبرطة بطلة الاوليفاوشيات تقيم نظم الوليفاوشية كلما سيطرت على مدينة [1] في نهاية القرن 18 مختلف الأنظمة الملكية الأوروبية ، نجحت بدون صعوبة كبيرة ، في التحالف ضد مبدأ المساواة الذي تتحمله الثورة الفرنسية ، المثل الأكثر وضوحاً للتقمص عن بعد، بين نظامين ، ليسا فقط معاديين لمبدأ المساواة ، وإنما أيضا متمسكان بفكرة هرمية الشعوب ، هما نظام ألمانيا واليابان . خلال الحرب العالمية الثانية ، بعد بيرل هاربور ، أعلن هتلر الحرب على الولايات المتحدة ، تضامناً مع اليابان ، يمكن هكذا أن يوجد في العلاقات الدولية كما في العلاقات بين الأشخاص، تفضيل من أجل الشر ، أو أكثر تواضعاً من أجل الظلم ، إذا كان الشخص سيئاً أو ظالماً هو نفسه . المبدأ الأساسي لتقمص الآخر ليس تعرف الخير ، وإنما تعرف الذات في الآخر .

---

1 - ارسطو السياسة ، الكتبا 5-7 ز (14) 1989 .

يمكن أيضا أن نؤكد أن الشعور بالوضع السيئ الذي يجد فيه شخص نفسه ، يزيد في الحاجة للعثور على مبررات ازدواجية ، بهذا المعنى ، أعتقد ، يجب الكشف عن التمسك الجديد ، والمدعم بإسرائيل من قبل الولايات المتحدة ، لأن إسرائيل في وضع سيئ في نفس اللحظة حيث أمريكا في وضع سيئ . أمريكا تؤيد سلوك إسرائيل الذي يزداد وحشية ضد الفلسطينيين ، أمريكا تنحرف نحو عقيدة قوية في اللامساواة بين الناس ،إنها تدريجياً تفقد الاعتقاد في وحدة النوع الإنساني .

تستطيع تطبيق كل هذه الملاحظات ، بدون أي تغيير ، على دولة إسرائيل ، والتي سياستها نحو العرب تتواكب مع تفتت داخلي ، من خلال اللامساواة الاقتصادية ، والمعتقدات الدينية . عدم قدرة الإسرائيليين على إدراك العرب ، المتزامن ، أكثر فأكثر ، ككائنات بشرية ، بشكل عام ، هي أمر واضح لكل الناس الذين يتابعون الأخبار المكتوبة والمرئية، مندفعين ، مثل المجتمع الأمريكي ، في حالة حمى اللامساواة[1] ، الفرق في الدخول صارت في إسرائيل ، من بين الأهم في العالم المتطور والديمقراطي . الجماعات المختلفة : العلمانيين أشكيناز، سافارد، ارثوذوكس متطرفون ، صارت تنفصل عن بعضها ، ظاهرة يمكن قياسها من خلال فروق الخصوبة بين لجماعات أقل من 2 طفل لكل امرأة بالنسبة للعلمانيين - إلى 7 بالنسبة للأرثوذوكس المتطرفين .

في بداية العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة ، كان هناك الانتماء المشترك إلى مجال الديمقراطيات الليبرالية ، وأيضاً

1 - أنظر المقالة القيمة د. ابان فريلسامر ، في دبات 118 يناير فبراير 2002 .

رابط عيني من خلال وجود أكبر جماعة يهودية في الولايات المتحدة ، دون نسيان العلاقة الإنجيلية بين الكالفانية واليهودية ، عندما يقرأ بروتستانتي الإنجيل بشكل حرفي ، فانه يتقمص شعب إسرائيل ، في الحالة المحددة للطهريين الأمريكان ، القرن 17 ، المهاجرين إلى أرض جديدة موعودة ، الخوف القبلي من الشعوب الوثنية – الاختلافية – الإنجيلية ، يمكن أن يتركز على الهنود أو السود .

التركيز الكلي والحديث للولايات المتحدة على إسرائيل، ربما ليس له علاقة كبيرة مع هذه القرابة الدينية الأصلية ، ومع حب الإنجيل ومع تقمص إيجابي تفاؤلي للشعب المختار ، إسرائيل .

أنا مقتنع بأنه لو أن فرنسا الجمهورية الكاثوليكية . لازالت متورطة في حرب الجزائر ، تقمع تسحق ، تقتل العرب كما تفعل دولة إسرائيل مع الفلسطينيين ، أمريكا الحالية ذات نزعة اختلافية ، ضد المساواة ، يعمل فيها ضمير الشر ، تتقمص فرنسا الاستعمارية وقد فقدت عالميتها .

لا شيء يبعث على الاطمئنان ، عندما نتخلى عن معسكر العدالة ، وأن نلاحظ آخرين يمارسون الشر ، ما هو غير عادل في اسرائيل هذه الايام لا يصدم القوة المهيمنة الغربية [1] .

---

1 – في الوقت الذي اكتب فيه هذه السطور ، وقعت ، هل هذا صدفه ؟ . على تحليل قامت به ليبراسيون للقاء أجرته هارتيز الاسرائيلية ، مع جان ماري لوبان ، زعيم اليمين المتطرف الفرنسي ، يعبر فيه عن تفهمه للكفاح ضد الارهاب وضد العرب الذي يقوم به جيش اسرائيل ، بالنسبة له هذايماثل ذلك الذي قام به الجيش الفرنسي في الجزائر أربعين سنة مضت . ليبراسيون . 22 ابريل 2002 .

الأكثر أهمية بالنسبة لتحليل استراتيجي عالمي ، هو إدراك المنطق العميق للسلوك الأمريكي : عجز الولايات المتحدة عن إدراك العرب ككائنات إنسانية عامة ، والذي يكمن في ديناميكية تراجع العالمية الداخلية في المجتمع الامريكي .

- قلق اليهود الأمريكان :

هذا النموذج يسمح بأن نفهم أفضل قلق الجماعة اليهودية الأمريكية ، والتي كان ينتظر منها أن تكون ، ببساطة ، سعيدة بإنجاز اندماجها الناجح ، وأن تكون معجبة بالسلوك المخلص من أمريكا نحو إسرائيل .

في الواقع على العكس ، هذه الجماعة المحظوظة سقطت في تقديس مقلق ، لكي لا نقول عصابي ، للهولوكوست[1] . ولا تنتهي من إحياء ذكرى المجازر التي نجت منها ، إنها باستمرار تندد بالضد سامية المتصاعدة عالمياً ، وتخشى على كل الجماعات اليهودية المهاجرة الفرنسية خاصة ، مع أن هذه الجماعات ليس لديها هذه المخاوف رغم الهجمات على المعبد اليهودي ربيع عام 2002 ، في ضواحي باريس . اليهود الفرنسيون ، من أصل اسكينازي ، والذين بالنسبة لهم كان الهولوكوست واقعاً عائلياً ، أكثر عينية منه بالنسبة لليهود الأمريكان ، يبدون في الواقع أكثر هدوءاً وأكثر ثقة في المستقبل ، حتى إنه يندد بهم ، بدون توقف، في الجانب الآخر من الأطلسي ، على أنهم جاحدون ، بدون وعي جماعي ، وأنهم مستقبلاً ضحايا كراهية فرنسية أبدية. الرعب الدائم عند اليهود الأمريكان ، في بلد حيث يزعم وجود

1 - انظر بيتر نوفيك : الهولوكوست في الحياة الامريكية . قاليمارد 2001 .

لوبـي يهـودي قـوي جـداً ، هـو أمـر متناقض [1] فرضية تراجع العالمـية الأمريكية تسمح بفهم استمرارية قلق يهودي حقيقي في الجانب الآخر من الأطلسي .

الملخـص : الـنموذج التفسـيري : العقلية الانجلو ساكسونية ذات سمتين فيما يتعلق بعلاقتها مع الآخر ، إنها تحتاج للإقصاء مـن أجـل الاسـتيعاب . الحدود بين المستوعب والمقصي ليست مستقرة هناك فترات توسع ، وهناك فترات انحسار .

اسـتيعاب الـيهود الأمـريكان يقابـل إقصـاء السـود ، وربما المكسـيكيين ، هـذا الاسـتيعاب يجـري في مـرحلة تراجع العالمية وصـعود قـوى الاختلافـية ، في المصـطلح الأمريكـي المستخدم حالـيا إعـادة تأكـيد الشـعور العرقي . محرك التطور الأمريكي ، الـيوم لـيس قـيمة المسـاواة وإنمـا قيمة اللامساواة . كيف يُعاش بضـمير خـير ، ومشاعر أمان عملية اندماج متناقض ؟ كيف لا يُشـعر بـان مـثل هـذا الاسـتيعاب هـش ، مهـدد ملـئ بمخاطر افتراضية ؟ .

الـيهود الأمـريكان يسـقطون علـى العالم الخارجي ، الخوف الـذي في أنفسهـم ، لانهم يشعرون ، بشكل غامض ، بأنهم لعبة في دينامية اختلافية ارتدادية في المجتمع الأمريكي أكثر من كونهم يتمتعون بكرم فاتح من نمط عالمي .

هـذا الـرأي ليس فقط نتاج تأمل نظري ، لقد نورني في هذا الموضـوع لأول مـرة ، في بدايـة سـنوات 80 حـوار مـع أحـد

---

1 - انظر مثلا الغلاف العجيب للأسبوعية المحافظة ، ويكلي استاندارد غداة المرحلة الأولى من الانتخابات الرئاسية الفرنسية ، أنه قدم على خلفية الثلاث الوان شعار : حرية مساواة كراهية اليهود . 6 مايو 2002 .

أجدادي الأمريكان ، من أصل يهودي نمساوي ، خلال زيارة لديزني لاند ، لقد عبر لي ، على خلفية ميكي راقصاً ، عن قلقه الدائم : الشعور العرقي في المجتمع الأمريكي ، يذكره ، بشكل سيئ بفيينا في فترة مراهقته . أبداً لم ألاحظ ، في الجزء الفرنسي من عائلتي هذا النوع من القلق .

- الإمبراطورية لا يمكن أن تكون اختلافية :

الخطاب الأمريكي حول إمبراطورية الشر ، حول محور الشر، أو أي مظهر شيطاني آخر على الأرض ، يجعلنا نضحك أو نصرخ ، حسب اللحظة وحسب نفسية كل منا ، بسبب سخافته الواضحة ، مع ذلك يجب أن يؤخذ بجدية ، لكن يجب أيضا فك شفرته ، إنه يعبر موضوعياً عن شر استحواذي أمريكي ، يندد به في الخارج ، لكنه في الحقيقة يأتي من داخل الولايات المتحدة : تهديد الشر يوجد في كل أنحائها : التخلي عن المساواة صعود بلوتوكراسيا غير مسؤولة ، حياة بالدين ، بالتقسيط الاستهلاكي ، التطبيق ، أكثر فأكثر ، لعقوبة الإعدام ، عودة إلى الاستحواذ العرقي ، دون نسيان الموضع المقلق المتمثل في هجمات الانتراكس ، التي من المحتمل أنها كانت من فعل عناصر مجنونة وفالته من الأجهزة السرية . بالتأكيد الله لم يرحم أمريكا هذه الأيام ، إنها تندد بالشر في كل مكان ، ذلك لأنها في حالة سيئة . هذا التراجع يمكنه أن يجعلنا نعي ما نحن في الطريق إلى فقدانه ، أمريكا سنوات 50-65 . بلد الديمقراطية الجماهيرية . بلد حرية التعبير ، وتوسيع الحقوق المدنية والاجتماعية ، والنضال من أجلهما ، لقد كانت إمبراطورية الخير .

مـا يدعـي القطبـية الأحاديـة الأمـريكية ، تعـبير صـارخ في السياسـة الدولـية . عـن نزعة اختلافية، لا يجب مع ذلك النظر الـيه ، في إطار هذا البحث ، من زاوية أساساً اخلاقية . أسبابها ونـتائجها العملية يجب أن تؤخذ في الاعتبار . السبب الأساسي هـو ، كمـا رأيـناه ، تراجع شعور المساواة والعالمية في الولايات المـتحدة ، النتيجة الاساسية بالنسـبة للـولايات المـتحدة ، هي خسـارتها مصـدراً اديولوجياً ضرورياً للأمبراطوريات ، محرومة مـن إدراك متجانس للإنسانية وللشعوب ، فإن أمريكا لا يمكنها حكـم عالم واسع جدا ، ومتنوع جداً ، مشاعر العدالة سلاح لا تملكه . ما بعد الحرب مباشرة سنوات 50-65 ، مثلت ازدهاراً في تـاريخ أمـريكا ، مـثل العالمـية الإمـبريالية الـرومانية ، عالمـية أمريكا المنتصرة ، كانت آنذاك التواضع والكرم .

الـرومان عـرفوا كيف يعترفون بالتفوق الفلسفي والرياضي والأدبـي والفـني عـند اليونان . الأرستقراطية الرومانية اعتنقت الهيلينـية ، المنتصـر عسـكريا تقمـص ، في عـدة نقـاط ، الـثقافة المتفوقة لبلد مغلوب روما انتهت ، على كل حال ، بأن خضعت لعدة أديان ، ثم لدين واحد من ديانات الشرق .

الـولايات المـتحدة ، خـلال مـرحلتها الإمبريالية الحقيقية ، كانـت محـبة للاستطلاع ، وتحترم العالم الخارجي ، كانت تلاحظ وتحلـل ، بـتعاطف ، تـنوع مجـتمعات العـالم ، مـن خـلال عـالم السياسـية ، الانتروبولوجـيا والأدب والسـينما ،العالمـية الحقـة تحـتفظ بمـا هـو افضـل في كـل العالم . قوة المنتصر تسمح بدمج الـثقافات . هـذه الحقـبة الـتي تجمـع في الـولايات المـتحدة قـوة اقتصـادية ، وعسـكرية وتسـامحاً ثقافياً وعقلياً، تبدو اليوم بعيدة

جداً . أمريكا وقد ضَعُفت ، وصارت غير منتجة ، عام 2000 ، لم تعد متسامحة ، إنها تزعم تجسيد نموذج إنساني وحيد ، وإنها تملك كل مفاتيح النجاح الاقتصادي ، وإنتاج السينما الوحيدة الممكنة . هذا الزعم الحديث بالهيمنة الاجتماعية والثقافية ، عملية التوسع النرجسية هذه ، ليست إلا علامة ، من بين غيرها ، عن الانهيار المأساوي للقوى الاقتصادية والعسكرية الحقيقية ، وكذلك العالمية الأمريكية . غير قادرة على السيطرة على العالم فإنها تنفي وجوده المستقل وتنوع مجتمعاته .

الفصل السادس

مواجهة القوي أم مهاجمة الضعيف ؟

حـركة المجتمع والاقتصـاد الأمريكي نحو اللامساواة ، وفق كـل شـئ ، نحـو اللا فاعلية انتهت بان عكست علاقة الولايات المتحدة مع العالم ، قوة عظمى مكتفية بذاتها عام 1945 صارت أمـريكا بالنسـبة للاقتصـاد العالمي ، نصف قرن بعد ذلك ، ثقباً أسـوداً يبـتلع السلع والرأسمال ، لكنه غير قادر ، على أن يقدم في المقابـل ، سلعاً معادلة . لكي تضمن سيطرتها على هذا العالم الـذي يغـذيها . كـان علـيها إعـادة تحديـد دور آخـر غـير دور المستهلك الكينزي الذي يتدخل في آخر لحظة . هذا ليس سهلاً، إعـادة تحديد نفسها كقوة مهيمنة ، لا يمكن أن تكون إلا سياسية وعسكرية . يجب عليها أن تفرض نفسها كدولة العالم كله ، وأن تحصـل علـى احـتكار عالمـي للعنف الشرعي . لكن مع ذلك ، أمـريكا لا تملـك المصـادر الضـرورية لمثل هذا الانقلاب . سواء تعلـق الأمـر بالقوة الخشنة ، كما بالقوة الناعمة ، لكي تستخدم التعبيرات العزيزة على جوزيف نيي .

التـبادل الحـر ، كمـا رأيـنا ، أدخل على مستوى الكوكب ، صـعوبات تنموية ، وهو اليوم كابح لازدهار العالم ، على المدى القصـير التـبادل الحـر يعـول أمـريكا ، وفق آلية صراحة شاذة : قصـور الطلب الذي يترتب عليه ، يعطي الولايات المتحدة دور المستهلك الـذي لا غنـى عنه . بينما صعود اللامساواة ، نتيجة أخـرى للـنظام ، يسمح بنفخ الفوائد التي تغذي نفس الولايات المتحدة بالأموال السائلة الضرورية لتمويل الاستهلاك .

موقـع أمـريكا ، كمـنظم عالمـي ، هش ، لان تحصيل الجزية الإمـبريالية ، كمـا رأينا ذلك ، لا يجري بطريقة سلطوية ، ولكن وفـق آلـية ليـبرالية إراديـة ، دقيقة وغير ثابتة . تعتمد كثيراً جدا

علـى الإرادة الطيـبة عند قيادات الهامش المسيطر عليه ، الياباني والأوروبـي بصورة خاصة ، يمكننا أن نلوم وال ستريت والبنوك الأمـريكية على ما تقوم به من احتيالات ، لكن لا يمكن اتهامها بأنها تجبر زبائنها على تبذير أموالهم فيها .

الأنظمـة الـرأسمالية ، من الأنماط غير المنظمة ، والتي تمثل الـولايات المتحدة بطولـتها ، تـبدو أقل فأقل شرعية ، حتى أن عـدد ينايـر – فبرايـر 2002 ، مـن مجلة شؤون خارجية ، يفتح على التهديد الاستراتيجي الذي يمثله الاحتجاج ضد العولمة .

عـدم كفايـة سـلطان الإرغـام العسـكري الأمريكي ، يؤزم المشكل الاقتصادي ، فعال بدون شك في مجال الطيران ، القوات المسـلحة لا تستطيع السيطرة مباشرة على الفضاء الجغرافي الذي فيه تنتج السلع أو منه تستخرج الكتل المالية الضرورية للولايات المـتحدة . أكثـر مـن هذا ، وربما فوق هذا ، القوة الجوية ، والتي نظـرياً يمكـن أن تكـون كافـية لممارسـة سلطان مطلق ، بواسطة الـتهديد بالقصـف الجـوي ، لازالـت تـتوقف علـى إرادة القوة الوحـيدة القـادرة علـى تحـيـيد الطـيران الأمريكي بفضل تقنيتها المضـادة للطـيران ، كلـياً أو جـزئياً ، أي روسـيا . ما ظلت هذه موجـودة فـإن أمـريكا لا تملـك سـلطاناً مطلقـاً يضـمن لها أمناً اقتصادياً لمدة طويلة ، في وضعيتها الجديدة من التبعية للعالم .

تبعـية اقتصـادية ، عـدم كفايـة عسكرية ، عنصر ثالث يجب إضافته إلى هذه اللوحة عن الاختلال الأمريكي : تراجع مشاعر العالمـية ، والـذي يمـنع الـولايات المـتحدة مـن إدراك المساواة ، والعدالة والمسؤولية على الكوكب . العالمية مصدر أساسي لأي

دولة تحاول السيطرة على أمة أو فضاء أكثر اتساعاً متعدد الأعراق وإمبريالي .

هذه العناصر التفسيرية توضح التناقض الأساسي في الموقف الأمريكي ، في العالم ، الولايات المتحدة يجب أن تعمل على استقرار دائم لتوازن اقتصادي إمبريالي ، دون أن تملك فعلياً الوسائل العسكرية والأيديولوجية لذلك . يجب علينا أيضا فحص الطريقة التي ظهر بها هذا التناقض الأساسي ، وصف المسيرة التي قادت إلى هذا الوضع المعوج ، نصف إمبريالي ، نصف ليبرالي . لاشيء يشير إلى وجود مشروع طويل الأمد ، في القرارات التي قادت إلى المعضلة الحالية .

الخيار الإمبريالي حديث ، إنه لا ينتج عن إرادة قوية ، لكنه على العكس ، تمثله القادة الأمريكان على أنه الحل الأسهل ، إنه نتاج ظروف : انهيار النظام السوفيتي أُعطى لحظة وهم القوة الاعظم ، وقاد إلى الحلم بهيمنة عالمية ودائمة ، على مرحلتين ، 1995 وليس 1990 كان لحظة الاختيار .

- من انهيار الشيوعية إلى انهيار روسيا :

لا القادة ولا الاستراتيجيون الأمريكان ، توقعوا انهيار النظام السوفيتي . هذا الخصم الشيوعي ، والذي منافسته ، غداة الحرب العالمية الثانية ، كفلت للفضاء الليبرالي نوعاً من الانسجام ، السلبي ، في بداية أعوام 90 بدأت الولايات المتحدة تعي عيوبها الاقتصادية ، ميكائل بوتر ، وصف منذ 1990 ، في: الميزات التنافسية للأمم ، رأسماليات مختلفة ، يابانية ،

سويدية، كورية ، أكثر فاعلية من الرأسمالية الانجلو ساكسونية ، من ناحية الإنتاج ، لأنها لا تقبل قواعد الليبرالية صارت لها ميزات[1] . ليستر تودو ، أعلن في " وجه لوجه " أن " الحرب الاقتصادية القادمة ستكون بين الولايات المتحدة ، وأوروبا واليابان " [2] . انهيار الشيوعية ، العدو الرئيسي ، بدا لأول وهلة ، أنه يقود إلى ظهور التنافس بين القوى الرأسمالية الأوروبية أو الأسيوية في المقام الأول .

يجب علينا أن نفهم جيداً ، أنه في هذا المستوى ، الحكومة الأمريكية ، والحكومات الأخرى ، التي لم تتوقع ، سنوات قبل ذلك ، انهيار الشيوعية ، لازالت لا تتوقع اختفاء روسيا كقوة عظمى ، وبعد المبالغة في تقدير الفعالية الاقتصادية للشيوعية ، فان العالم المتطور أساء تقدير المصاعب المصاحبة للخروج من الشيوعية.

في بداية سنوات 90 ، الفرضية الأكثر معقولية ، كانت عند الجميع ، هي استمرار بعض الثقل الاستراتيجي الروسي ، في عالم تخلص من البلورة الأيديولوجية ، لكن لازال يتضمن قوتين عُظميين .

كان من الممكن الحلم بعالم مساواة ، ومتوازن من أمم تقبل أخيراً نفس قواعد اللعبة . في هذا المحتوى لعبت الولايات المتحدة لعبة العودة إلى توازن الأمم ، جهودها من اجل نزع السلاح ، كما رأينا ذلك ، كانت واضحة [3] لاشيء آنذاك يشير

---

1 - ميكائل بوتر : الميزات التنافسية للأمم ماكميلان 1990 .

2 - ليستر تودو : وجهاً لوجه : المعركة الاقتصادية القادمة 1993 .

3 - انظر ص 102-103

إلى خيار إمبريالي . لكن ما بين 90-95 ، التفسخ السياسي للمجال السوفيتي السابق صار واضحاً ، والانهيار الاقتصادي لمختلف الجمهوريات كان حقاً مأساوياً .

الإنتاج الروسي انهار 50 ٪ ما بين 90 – 95 ، معدل الاستثمار انهار ، استخدام النقود تراجع ، وشهدنا ظهور اقتصاد المقايضة في بعض الأقاليم الاقتصادية . استقلال أوكرانيا ، روسيا البيضاء و كازاخستان – سكانياً نصف روسية – جعل يخرج من القلب السلافي للنظام 75 مليون نسمة . روسيا فقدت وضعها كمعادل تقريبي للولايات المتحدة ، من حيث الكتلة الديمقرافية . عام 1981 كان الاتحاد السوفيتي يضم 268 مليون نسمة ، الولايات المتحدة 230 مليون عام 2001 لم يعد سكان روسيا غير 144 مليون ، بينما الولايات المتحدة بلغت 285 مليون .

الأسوأ أيضا أن المطالب الوطنية ، أو العرقية، مست ليس فقط الجمهوريات السوفيتية السابقة وإنما أيضا أقاليم الحكم الذاتي الداخلية في روسيا الاتحادية ، من القوقاز إلى تانادستان . الإدارة المركزية تبدو أنها فقدت السيطرة ، على أقاليم سيبيريا البعيدة ، وبدا النقاش حول قطيعة بين الأقاليم الروسية المحضة ، تجري في شكل تفتت إقطاعي للدولة الروسية[1] وتفكك كلي .

كل هذا يوحي بإمكانية تفكك تام . نحو عام 1996 خصم الأمريكان الاستراتيجي القديم ، بدا أنه على وشك الاختفاء ببساطة نهائياً ، في النصف الأول من أعوام 90 .

---

1 - وصف جيد لهذه المرحلة من الفوغائية الروسية. شاك سابير . لاديكوفيرت 96 .

حينئذ ظهر الخيار الإمبريالي في الولايات المتحدة ، لأن فرضية عالم مختل التوازن ، تحت السيطرة العسكرية الكاملة للولايات المتحدة ، كانت تحتوي عنصر حقيقة : بعض التحريك، بعض الاغراءات والاستفزازات ، من قبل الولايات المتحدة ، على هامش الاتحاد الروسي ، في القوقاز ، وآسيا الوسطى ، وهما منطقتا ضعف ، وربحت الولايات المتحدة اللعبة : رقعة الشطرنج الكبرى ، لبريزنسكي ، مؤلف استراتيجي ، الأكثر تماسكا ، حول ضرورة إقامة هيمنة غير متناسبة من الولايات المتحدة في أوراسيا ، نشر عام 1997 .

الانهيار الروسي جعل من الولايات المتحدة القوة العسكرية العظمى الوحيدة ، وبالتوازي العولمة المالية تتسارع : بين 1990 – 1997 ، الرصيد الإيجابي لحركة الرساميل ، بين أمريكا وبقية العالم ، انتقل من 60 إلى 271 مليار دولار . هكذا صار بإمكان أمريكا التمتع باستهلاك إضافي غير مغطى بالإنتاج .

مع ذلك فكرة الخيار الإمبريالي ، لا يجب ان تقود إلى تخيل دائرة قيادية أمريكية واعية ، وعبقرية في حساباتها ، تقرر ، في لحظة حاسمة استراتيجية ، وتطبقها بثبات بعد ذلك . على العكس ترك الحبل على الغارب هو تفضيل دائم من اجل السهولة . الطبقة القيادية الأمريكية لا تملك إرادة مشروع إيجابي أكثر من نظرائها التابعين في أوروبا . الذين يجري نقدهم ، عموماً ، بسبب ضعفهم . بناء أوروبا يتطلب ، بعد كل شيء ، جهود تشاوريه ومنظمات ، والتي في المرحلة الحالية ، القيادات الأمريكية عاجزة عنها .

خيار وطني كان سيكون أكثر أماناً ، بالنسبة للولايات المتحدة ، على المدى الطويل ، وهو أكثر قابلية للتحقيق ، في أمريكا أكثر منه في غيرها ، آخذاً في الاعتبار الحجم القاري للبلد، ومركزية نظامها المالي ، لكنه كان يتطلب عملاً تنظيمياً حقيقياً من قبل الإدارة : سياسة في موضوع الطاقة ، سياسة حماية الصناعة ؛ هذان العنصران الأساسيان ، يواكبهما ، في الخارج ، سياسة متعددة الأطراف ، من أجل تشجيع الأمم الأخرى والأقاليم الأخرى ، على التطور نحو استقلال ذاتي مفيد للجميع . إعادة دينامية لاقتصاديات المتطورة ، على قاعدة أقاليم ، كانت ستتيح ، في الواقع ، مساعدة فعالة للبلدان في طور النمو ، والتي كان من الممكن إلغاء ديونها ، في مقابل العودة إلى نظام الحماية . خطة عالمية ، من هذا القبيل ، كانت ستجعل من الولايات المتحدة ، زعيماً عالمياً ، لا نقاش فيه ، ونهائياً . لكن التفكير ووضع كل هذا في التطبيق كان سيكون متعباً .

الأكثر سهولة كان الاعتقاد في انهيار الاتحاد السوفيتي وفي ظهور الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة ، ومشاهدة تدفق الرأسمال ، وأن تترك نفسها تنزلق إلى مالا نهاية ، في العجز التجاري ، مبرراً بالأيديولوجية الليبرالية ، دعه يعمل ، الخيار الإمبريالي ، كان فوق كل شئ ، بسيكلوجيا ، نتاج دعه يمر .

هذه الاستراتيجية طموحة في أهدافها ، لكن رخوة في دوافعها . تتضمن خطراً أساسياً ، لا يمكن التأكيد ، عام 97 ، على أن القوة الروسية قد انتهت نهائياً ، كل سياسة خارجية تعتبر فرضية غير مؤكدة ، على أنها منجزة ، تجعل أمريكا تواجه

خطراً هائلاً : أن تجد نفسها ، يوما ما ، في حالة تبعية اقتصادية خطيرة ، دون أن يكون لها تفوق عسكري حقيقي . باختصار إنه العبور من وضع نصف إمبريالي إلى وضع شبه إمبريالي .

لو كان هذا موضوع تفكير ، أو نتاج إرادة قوية ، لكانت الاستراتيجية السياسية والعسكرية المرتبطة بالخيار الامبيريالي ، على الأقل ، قد جرى اتباعها بثبات ومنهجية ، وهذا لم يحدث ، من أجل بيان غياب الاستمرارية في الجهود ، يكفي تحليل ما هو أكثر معقولية ، وأكثر صراحة من بين المشروعات الإمبريالية ، وهو نموذج بريزنسكي ، وأن نفحص بعد ذلك ، بأي قدر التزام القادة الأمريكان بهذا أولا ، أم لا . فحص التاريخ الحديث يكشف أنهم حققوا ما هو أكثر سهولة ، يوماً بيوم وتخلوا عن كل ما يتطلب استثمارا مهماً في الزمن والطاقة .

- رقعة الشطرنج الكبرى :

مشروع بريزنسكي واضح ومحدد ، وحتى إن ذهب إلى أنه سيكون في صالحها إنهاء روسيا بضم اوكرانيا إلى الغرب ، واستخدام اوزبكستان من أجل سحب آسيا الوسطى من مجال نفوذ روسيا ، إلا أنه لم يكشف أيضا أن حصار روسيا يجب أن يقود إلى تفكك قلب البلد ، الاستراتيجيا العليا لا تستبعد حداً أدنى من الحذر الدبلوماسي ، لكن هناك الكثير ، مما لا يعترف به بريزنسكي ، بريزنسكي لا يتطرق إلى لا فعالية الاقتصاد الأمريكي ، والضرورة ، بالنسبة لأمريكا ، أن تضمن سياسيا وعسكريا سيطرتها على ثروة العالم . ثقافته الجيوبوليتيكية تقوده إلى صياغة هذا الدافع الأساسي بطريقة غير مباشرة ، أولا بأن أشار إلى أن الأساسي من السكان ، ومن النشاط العالمي يوجد

في أوراسيا ، ثانياً بأن لاحظ أن أمريكا بعيدة عن أوراسيا . لنفك الشفرة هذا يعني أن من أوراسيا يأتي تدفق السلع والنقود الضرورية للحفاظ على مستوى الحياة الأمريكية ، بالنسبة للطبقات العليا كما للطبقات الدنيا .

بعد هذه التحفظات ، المشروع يبدو متماسكا ، التهديد الوحيد الذي تواجهه الإمبراطورية الامريكية ، المطلوب إقامتها، أتي من روسيا ، والتي يجب إذن عزلها ، وتفكيكها . هكذا يمكن الحديث عن اقتراب بسماركي من المشاكل ، فيه روسيا تحل محل فرنسا المهزومة في سنوات 1871 – 1890 المستشار بسمارك نجح آنذاك في توحيد ألمانيا من خلال سحق فرنسا ، عام 1870 – 1871 . خلال العشرين سنة التي تلت ، عمل على الحفاظ على علاقات طيبة مع كل القوى الأوروبية الأخرى ، من أجل عزل خصم واحد ، وهو فرنسا ، المنظور إليها على أنها تطلب الثأر بسبب خسارتها الالزاس واللورين . بريزنسكي ينصح الولايات المتحدة بخط تصالحي مع كل الأمم ، باستثناء روسيا . مدركاً تماماً أن السيطرة الفعلية للولايات المتحدة على أوراسيا ، تعتمد بالدرجة الأولى على قبول المحميات الأوروبية واليابانية بذلك . إنه ينصح بترسيخ هذه السيطرة بإعطاء اليابان دوراً عالمياً أكثر منه أسيوي ، وأن تتبنى الولايات المتحدة موقفاً متفهما للبناء الأوروبي . إنجلترا وحدها عوملت بطريقة تقلل من أهميتها ، وحددت على أنها "لا فاعل" . الثنائي الفرنسي الألماني كان محترماً باعتباره لاعباً استراتيجياً ، رئيساً . بريزنسكي يقترح أيضا ، وهذا قمة الذكاء السياسي ، موقفاً أكثر تفهما نحو فرنسا . نظرة البداية كانت واضحة : مادامت أوروبا

واليابان راضية بالقيادة الأمريكية ، فإن الإمبراطورية ستبقى قوية . في أوروبا واليابان بتركز الأساسي من القوة التقنية والاقتصادية للعالم ، ما وراء هذا القلب الإستراتيجي ، بريزنسكي يوحي أيضا بموقف تصالحي مع الصين ، والتي خصومتها ليست مشكلة إلا على مدى بعيد ، ونحو إيران ، والتي تطورها الممكن لا يقود إلى مواجهة .

هكذا محصورة بين أوروبا واليابان ، مقطوعة عن الصين وإيران ، فان روسيا تفقد كل وسائل الفعل نهائيا في أوراسيا : الملخص : أمريكا القوة الوحيدة يجب أن تكون متفهمة لكل القوى الثانوية ، من أجل تصفية نهائية للتهديد العسكري المباشر الوحيد لهيمنتها : أي روسيا ؟ .

أي جزء من هذا البرنامج طبقته الدبلوماسية الأمريكية ؟ في العمق، العمل فقط ضد روسيا ، من خلال توسيع حلف الأطلسي نحو الشرق ، والانفتاح على أوكرانيا بواسطة استخدام كل المبررات الممكنة ، من أجل توسيع النفوذ الأمريكي في القوقاز وفي أسيا الوسطى . الحرب ضد القاعدة ونظام طالبان أتاح تمركز 12 الف جدي في أفغانستان ، 1500 في اوزبكستان ، وبضعة مئات في جورجيا . لكن هنا الولايات المتحدة اكتفت بأن استغلت ظروف : الجهد ضعيف غير كاف سنرى ذلك في الفصل القادم ، لتحقيق زعزعة استقرار نهائي أو حاسم في روسيا . وهو أمر لم يعد لديها وسائله . أما الباقي فاد الدبلوماسية الأمريكية أبعد من أن تكون لامعة ، من نظر بسماركية ، ومأساوية من نظرة ويليامية . غليوم الثاني حالما تخلص من المستشار الحديدي سارع إلى الدخول في صراع مع

قوتين كبريين في أوروبا ، بريطانيا وروسيا ، فصنع هكذا لفرنسا نظام تحالف مفتاحه في اليد ، والذي قاد مباشرة إلى الحرب العالمية الأولى ، وإلى نهاية الهيمنة الألمانية .

أمريكا تهمل ، تذل حلفاءها الأوروبيين ، تحتقر اليابان التي اقتصادها الأكثر فعالية في العالم ، والضروري لرفاهية الولايات المتحدة ، وتنظر إلى اليابان ، باستمرار على انها متخلفة . أمريكا تستفز الصين ، وتضع إيران في محور الشر ، كل شئ يجري وكأن أمريكا تحاول تكوين تحالف اوراسي ، من بلدان مختلفة ، ولكن بعضها يغضبه سلوك أمريكا المضطرب . ونضيف ، خارجين بعض الشيء عن إطار بريزنسكي ، إصرار أمريكا على تعميم صراعها مع العالم الإسلامي ، من خلال دعمها اللا محدود لإسرائيل .

الأخطاء الأمريكية ، مع ذلك ، ليست عرضية ، إنها تنتج ، مثل الخيار الإمبريالي ، عن ترك نفسها لمجرى الأحداث ، وللضرورة على المدى القصير . موارد الولايات المتحدة الاقتصادية والعسكرية والأيديولوجية محدودة ، لا تترك لها إمكانية أخرى ، من أجل تأكيد دورها العالمي ، غير سوء معاملة القوى الصغيرة . هناك منطق خفي في سلوك المخمور الذي تسلكه الدبلوماسية الأمريكية . أمريكا الحقيقية ضعيفة جداً لكي تواجه غير الأقزام العسكريين ، عندما تستفز كل الفعلة الثانويين ، فإنها على الأقل ، تؤكد دورها العالمياً . تبعيتها الاقتصادية للعالم ، تتضمن ، في الواقع ، حضوراً عالمياً من شكل آخر عدم كفاية مواردها الحقيقية ، يقودها إلى هستيريا مسرحية في صراعات ثانوية ، ضعف عالميتها جعلها من ناحية

أخرى تفقد الوعي بأنها إن أرادت الاستمرار في السيطرة ن فان عليها معاملة أوروبا واليابان على قدم المساواة، إنهما حلفاؤها الرئيسيون ، الذين معاً يسيطرون على الصناعة العالمية .

- .... واللعبة العسكرية الصغيرة .

إصرار الولايات المتحدة ، على إدامة توتر ، في الظاهر غير مجد ، مع بقايا الماضي ، وهي كوريا الشمالية ، كوبا ،العراق ، يبرز كل مظاهر اللا عقلانية ، خاصة إذا أضفنا عداءها لإيران ، وهي أمة انخرطت ، بوضوح ، في طريق تطبيع ديمقراطي ، والاستفزازات المتكررة نحو الصين ، سياسة إمبريالية حقيقية كانت ستقود إلى البحث عن باكسا أميريكانا من خلال إقامة علاقات صبورة مع بلدان وضعها بالطبع مؤقت ، النظم في شمال كوريا ، في كوبا والعراق ، ستسقط بدون تدخل خارجي، إيران تتحول إيجابيا تحت عيوننا . لكن من الواضح جداً ان العدائية الأمريكية تقوى الشيوعية العبثية كما إنها تصلب النظام العراقي ، أو إنها في صالح موقف المحافظين المضارين لأمريكا في إيران ، أما في حالة الصين ، حيث السلطان الشيوعي يدير تحولا سلطويا نحو الرأسمالية ، فان العداء الأمريكي ، يعطي في الواقع العملي أسلحة للنظام ، ويعيد منحه الشرعية بدون انقطاع ، بان يتيح له الاستناد على مشاعر وطنية ومعادية للأجانب : مسرح جديد فتح حديثاً أمام نشاط رجل الإطفاء ، الولايات المتحدة . الصراع بين الهند والباكستان . الولايات المتحدة مسؤولة ، إلى حد كبير عن زعزعة الاستقرار الجارية ، واشتداد النزعة الاصولية الإسلامية المحلية ، في الباكستان ، إلا إنها لم تتقدم ، على الأقل كوسيط ضروري .

كل هذا ليس أمراً حسنا بالنسبة للعالم ، إنه يثير أعصاب الحلفاء لكن ، مع ذلك له معنى ، هذه النزاعات التي تمثل بالنسبة للولايات المتحدة خطراً عسكريا صفر ، تسمح لها بان تكون حاضرة في كل مكان من العالم ، إنها تديم وهم كوكب غير مستقر ، خطير ، يحتاج اليها من أجل حمايته .

حرب العراق الأولى ، التي قادها بوش الأول ، قدمت ، بشكل من الاشكال ، نموذجاً صار يسيطر منذئذ على السلوك الامريكي . لم يعد أحد يجرؤ على الحديث عن استراتيجية ، لان عقلانية الولايات المتحدة ، قصيرة الأمد ، سوف تثير ، احتمالا، على المدى المتوسط ضعفاً جذرياً لوضعها في العالم .

ما هي العراق ؟ بلد نفطي ، يقوده دكتاتور ، والذي قدرته على الإزعاج ليست إلا محلية . ظروف العدوان على الكويت لازالت غامضة ولا نعرف بعد ما إذا كانت الولايات المتحدة قد دفعت قصداً صدام إلى الخطأ ، بان جعلته يفهم أن ضم الكويت مقبول من وجهة نظرها ، هذه مسألة ثانوية ، ما هو مؤكد ان تحرير الكويت حدد خياراً ممكناً : الدخول في صراع الحد الأقصى مع قوى عسكرية ضعيفة ، أطلق عليها تعبير " دول مارقة " والذي يلخص سوء سلوكها ، وحجمها الصغير ، من أجل إظهار قوة أمريكا . الخصم يجب أن يكون ضعيفاً . لنلاحظ أن فيتنام لازالت شيوعية ، لكنها تمثل للولايات المتحدة قدرة عسكرية حقيقية ، ولهذا السبب تُركت في سلام . تضخيم التهديد العراقي . رابع جيش في العالم – هكذا يقال – لم يكن إلا بداية إخراج مسرحي لتهديدات غير موجودة بالنسبة للعالم .

حرب أفغانستان التي نتجت عن أحداث 11/9 أكدت هذا الخيار . مرة أخرى القادة الأمريكان دخلوا في صراع لم يتوقعوه مسبقاً . لكنه مريح بالنسبة لأسلوبهم المركزي ، والذي يمكن تسميته " عمليات عسكرية مسرحية صغرى " إبراز ضرورة أمريكا للعالم بان تسحق ، ببساطة ، خصوماً غير مهمين ، في حالة أفغانستان البرهنة لم تكن إلا ناقصة ، لقد أوحت للعالم بأن أي بلد لا يملك دفاعاً جوياً فعالاً ، أو حتى قدرة على الردع النووي ، يصير تحت رحمة ارهاب يأتي من السماء . لكن عدم قدرة الجيش الأمريكي في الحرب البرية ، أشارت أيضا إلى العجز الأساسي في القوة العظمى . وكشف هذا أيضا ، إنها على الأرض تابعة ليس فقط لقادة الحرب المحليين ، وإنما أيضا لإرادة الروس ، القريبين جداً ، والقادرين على تسليح حلف الشمال سريعاً . النتيجة : لا الملا عمر ، ولا ابن لادن أمكن القبض عليهما . سادة الحرب المحليون قدموا بعض المساعدة لمستخدميهم الأمريكان ، الأسرى غير المهمين جرى وضعهم في قاعدة غوانتانامو ، في كوبا ، وهو بلد رئيسه ليست له علاقة مع قادة الاصولية إلا تفضيله للحية . علاقة وهمية خلقت هكذا بين المشكلة الكوبية ومشكلة القاعدة ، بناء إعلامي لمحور الشر وهو هدف أمريكي .

- التركيز على الإسلام :

توزيع القوات الأمريكية في العالم ، يكشف عن النية الحقيقية للإمبراطورية ، أو بقاياها ، إذا أخذنا في الاعتبار انها تتفسخ اكثر من كونها تتدعم . ألمانيا ،اليابان ، كوريا ، تظل مناطق تواجد الجزء الأكبر من القوات الأمريكية ، في الخارج ،

وتمركز ، منذ 1990 ، في قواعد المجر ، البوسنا ، أفغانستان ، اوزبكستان ، لم يغير ، إحصائياً ، من هذا التوجه العام الموروث عن فترة الكفاح ضد الشيوعية ، من هذه المرحلة ، لم يبق كأعداء معلنين غير كوبا وكوريا الشمالية . هذه الدولة المهزلة ، تحاربها أمريكا إعلاميا بشكل دائم ، دون أن يتبع الكلمات فعل عسكري أيا كان ، معظم النشاط العسكري الأمريكي صار يتركز منذئذ على العالم الإسلامي تحت شعار محاربة الإرهاب . اخر صياغة " للعسكرية المسرحية " الصغيرة ، .

ثلاث عوامل تسمح بتفسير التركيز الأمريكي على هذا الدين ، الذي هو واقعياً إقليم أيضا . كل عامل من هذه العوامل يحيل إلى إحدى الاختلالات – أيديولوجية ، اقتصادية، عسكرية – التي تعاني منها أمريكا من منظور الموارد الإمبريالية.

- تراجع العالمية الأيديولوجية يقود إلى عدم تسامح جديد يتعلق بمسألة وضع المرأة في العالم الإسلامي .

- انهيار الفعالية الاقتصادية يقود إلى استحواذ النفط العربي على العقلية الأمريكية .

- العجز العسكري للولايات المتحدة ، يجعل من العالم الإسلامي ، الضعيف جداً في هذا المجال ، فريسة مفضلة .

- موقف الانجلوساكسون من المرأة واحتقار العالم العربي :

أمريكا اكثر فأكثر غير متسامحة مع التنوع في العالم ، تنظر إلى العالم العربي ، تلقائياً على أنه خصم . التناقض هنا من نمط بدائي انتروبولوجي ، يذهب أبعد من التناقض الديني المستخدم من هانتينتقون لجعل العالم الإسلامي خارج المجال الغربي .

بالنسبة للانتروبولوجي المعتاد على العمل حول الأخلاق ، النظم الانجلو ساكسونية والنظم العربية تتناقض بإطلاق .

العائلة الأمريكية نووية ، فردية ، وتكفل للمرأة وضعية عالية. العائلة العربية ، ذات خط أبوي ، تجعل المرأة في وضعية تبعية قصوى ، الزواج بين أبناء العم ، خاصة ، محرم في العالم الانجلو ساكسوني ، مفضل في العالم العربي .

أمريكا حيث النزعة النسائية صارت ، في مجرى السنوات ، اكثر فأكثر دوقمانطيقية ، وأكثر فأكثر عدوانية ، والتي تسامحها مع تنوع العالم يتدنى بدون توقف ،إنها هكذا مبرمجة لتدخل في صراع مع العالم العربي ، أو بشكل اعم مع الجزء من العالم الإسلامي الذي بنيته العائلية تشبه البنية العائلية في العالم العربي. وما يمكن تسميته العالم العربي – الإسلامي ، في مثل هذا التحديد ، يشمل باكستان ، إيران ، جزئيا تركيا ، وليس إندونيسيا وماليزيا والشعوب المسلمة في الواجهة الأفريقية للمحيط الهندي حيث وضع المرأة عالياً .

الصدام بين أمريكا والعالم العربي- الإسلامي ، الحالي يعطي الانطباع السيئ عن صراع انروبولوجي ، كمواجهة لاعقلانية بين قيم ، من حيث تعريفها لا يمكن البرهنة عليها .

إنه أمر مقلق أن نرى مثل هذا البعد يصير عاملاً بنيوياً في العلاقات الدولية . هذا الصراع الثقافي أخذ منذ 11/9 مظهراً هزليا ، أو مسرحياً ، من نمط مسرح الشارع المعولم . من ناحية أمريكا بلد نساء طائفيات – النساء صرن طائفة – والتي رئيسها أجبر على المثول أمام لجنة ليثبت أنه لم يضاجع متدربة ، ومن

ناحية أخرى بن لادن ، إرهابي ،متعدد الزوجات ، مع العديد من الاخوة والاخوات غير الاشقاء . نحن هنا في حضور مشهد كاريكاتوري لعالم يختفي ، العالم الإسلامي ليس في حاجة إلى نصائح أمريكا لكي يتطور في مجال السلوك الأخلاقي .

هبوط الخصوبة ، الذي يسم معظم البلدان الإسلامية يفترض في ذاته تحسناً في وضع المرأة ، أولا لأنه يتطلب ضرورة ارتفاع مستوى محو الأمية بين النساء ، وأيضا، بلد مثل إيران ، بلغت الخصوبة 2.1 طفل لكل امرأة ، لا يمكنه إلا أن يضم عدداً كبيراً من العائلات التي تخلت عن إنجاب عدد كبير من الأطفال ، وإنه في قطعية نهائية مع تقاليد الخط الأبوي [1] ، في إحدى البلدان ، حيث يمكن الحصول على دراسات متوالية حول الزواج بين أبناء العم ، وهي مصر ، نلاحظ أن نسبته تهبط من 25 ٪ عام 92 إلى 22 ٪ عام 2000 [2] .

حرب أفغانستان شهدت ظهوراً ، في القارة الأوروبية بعض الشيء ، وبشكل واسع في العالم ، خطاب حرب ثقافية حول وضع المرأة الأفغانية . مطالباً بإصلاح السلوك الأخلاقي . لقد قُدم لنا قصف طائرات ب 52 ، بالقنابل الأمريكية ، لأفغانستان، كما لو أنه قصف موجه للضد نسائية الإسلامي . مثل هذا المطلب الغربي سخيف . إن تطور السلوك الأخلاقي يجري ، لكن الأمر يتعلق بعملية بطيئة ، حرب تقاد بأسلوب

---

1 - يمكن نظرياً بناء نموذج يجعل متوافقاً خصوبة مختزلة إلى 2 طفل لكل امرأة ، وتفضيل مطلق للخط الابوي ، اذا افترضنا ان كل زوجين يتوقفان عن الانجاب حالما يحصلان على طفل ، ويستمران اذا لم ينجبا طفلا . لكن هذه فرضية غير واقعية تستبعد امكانية زوجين انجاب طفلين ، ويلغي بعداً أخراً للعائلة العربية التقليدية ، وهو التضامن بين الاخوة وتفضيل الزواج بين ابنائهم .

2 - مصر . ديمغرافية وصحة 1992- 2000 .

حـديث وأعمـى ، لا يمكـنها إلا إعاقـتها ، لانهـا تربط الحضارة الغربية ، التي واقعياً مناصرة للمرأة . بفظاعات عسكرية أكيدة . ويعطـي بالمقابـل نـبالة مطلقـة للأخـلاق الذكورية عند المحاربين الأفغان .

الصراع بين العالم الانجلوساكسوني والعالم الإسلامي عميق، وهـناك أسـوأ من المواقف المناصرة للنساء من قبل السيدة بوش والسـيدة بلـير ، فيما يتعلق بالنساء الأفغانيات . الانتروبولوجيا الاجتماعـية أو الثقافـية الانجلـو ساكسـونية بـدأت تظهـر عليها بعـض علامـات الانحطـاط ، عـندما لم تعـد تحـاول فهم الأفراد الـذين يعيشـون في نظم مختلفة ، كما فعل ، في الماضي ، ايفانس برتشارد أو مايرفودت .

هـذا الجهـد حـل محلـه التـنديد ، بواسـطة استبيانات الرأي الغبية . بهيمنة الذكور في غينيا الجديدة ، أو الإعجاب الصريح ، مـن قـبل هذا الرأي ، ينظم خط الأم في تنزانيا أو في موزمبيق ، ذات الأغلبـية المسـلمة علـى كـل حـال . إذا علـم أخـذ يـوزع الـدرجات الجـيدة أو السـيئة ، فكـيف نتوقع النزاهة من جانب الحكومات أو الجيوش ؟!.

لقـد رأينا هذا ، فيما سبق ، العالمية ليست مرادفاً للتسامح ، الفرنسـيون مـثلاً ، يمكـنهم أن يكونـوا معـادين للمهاجرين من أصل مغربي ، لأن وضع المرأة يناقض نظامهم الأخلاقي . لكن رد فعلـهم غريزي ، ولا يتواكب مع أي صياغة أيديولوجية ، لا مـع حكـم كلـي علـى الـنظام الانتروبولوجـي العربي ، العالمية مسـبقا عمـياء ، فـيما يتعلق بالاختلاف ، لكن لا يمكن أن تقود إلى التنديد الصريح بنظام أو بآخر . الحرب على الإرهاب كانت

على العكس ، فرصة حكم نهائي وبدون مراجعة ، على النظام الانتروبولوجي الأفغاني (أو العربي) ، وهذا مخالف لأولوية المساواة . إن ما نلاحظه هنا ليس مجرد تجميع حكايات ، وإنما هو أثر تراجع العالمية في العالم الأنجلو ساكسوني ، والذي يحرم أمريكا من رؤية أكثر عدلا للعلاقات الدولية ، ويمنعها من أن تعامل باحترام ، أي من وجهة نظر استراتيجية فعالة ، العالم الإسلامي .

- التبعية الاقتصادية والهاجس النفطي :

السياسة النفطية للولايات المتحد مركزة ، بالطبع ، على العالم العربي ، إنها نتاج علاقة اقتصادية جديدة ، بين أمريكا والعالم . رائدة تاريخية في الكشف ، وإنتاج واستخدام النفط ، صارت أمريكا ، في الثلاثين سنة الأخيرة ، مستوردة له بشكل واسع ، اذا قارناها بأوروبا واليابان الذين انتاجهم من النفط أقل أهيمة ، أو غير موجود ، فان أمريكا ، من وجهة النظر هذه، صارت طبيعية .

عام 73 تنتج الولايات المتحدة ، يوميا 9.2 مليون برميل ، وتستورد 3.2 مليون برميل . في عام 99 صارت تنتج 5.9 وتستورد 8.6 مليون برميل[1] هكذا يمكن فهم الهاجس النفطي الأمريكي ولم لا أيضا التمثيل المبالغ فيه للنفطيين في حكومة بوش.

---

1 - ملحص احصائي للولايات المتحدة 2000 ص 591 .

تركيز الولايات المتحدة على هذا المصدر للطاقة ، لا يمكن ، مـع ذلـك ، اعتباره محض عقلاني ، ولا يكشف عن استراتيجية إمبريالية فعالة ذلك لعدة أسباب :

أولا : لأن موضـع الـنفط ، آخذ في الاعتبار التبعية العامة نحـو الاستيراد ، للاقتصاد الأمريكي، صار منذئذ رمزيا أكثر منه أساسـيا ، أمـريكا مـتخمة بالـنفط ، ولكـن محـرومة من تمويلها السـلعي ، تشـهد اسـتهلاكها يـنهار بـنفس الطـريقة إذا حرمت أمـريكا مـن النفط . استيراد النفط لا يمثل كما رأينا،إلا جزءاً لا بأس به ، ولكن ثانوي في العجز التجاري ، 80 مليار دولار من 450 ملـيار عـام 2000 . أمريكا في الواقع تكون هشة بالنسبة لأي شـكل مـن أشـكال الحصـار ، ومركـزية موضوع النفط في التفكير الأمريكي ، لا يمكن تفسيرها بعقلانية اقتصادية .

الخوف من عدم كفاية إمدادات النفط ، لا يجب أن يقود إلى التركيـز علـى الشـرق الأوسط ، البلدان التي تمد أمريكا بالطاقة تـتوزع على مجموع الكوكب بشكل كافٍ ، العالم العربي بالرغم مـن مكانـته المهمـة في الانـتاج ، وخاصـة امـتلاكه للاحتياطـي العالمـي ، لا يأخـذ بخـناق أمـريكا ، ونصـف اسـتيراد الولايات المـتحدة مـن الـنفط ، يأتي من العالم الجديد ، وهو عسكريا آمن بالنسـبة للولايات المتحدة : المكسيك . كندا .. فنزويلا أساسا . إذا أضفنا الكميات اقادمة من هذه البلدان إلى الإنتاج الأمريكي نفسه ، فإننا نصل إلى ان 70 ٪ من استهلاك الولايات المتحدة ، يأتي من المجال الغربي القريب كما حددته عقيدة مونرو .

بالمقارنـة مع أوروبا واليابان ، والتي تعتمد حقاً على الشرق الأوسـط ، فـإن أمن الولايات المتحدة نفطياً أفضل جداً . بلدان

الخليج الفارسي – العربي خاصة لا تقدم إلا 18 ٪ من الاستهلاك الأمريكي . الوجود العسكري في المنطقة ، جوي بري في السعودية ، الكفاح الدبلوماسي ضد إيران ، الهجمات المتكررة على العراق ، تقع بالتأكيد في إطار استراتيجية نفطية .

الطاقة المطلوب السيطرة عليها ، مع ذلك ، ليست ملك الولايات المتحدة ، إنها طاقة العالم ، وخاصة القطبين المنتجين صناعياً ، والفائضين ، من الثلاثي ، أوروبا واليابان . هنا الفعل الأمريكي يبدو حقا إمبرياليا ، لكنه ليس بالضرورة مطمئناً .

في المرحلة الحالية ، وجود سكان كثيرين في إيران ، وفي العراق وحتى في السعودية ،يفرض على هذه البلدان بيع نفطها وإلا تفجرت . الأوروبيون واليابانيون ليس لديهم ما يخشونه من حرية هذه الأمم . لكن الولايات المتحدة تزعم أنها تريد ضمان الإمدادات النفطية لحلفائها ، الحقيقة هي أنه من خلال السيطرة على مصادر الطاقة الضرورية لأوروبا واليابان فان الولايات المتحدة تريد الحفاظ على إمكانية ممارسة ضغوط مهمة على أوروبا واليابان .

ما أطرحه هنا هو أحلام استراتيجي عجوز ، تاركاً نفسه ينساق وراء سهولة بعض الأرقام وبعض الخرائط . نوع من رامسفيلد النموذجي ، الحقيقة هي أن الولايات المتحدة فقدت السيطرة على العراق وعلى إيران ، والسعودية في طريقها للإفلات منها ، ولا يمكن اعتبار إقامة قواعد دائمة في هذا البلد، عقب الحرب الأولى ضد العراق ، إلا محاولة أخيرة لكي لا تفقد أمريكا السيطرة على المنطقة تماماً . هذا التراجع هو التوجه الإستراتيجي العميق ، لكن أي ارمادا بحرية جوية لن نستطيع

الحفـاظ ، علـى هـذه المسـافة من الولايات المتحدة ، على تفوق عسكري بدون دعم الأمم المحلية القواعد العسكرية في السعودية وفي تـركيا تكـون تقنـياً أكثـر أهمـية مـن حـاملات الطائـرات الامريكية .

لوحة رقم 9

الواردات النفطية الامريكية عام 2001 – مليون برميل

البلد	الكمية	البلد	الكيمة
الجزائر	3	الكونغوكنشاسا	5
السعودية	585	إندونيسيا	16
مصر	2.5	ماليزيا	5
الامارات	5	نيجيريا	309
العراق	285	انتيل الهولندية	6
إيران	0	كندا	485
الكويت	88	الإكوادور	43
قطر	0	المكسيك	498
أنجولا	122	ترينتي وتاباقو	19
بروناي	2	البيرو	2.5
الصين	5	فنزويلا	520
الكونغوبرازفيل	1.6	بقية العالم	453
عمان	6		

التركيز على نفط العالم الإسلامي ، يشير إذن إلى الخوف الطرد أكثر منه قدرة على توسيع الامبراطورية ، إنه يكشف قلق الولايات المتحدة أكثر مما يكشف قوتها : أولا الخوف من تبعية اقتصادية صارت عامة ، حيث العجز التجاري ليس إلا رمزها ، بعد ذلك . وبالنتيجة ، الخوف من فقدان السيطرة على المحميتين المنتجتين من الثلاثي : أوروبا واليابان .

- حل الأمد القصير : مهاجمة الضعفاء .

ما وراء الدوافع الظاهرة ، عند الولايات المتحدة ، مثل التنديد بوضع المرأة العربية ، وأهمية النفط ، فإن اختيار العالم الإسلامي كفريسة ومبرر مفضل من قبل العسكرية المسرحية الأمريكية ، والتي هدفها الحقيقي هو البرهنة، بأقل التكاليف ، على الوجود الإستراتيجي الأمريكي في كل مكان ينتج بكل بساطة عن ضعف العالم العربي ، إنه بالطبيعة خروف التضحية ، أو كبش فداء .

ها نتينتقتون يلاحظ ، ونحن لا نعرف إن كان يأسف على هذا أم يرضيه ، إن الحضارة الإسلامية لا تملك دولة مركزية مهيمنة ، فعلياً ، في المجال العربي الإسلامي ، لا توجد دولة قوية ، من حيث سكانها ، صناعتها وقدرتها العسكرية . لا مصر ولا السعودية ، ولا الباكستان ولا العراق ولا إيران تملك الوسائل المادية والبشرية لمقاومة حقيقية . إسرائيل ، من ناحية أخري برهنت على عدم القدرة العسكرية للبلدان العربية ،

والـتي مسـتوى تطـورها وتنظـيم دولها يبدو حاليا لا يتوافق مع ظهور جهاز عسكري فعال .

المـنطقة إذن حقـل تجـارب نموذجـي ، بالنسـبة للـولايات المـتحدة، حـيث تسـتطيع الـولايات المـتحدة تحقيق انتصارات ، والـتي سـهولتها تذكـرنا بالعـاب الفـيديو ، الهـزيمة في فيتـنام اسـتوعبتها الإدارة العسكرية تماماً ، التي تعرف عدم قدرة قواتها بـريا ، ولا تـتوقف عـن التذكير – سواء من خلال خطأ كلامي حـين يخلط أحد الجنرالات بين أفغانستان وفيتنام ، أو من خلال الخوف من إقحام القوات براً – بان نمط الحرب الوحيد الممكن، بالنسبة للـولايات المـتحدة ، هـو ضـد خصـم ضعيـف لا يملك دفاعـاً جـوياً . علـى كـل حـال ، بـدون شـك ، اخـتيار خصم ضـعيف ، هـو اخـتيار غير عادل ، الجيش الأمريكي يعثر مجددا على تقليد عسكري يرتبط بالاختلافية ، إنه حرب الهنود.

خـيار الـولايات المـتحدة المضاد للعرب ، هو الحل السهل ، ينـتج عـن عـدة معـايير موضـوعية ،وعـن الضـرورة ، بالنسـبة لأمـريكا ، أن تحـافظ علـى شـبه فعل إمبريالي ، لكنه ليس نتاج خـيار جـرى الـتفكير فيه ، بشكل مركزي ، من أجل توفير الحد الاقصـى ، من الفرص ، للأمبراطورية الامريكية ، على العكس قـادة الـولايات المتحدة ، يتركون أنفسهم دائما في خط الانحدار الأكـبر ، في كـل مـرة يخـتارون الفعـل الأكثـر سهولة مباشرة ، والأقـل تكالـيف ، فـيما يـتعلق بالاسـتثمارات الاقتصـادية العسـكرية أو حتـى التصـورية ، هكـذا تسـاء معاملـة العرب ، لانهـم عسـكريا ضـعفاء ، ولانهـم يملكون النفط ، وان اسطورة النفط تسمح بنسيان ما هو أساسي ، اي التبعية الكلية التي عليها

الـولايات المتحدة في وارداتهـا مـن كـل السـلع . تساء معاملة العـرب لأنـه لا يـوجد لوبـي عربـي فعـال في اللعـبة السياسية الداخلـية في الولايات المتحدة . كذلك لأن الولايات المتحدة لم تعد قادرة على التفكير بطريقة عالمية وقائمة على المساواة .

اذا أردنـا فهـم مـا يحـدث ، فإن علينا رفض النموذج الذي وفقـه تعمـل أمـريكا بفضـل خطـة كلـية ، جـرى الـتفكير فيها عقلانـياً، وتطبيق منهجيا . هناك تيار سياسية خارجية أمريكية ، والـذي يقـود إلى مكـان ما ، إنه تيار الوادي . في كل مكان خط المـنحدر الكـبير يقود إلى الهبوط ، وإلى لقاء المجاري ، والانهار ، وأخيرا الوادي يصب في البحر أو في المحيط . المجموع إذن يذهب إلى مكـان مـا لكـن العملـية تسـتغني عـن كـل تفكـير وعن كل سيطرة، هكـذا تحـدد أمـريكا طـريقها . قوة عظمى ، بالتأكيد ، لكـنها مـع ذلـك أضـعف من أن تسيطر على عالم واسع جدا ، قوي جداً ، بالنسبة لها ، من خلال تنوعه .

هكـذا كل اختيار جرى بسهولة يقود إلى صعوبات جمة ، في المجالات حيث كان يتوجب الفعل حقاً .

السـباحة مؤقتا ضد مجرى تيار الأشياء ، رفض الخط الأكثر انحـداراً لكـي نسـتعير التعبير المائي ، القبول بصعود بضعة امتار مشـياً على الاقدام ، إعادة إقامة الصناعة ، دفع ثمن الاخلاص الحقيقـي للحلفـاء . بـأن تـؤخذ في الاعتبار مصالحهم ، التجرؤ علـى مـواجهة الخصـم الاسـتراتيجي الحقيقي الروسي ، بقوة ، ولـيس الاكتفاء بإزعاجه بأمور تافهة ، وفرض سلام عادل على إسرائيل .

استعراض العضلات الأمريكية في الخليج ، الهجمات على العراق ، التهديدات ضد كوريا ، تسعد حينا وسائل الإعلام ، وتبهر قادة الحلفاء ، لكن استعراض العضلات هذا يناقض المحاور الرئيسية لاستراتيجية امريكية حقيقية ، وواقعية والتي يتوجب عليها الحفاظ على سيطرة الولايات المتحدة على أقطاب الصناعة الانتاجية ، في الثلاثي أوروبا واليابان . وأن تحيد ، بواسطة موقف متسامح مع الصين وإيران ، وأن تحطم الخصم العسكري الحقيقي الوحيد ، روسيا .

في الفصلين الاخيرين ، من هذا الكتاب ، سوف أبين كيف أن عودة روسيا إلى التوازن ، والتوجه الاستقلالي في اوروبا واليابان ، سيقودان ، على المدى المتوسط إلى إنهاء الزعامة الامريكية ، وكيف أن التحركات العسكرية الجزئية المضطربة التي تقوم بها الولايات المتحدة ، سوف تشجع التقارب بين فعلة استراتيجيين رئيسيين، وهم أوروبا ، وروسيا ، واليابان . هذا يعني ، بالضبط ، ما كان يجب على أمريكا منع حدوثه ، إذا أرادت السيطرة . الكابوس الخفي وراء حلم بريزنسكي هو هكذا في طريقه إلى التحقق : أوراسيا تبحث عن توازنها بدون الولايات المتحدة .

الفصل السابع

عـودة روسيـــا

الولايات المتحدة في طريقها إلى الفشل في محاولتها إنهاء – أو أكثر تواضعاً – عزل روسيا ، حتى لو أنها تستمر في التصرف كما لو أن الخصم القديم الاستراتيجي لم يعد له حساب ، سواء بإذلاله ، كما بحسن معاملته كما تجب مصالحة مريض وأحيانا تمزح بين الموقفين .

نهاية مايو 2002 ، بوش الابن طاف أوروبا ، متحدثاً عن التعاون مع روسيا ، في نفس الوقت جنوده يتمركزون في القوقاز، وفي جورجيا ، معظم الوقت ، تجد واشنطون لذة واضحة في البرهنة للعالم أن حلف الأطلسي يمكن أن يتوسع ، أو أن درع الفضاء الأمريكي يمكن أن ينجز دون موافقة موسكو.

القول بأن روسيا لم يعد لها وجود يعني إنكار الواقع ، لأنه بدون معاونتها الجيش الأمريكي ، ما كان باستطاعته وضع أقدامه في أفغانستان ، لكن العسكرية المسرحية الجزئية الأمريكية تتطلب هذا . يجب تحفيز الإمبراطورية أكثر عنفاً ، في نفس اللحظة حيث أمريكا تدخل في تبعية تكتيكية لروسيا .

في مواجهة المسألة الروسية ، الإستراتيجية الأمريكية لها هدفان ، الأول لم يعد بالإمكان تحقيقه ، والتالي يبدو أكثر فأكثر صعوبة الوصول أليه .

هدف أول : تفكيك روسيا ، والذي يمكن الإسراع به من خلال تحفيز الاستقلال في القوقاز ، وبواسطة حضور عسكري أمريكي في أسيا الوسطى . استعراض القوة هذا كان يتوجب تشجيع التوجهات الإقليمية الاستقلالية في داخل الجزء الذي

ديمقرافيا روسيا من الاتحاد الروسي ، كان هذا سوء تقدير خطير للتلاحم الوطني الروسي .

هدف ثاني : الحفاظ على مستوى معين من التوتر بين الولايات المتحدة ، وروسيا ، والذي يجب أن يمنع التقارب بين أوروبا وروسيا – توحيد ، الجزء الغربي من أوراسيا – والحفاظ، أطول وقت ممكن ، على العداء الموروث من الحرب الباردة . لكن الغوغائية واللايقين ، المترتب على السياسة الأمريكية . في الشرق الأوسط ، انتهى على العكس بان خلق الشروط القصوى لإعادة دمج روسيا في اللعبة الدولية . هذا الوضع استغله بوتن سريعاً . لقد عرض على الغرب ، في خطاب مثير للإعجاب ، ألقاه في البوند يستاغ 25/ 9/ 2001 في ألمانيا ، نهاية حقيقية للحرب الباردة . لكن أي غرب ؟! .

مساعدة الولايات المتحدة ، على المدى القصير ، في عملياتها العسكرية الجزئية والإعلامية في أفغانستان ، بلد أوهام استراتيجية ، ليست بالنسبة لروسيا إلا ظواهر الأمور ، الأساس بالنسبة لها ، هو الاقتراب من أوروبا ، القوة الصناعية الأولى في الكوكب . معيار تدفق الواردات والصادرات يسمح بتحديد الرهانات الحقيقية لعبة الثلاثة التي ترتسم بين روسيا والولايات المتحدة وأوروبا .

في عام 2001 تبادلت روسيا والولايات المتحدة ما قيمته 15 مليار أورو سلعاً . وتبادلت روسيا والاتحاد الأوروبي ما قيمته 75 ملياراً أي بمعدل 7.5 مرة أكثر . روسيا يمكنها الاستغناء عن الولايات المتحدة لكن ليس عن أوروبا ، تقترح ، ضمنياً على أوروبا أن يكون لها وزن مقابل النفوذ الأمريكي

علـى المسـتوى العسـكري ، وعلـى مستوى تأمين إمداداتها من الطاقة . العرض مغرٍ .

مهمـا كـان ذكـاء بريزنسكي ، هناك في تحولات الشطرنج ، حسـب عـنوان كتابه ، فعل ناقص ، بالمعنى الفرويدي ، كشعور مسبق بالخيـبة : لا يجب أن نلعب الشطرنج مع الروس ، الذين الشـطرنج رياضـتهم الوطنـية إنهـم عقلـيا أكثـر تدريـبا لكي لا يفترضوا أخطاء ينتظرها الخصوم منهم ، أي أنهم لن يردوا بغباء علـى الاسـتفزازات ، وبدون استراتيجية حقيقية ، في جورجيا ، أو في اوزبكستان ، رفض مواجهة محلية صغرى اقترحها الخصم، هـذا الـف بـاء لعـبة الشـطرنج ، خاصـة عـندما تكون في حالة ضعف ربما سوف يذكر في كتب دراسة الدبلوماسية دفاع بوتين، والـذي صـياغته النظـرية تكـون علـى نحـو مـا من نمط : كيف الحصول ، في محتوى انهيار القوة ، على تغير في الأحلاف ؟ .

مـع ذلك لا يجب المبالغة في أهمية الحساب ، والاختيارات الواعية من قبل الحكومات . التوازن العالمي لا يتوقف أساساً لا علـى أفعـال بـوش الثاني ، وطاقمه ، ولا على الذكاء السياسي لـبوتين ،العامـل الاساسـي هـو ديناميـة أو لا ديناميـة المجـتمع الروسـي ، لكن روسيا تبدو أنها في طريقها للخروج من عشرية غوغائـية مرتبطة بالخروج من الشيوعية ، وأن تصير ، بالطبيعة ، فاعلة مستقرة ومحل ثقة في توازن القوى . الوضع مع ذلك ليس مثالياً .

- المعيار الديمقرافي للأزمة الروسية :

المجتمع الروسي محيت أميته بالكامل ، التعليم الثانوي والعالي متقدم كفاية في روسيا ، لكن روسيا تظل فقيرة وعنيفة جداً . هذا المجتمع ، ربما ، من المجتمعات النادرة ، حيث يمتزج ، في نهاية سنوات 90 معدل جرائم قتل عال ، 23 لمائة الف نسمة ، ومعدل انتحار أيضا عالٍ 35 لمائة ألف نسمة . هذه الأرقام من أعلى الأرقام العالمية .

مستوى العنف الخاص ، في المجتمع الروسي ، لم يتجاوزه ، في الفضاء الجغرافي الذي لدينا عنه أرقام ، إلا كولومبيا ، وهي مجتمع مستوي الغوغائية فيه يجعل بالإمكان وصفه بالجنون . حتى لو أن جزءاً من هذا الجنون يعبر عن نفسه من خلال ثرثرة شبه ثورية من Farc– الجبهة المسلحة الثورية الكولومبية .

الانتحار والقتل يفسران – من حيث الأساس – ضعف الأمل في الحياة عند الروس ، قصيرة في نهاية الحقبة السوفيتية ، 64 سنة عام 1989 ، متوسط العمر هبط إلى نقطة دنيا 57 سنة عام 94 ، وصعد خفيفاً منذ ذلك الحين إلى 61 سنة . لكن مع هبوط خفيف الى 60 سنة عام 1999 .

حركة وفيات الأطفال تسمح لنا بتتبع المسار المأساوي لسنوات ما بعد الشيوعية لكل الف ' عام 90 ، بلغت وفيات الأطفال 20.3 عام 93 ، وانخفضت مجددا إلى 16.5 عام 98 ، لتصعد قليلاً إلى 16.1 عام 99 . عدم التجانس الترابي للاتحاد السوفيتي ، يمنع ، مع ذلك اعتبار الإحصاءات الحالية أرقاماً ذات معنى بالنسبة لقلب روسيا المعدلان الأخيران ليس فيهما

مـا هـو حسن على مستوى العالم المتطور ، هما مع ذلك الأكثر انخفاضا في كل تاريخ روسيا .

المعـيار الديمقـرافي الأكثـر إثـارة للقلـق ، والـذي تضـمناته واضـحة هـو انهـيار الخصـوبة ، وفي المسـتوى الآتـي : عـدد الأطفـال لكـل امـرأة ، لم يكـن في روسيا إلا 1.2 عام 2001 ، وهـو نفـس المسـتوى في روسـيا البيضـاء ، وأكثـر انخفاضـا في أوكـرانيا 1.1 – هـذه الخصـوبة لا تسـمح ، عكـس المظاهـر ، بإدراك دوام ثقافي خاص بالفضاء السوفيتي ، لان هذه المعدلات المنخفضة قريبة من معدلات أوروبا الوسطى والجنوبية ، لنتذكر أن أسبانيا لها خصوبة 1.2 ، إيطاليا ألمانيا واليونان 1.3 .

أخـذا في الاعتـبار ارتفـاع معـدل الوفـيات ، ضعف النسل الروسـي يجب أن يقود إلى نقص مهم في السكان ، كما تشير إلى ذلك توقعات مثيرة للقلق على المدى المتوسط : من 144 مليون نسـمة عـام 2001 ، يهبط سكان روسيا إلى 137 عام 2025 . أمـا أوكـرانيا مـن 49 ملـيون إلى 45 ملـيون ، هـذه الـتوقعات تـتوقف بالطبع على استمرارية الشروط الاقتصادية الاجتماعية السـيئة بـإطلاق ، لكـن في هذا المجال الوضع يتطور ، والافضل القول إنه ينقلب .

لوحة 15

وفيات الأطفال والأمل في الحياة ، عند الذكور في روسيا

السنوات	وفيات الأطفال	الأمل في الحياة
1965	27.0	64.6
66	25.6	64.3
67	25.6	64.2
68	25.6	63.9
69	24.4	63.5
70	22.9	63.2
71	21.0	63.2
72	21.6	63.2
73	22.2	63.2
74	22.6	63.2
75	23.6	62.8
76	24.8	62.3
77	21.4	62.0
78	23.5	61.8
79	22.6	61.7
80	22.0	61.5
81	21.5	61.5
82	20.2	62.0
1983	19.8	92.3
84	21.1	62.0
85	20.8	62.3
86	19.1	63.8
87	19.4	65.0
88	19.1	64.8
89	18.1	64.2
90	17.6	63.8
91	18.1	63.5
92	18.4	62.0
93	20.3	58.9
94	18.6	57.3
95	18.2	58.2
96	17.5	59.7
97	17.2	60.9
98	16.5	61.3
99	19.9	59.9

المصدر : معطيات إحصائية ديمقرافية للبلدان الصناعية المتطورة المعهد الوطني للدراسات الديمقرافية .

- انطلاق الاقتصاد وعودة الدولة :

منذ عام 1999 بدأ الاقتصاد الروسي في الانطلاق ، هبوط الناتج الوطني الخام ، (4.9 ٪ عام 98) حل محله الانطلاق 5.4 ٪ - 8.3 ٪ - 5.5 ٪ اعوام 99-2000-2001 هذا الارتفاع ليس فقط نتاج تصدير النفط والغاز الطبيعي ، وهما النقطة القوية في الاقتصاد الروسي ، في كل الظروف ، تقدم الصناعة عام 99-2000 قرب من 11-12 ٪ . وهو مهم ، بشكل خاص في الصناعات الميكانيكية والكيماوية ، والكيمياء النفطية ، وصناعة الورق . لكن انطلاق الصناعة الخفيفة كان أيضا جوهريا . هكذا روسيا تبدو تخرج ، على المستوى الاقتصادي من زمن الاضطرابات . ولم يعد بالإمكان اعتبارها بلداً ينهار . عملية استبعاد النقود ، أي اقتصاد المقايضة ، يبدو انتهى ، ويمكن على العكس الحديث عن عودة أهمية التعامل بالنقود ، الدولة التي بدت في طريقها إلى التبخر ، عادت إلى الظهور كفاعل أساسي مستقل في الحياة الاجتماعية ، ظاهرة يمكن قياسها ، بشكل أساسي وبسيط ، من خلال قدرتها المتجددة على خصم جزء من الثروة الوطنية . بنسبة إلى الناتج الوطني الخام ، انتقلت موارد الدولة من 8.9 ٪ عام 98 ، إلى 12.6 ٪ عام 1999 . وإلى 16.0 ٪ عام 2000 . الميزانية تحقق فائضاً بقدر 2.3 ٪ من الناتج الوطني الخام عام 2000[1] .

---

1 – المنظمة الأوروبية للتعاون والتطور ، البقاء الاقتصادي 2001-2002 الاتحاد الروسي مجلد 5 سنة 2002

لا غنى عنها بالنسبة للتوازن الداخلي في المجتمع الروسي ، عـودة ظهـور الدولـة كان له نتيجتان : على المستوى الدولي ، روسـيا يمكـنها مجـدداً السـلوك كطـرف مالـي محـل ثقة ، لأنها تكفـل، بـدون صعوبة ، خدمات دينها الخارجي أكثر من هذا ، في مـواجهة السـلوك غـير الموثـوق فـيه والعدوانـي للـولايات المـتحدة ، فـان روسـيا استطاعت استعادة حد أدنى من القدرة العسـكرية 1.7 ٪ من الناتج الوطني الخام مخصص للدفاع عام 98 ، لكن 2.4 ٪ عام 99 و 2.7 ٪ عام 2000 ، سيكون من المـؤكد غـير صحيح التأكيد بأن روسيا حلت كل مشاكلها ، أو حتـى الأكثـر أهمية منها ، لكن من الواضح أن عهد بوتين هو عهـد استقرار الحياة الاجتماعية الروسية وبداية حلول المشاكل الاقتصادية .

المحاولـة العنيفة نحو ليبرالية الاقتصاد عام 90 –97 ، والتي جرت بمساعدة مستشارين أمريكان ، قادت البلد إلى كارثة . في هـذه الـنقطة نحـن نقـبل تشخيص جيلبان الذي يعتبر أن انهيار الدولـة يـتحمل بشـكل واسـع مسؤولية الغوغائية الاجتماعية والاقتصـادية طـيلة المـرحلة الانتقالـية الروسية[1] هذا النوع من الكارثة تفادته الصين ، بأن حافظت على دولة سلطوية في قلب عملية ليبرالية الاقتصاد .

- المسألة الديمقراطية في روسيا .

مسـألة الديناميـة الاقتصادية ليست وحدها التي تثقل على مسـتقبل روسـيا ، المجهـول الأساسـي الآخـر هو مصير النظام

---

1 - عولمة الاقتصاد السياسي ، برنستون ، مطبعة الجامعة 2001 ص 333 – 339 .

السياسي ، والذي لا أحد يستطيع التأكيد بأنه سيكون ديمقراطيا ليبراليا .

الصحافة الغربية ، المكتوبة ، والمرئية ، تطمئننا يوماً بعد يوم بأن بلاد فلاديمير بوتين تتكبد تطبيعاً حقيقياً إعلامياً ، محطات تلفزيون وصحف سوف يطاح بها ، من قبل السلطان . حتى لو أن وسائل الإعلام الغربية تسلم بأن الأمر يتعلق ، أحيانا ، بتدمير قوة الاوليقادشية التي ولدت من مرحلة الغوغائية الشبه ليبرالية لسنوات 90-2002 ، وليس بإلغاء حرية الإعلام . بعد كل شيء ، منذ وقت ليس ببعيد ، الدولة ، في فرنسا ، تملك احتكار التلفزيون ، هذا الاحتكار ألغي بعد الاحتجاج عليه . لكن لا أحد عاقلاً يمكنه وصف فرنسا الديغولية بأنها بلد يسير نحو التوتاليتاوية .

هناك في روسيا رئيس قوي ، جرى انتخابه في انتخابات عامة ، وبرلمان أقل قوة ، لكنه أيضاً منتخب في انتخابات عامة، هناك أيضا تعدد أحزاب سياسية ، تمولها الدولة ، مثل الحال في فرنسا ، وليس كما في أمريكا ، حيث تمول الأحزاب من قبل الشركات الكبرى .

في روسيا من الممكن تمييز ثلاث قوى رئيسية : الحزب الشيوعي . حكومة مركزية ، ويمين ليبرالي . ليس أكثر من الديمقراطية اليابانية ، الديمقراطية الروسية لم تأخذ الشكل الكلاسيكي لديمقراطية تداول من نمط انجلوساكسوني أو فرنسي. إذا استقر هذا النظام ، يمكننا القول بأنه يمثل شكلاً ممكناً من تكييف الديمقراطية مع أساس انتروبولوجي جماعي .

الديمقراطية الروسية تجتاز مرحلة استعادة الحكومة المركزية للسلطان ، الضروري بعد غوغائية سنوات 90-2000 حكومة بوتين قامت في الشيشان ، على حدود الاتحاد الروسي، بحرب قذرة ،والتي يمكن شرعياً التنديد باسلوبها ، لكن يجب التسليم أيضا بأنه أخذا في الاعتبار وجود عدة أقليات عرقية في فضاء الاتحاد ، يمنع الدولة من التخلي عن الشيشان . لأن هذا يعنى ان يطلب منها قبول التفسخ النهائي . نشاط المخابرات المركزية الأمريكية ، في القوقاز ، طيلة العشر سنوات الأخيرة ، وجود مستشارين عسكريين أمريكان في جورجيا يكفل للصراع الشيشاني بعداً دوليا ، إن ما يحدث هناك هو مواجهة بين روسيا وأمريكا ، القوتان يجب عليهما تقاسم المسؤولية بشكل عادل بينهما ، المسئولية الأخلاقية عن الخسائر البشرية .

إذا أصررنا على الحكم على روسيا ، يتوجب علينا تبني نظرة أكثر اتساعاً ، وأن نتخلص من قصر النظر التاريخي المتمثل في التفسير يوما بيوم . علينا أن نلقي نظرة على ما حققته روسيا في عشر سنوات ، وسط معاناة اقتصادية واجتماعية هائلة.

لقد أطاحت وحدها بالنظام التوتاليتاري الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً ، وقبلت ، بدون عنف ، إن اتباعها من بلدان أوروبا الشرقية يحصلون على استقلالهم ، تبعها بلدان البلطيق، وجمهوريات القوقاز في آسيا الوسطى ، وقبلت انفصال روسيا البيضاء ، وأوكرانيا ، وسلمت بأن وجود أقليات روسية كبيرة، في معظم الدول الجديدة لا يحول دون استقلالها ، لاشيء مثالي، يمكن الإشارة إلى أن روسيا لم تكن تملك خياراً آخراً ،

وتـرك هذه الاقليات في مكانها ، في الخارج ، هو ضمان قوة في المسـتقبل . هـذا صحيح ، ولا يمكن إلا الإعجاب بذكاء القادة الـروس ، الذين فضلوا المستقبل البعيد على السهولة المباشرة ، وعلى العنف غير المجدي . قوة عظمى كانت منذ عشر سنوات بالكـاد ، فـان روسـيا قـبلت ، سـلمياً ، كـل التراجعـات الـتي رفضـتها صـربيا ميلوزوفيـتش . هكـذا بـرهنت علـى أنها أمة عظيمة ، تقدر المسؤولية وتحسن الحساب . يوما ما سوف نقبل، رغـم فظائـع سـتالين ، مسـاهمة روسـيا الإيجابية في التاريخ ، متضـمنة أكثـر الآداب عالمـية ، مـع قوقـول ، تولسـتوي ، ديستوفسـكي ، تشـيكوف تورقييف وغيرهم . التنديد البعدي بالشيوعية لا يمثل وصفاً حصرياً للتاريخ الروسي .

- العالمية الروسية :

من أجل تقديم ما يمكن لروسيا أن تقدمه ، إيجابيا ، إلى عالم الحاضـر ، علينـا أولاً فهـم لمـاذا كـان لها تأثير قوي على العالم الماضـي ، الشـيوعية وممارسـة العـبودية اخترعـت مـن قبلها ، أغـرت ، في خـارج الإمـبراطورية الروسـية ، عمالاً ومزارعين وأسـاتذة ، جاعلـة مـن الطمـوح الشـيوعي قـوة عالمية . نجاح الشـيوعية يُفسـر بشـكل رئيسـي ، بوجـود ، في جـزء كبير من العـالم، خاصة في الجزء الأوسط من أوراسيا ، بنى عائلية قائمة علـى المساواة وعلى السلطوية ، تعد مقدماً لإدراك أيديولوجيا الشـيوعية ، كطبيعـية وصـالحة . لكـن روسـيا نجحت ، لبعض الـوقت ، في تنظـيم كـل هذا على مستوى الكوكب ، وصارت قلب الإمبراطورية أيديولوجية ... لماذا ؟ .

روسيا ذات طبع عالمي ، المساواة تندرج في قلب البنية العائلية ، للفلاحين الروس ، من خلال قاعدة وراثية متجانسة بإطلاق ، في عهد بيير ا لكبير ، النبلاء الروس ، أنفسهم ، رفضوا قاعدة الوراثة التي تميز الابن البكر على حساب كل الآخرين . مثل الفلاحين الفرنسيين الذين بالكاد محيت أميتهم في حقبة الثورة ، فإن الفلاحين الروس الذين بالكاد محيت أميتهم في القرن العشرين ، أدركوا تلقائيا أن الناس متساوون مقدماً . الشيوعية تأكدت كعقيدة عالمية معروضة على العالم ، لسوء حظها ، أعترف بذلك ، هذا الاقتراب العالمي أتاح تحول الامبراطورية الروسية إلى الاتحاد السوفيتي . البلشفية استقطبت في دوائرها القيادية ، أقليات الإمبراطورية : بالط ، يهود جورجيين ، ارمن ، مثل فرنسا ، روسيا أثارت الإعجاب بقدرتها على اعتبار كل الناس متساوين .

الشيوعية سقطت ، العمق الانتروبولوجي للفضاء السوفيتي القديم ، أخذ يتحول ، لكن ببطء . الديمقراطية الروسية الجديدة ، إذا نجحت ، سوف تحافظ على خصوصيات معينة ، والتي يتوجب علينا تخيلها ، إذا أردنا توقع سلوكها في المستقبل على المسرح الدولي . الاقتصاد الروسي ، متحول إلى الليبرالية، لن يكون أبداً رأسمالية فردية ، على النمط الانجلو ساكسوني . إنه سيحافظ على سمات جماعية ، خالقاً أشكالاً تشاركيه أفقية ، والتي لازال من المبكر تحديدها . النظام السياسي ، ربما لن يعمل على نمط تداول الحزبين ، الأمريكي أو الإنجليزي . من يريد المراهنة على شكل روسيا القادم ، من

المفيد له أولا قراءة الكتاب الكلاسيكي لاناتول لوري بوليو[1] حول إمبراطورية القياصرة الروس . بتاريخ 1897 – 1898 ليجد فيه التوصيف الحصري للسلوك وللمؤسسات ، وللشعور الجماعي ، من عشرين إلى أربعين سنة قبل انتصار الشيوعية .

الاقتراب العالمي للسياسة الدولية ، سوف يبقى ، مع ردود فعل غريزية ، قريبا من ذلك الذي لفرنسا ، عندما هذه ، أثارت ، مثلا ، غضب الولايات المتحدة بسبب نظرتها القائمة على المساواة إلى المسألة الإسرائيلية – الفلسطينية .

الروس ، على خلاف الأمريكان ، ليس في رؤوسهم حد يفصل الناس إلى من لهم حقوق كاملة ، والآخرين : يهود ، سود عرب . ولم يقوموا منذ القرن 17 وفتح سيبيريا ، بتصفية هنودهم – باشكير ، اوسناك ، ماريس .... الخ . والذين بقاءهم يفسر البناء المعقد للاتحاد السوفيتي .

الطبع العالمي الروسي مفقود في السياسة الدولية هذه الأيام، اختفاء القوة السوفيتية التي طبعت علامة مساواة على العلاقات الدولية ، يفسر ، جزئيا ، انفلات النزعات الاختلافية الأمريكية ، والإسرائيلية أو غيرها . العزف الفرنسي العالمي الضعيف ليس له ثقل في غياب القوة الروسية. عودة روسيا إلى حقل العلاقات الدولية لا يمكنه إلا أن يكون عامل قوة لمنظمة الأمم المتحدة . إذا روسيا لم تغرق في الغوغائية أوفي السلطوية، فإنها ستكون عامل توازن أساسي : أمة قوية دون أن تكون ذات نزعة هيمنية ، تعبر عن إدراك المساواة في العلاقات بين

---

1 – الطبعة الأولى عام 1881 –52 – إعادة طبع حديقة في مجموعة بركان روبير لافونت 1990 .

الشعوب . هذه الوضعية ستكون أكثر سهولة ، إن روسيا اقتصادياً ليست مثل الولايات المتحدة التي تعتمد على ثروة العالم ، سلع ، رأسمال ، ونفط .

- **الاستقلال الذاتي الاستراتيجي :**

أخذاً في الاعتبار هذه الصعوبات ، في المجال الديمقرافي والصحي ، لا يمكن اعتبار انطلاق روسيا عنصراً نهائياً في المشهد العالمي الجديد ، لكن مع ذلك يجب أن ندفع إلى أقصى مدى الفرضية ، ودراسة ما ستكونه عناصر قوة اقتصاد روسي استعاد توازنه وإمكانيات نموه . عندئذ ملاحظة تفرض نفسها علينا حالا : روسيا ستكون قوة اقتصادية ذات خصوصية ، تدمج مستوى تكوين ، عال نسبياً ، عند شعبها العامل ، مع استقلالية تامة فيما يتعلق بالطاقة . مقارنة مع المملكة المتحدة ، التي تملك مصادر نفطية في بحر الشمال ، ستكون مفيدة . إنتاج روسيا من النفط والغاز يجعلان منها فاعلاً دوليا في مجال الطاقة. لا يجب أيضا نسيان حجم أراضيها والذي يكفل لها موارد طبيعية أخرى ، وبكميات هائلة . في مواجهة الولايات المتحدة التابعة ، فإن روسيا تتحدد – بالطبيعة – مستقلة عن العالم ، ميزانها التجاري فائض .

هذا الوضع لا يدين بشيء لاختيارات الناس ، لكنه مع ذلك يؤثر في تحديد الأنظمة الاجتماعية . اتساع مساحة الأراضي الروسية ، ثرواتها المنجمية والطاقية ، جعلت تصور ستالين للاشتراكية في بلد واحد ممكناً . في زمن الجدال حول العولمة ، وتبادل التبعية العالمية ، فان روسيا تستطيع النهوض ، وفق سيناريو بدمج كل الفرضيات الأكثر إيجابية ، كديمقراطية

كبرى ، ذات ميزان تجاري متوازن ، وذات استقلالية في مجال الطاقة . باختصار في عالم تسيطر عليه الولايات المتحدة ، فإن روسيا تجسد شكلا من الحلم الديغولي .

إذا كنا نفسر ، جزئيا ، قلق القادة الأمريكان ، من خلال عدم اليقين الذي يوجدون فيه ، النسبة للإمدادات ، على المدى المتوسط ، فيما يتعلق بالسلع ، الرأسمال ، وأيضا النفط ، فإننا نستطيع بالتوازي ، تخيل اطمئنان القادة الروس بالنسبة للمستقبل ، إنهم يعرفون أنه إذا توصلوا إلى استقرار المؤسسات، والحدود ، في الشيشان وغيرها ، فانهم يصيرون غير تابعين لأحد . إنهم على العكس يملكون عامل قوة نادرة : تصدير النفط ، والغاز الطبيعي خاصة . ضعف روسيا ديمقرافي، لكن هذا الضعف ، كما سنرى يمكن أن يصير عامل قوة . من عجائب القدر أن كل هذا سيجعل من روسيا ، المتخلية عن الشيوعية ، أمة مصدر طمأنينة . لأنها لا تعتمد على طاقة بقية العالم ، في مواجهة الولايات المتحدة ، مصدر قلق لأنها تنهب العالم .

- إعادة تركيز الروسيات :

المشكلة ذات الأولوية ، بالنسبة لروسيا ، مع ذلك ، ليست مشكلة صورتها في الخارج ، وإنما استعادة فضاءها الاستراتيجي الخاص بها ، ليس داخليا وليس خارجيا ، بالمعنى الدقيق للكلمتين .

الاتحاد السوفيتي كان له بناء خاص جداً ، في جزء منه موروث من الحقبة القيصرية ، والذي لا يمكن استبعاد – لهذا

السبب – أنه يمثل درجة دوام أعلى قليلاً من الشيوعية حول روسيا يمكن أن نميز نوعين : أولاً قلب سلافي أو بالأحرى – كل الروسيات – التي تضاف إلى البلد المركزي ، روسيا البيضاء، أوكرانيا . بعد ذلك كل ما يرتبط ببقية جماعة البلدان المستقلة في القوقاز وفي أسيا الوسطى . إعادة انطلاق الاقتصاد الروسي يمكنه شيئاً فشيئاً إعادة منح الحياة لهذه الجماعة . وان يعيد خلق فضاء النفوذ الروسي السابق مجدداً . دون إمكانية الحديث ، مع ذلك ، عن هيمنة بالمعنى الاعتيادي .

هذه الدينامية إذا انطلقت فإنها تدين كثيراً لعجز الاقتصاديات الغربية ، التي أضعفها كثيراً الانهيار الرأسمالي ، عن شغل الفضاء الذي ظل فارغاً لمدة عشر سنوات ، أكثر منها بفضل إعادة انطلاق الاقتصاد الروسي ، في القلب الروسي للنظام. الثلاث جمهوريات البلطيقية وحدها اندمجت في المجال الأوروبي ، أو بدقة اكبر الاسكندنافي . عودة ظهور الفضاء السوفيتي ليست مؤكدة، كما أنه ليس مؤكداً الانطلاق النهائي لروسيا . لكن منذ الآن يمكن أن نرى أن هذا الانطلاق لا يتطلب أن يكون هائلا لكي تنتج عنه إعادة المركزية ، ذلك لأنه يوجد بين الأمم التي نتجت عن أنقاض الاتحاد السوفيتي ، علاقات انتروبولوجية تعود لحقبة سابقة عن الشيوعية .

كل بلدان الفضاء ، بدون استثناء ، ذات بنى عائلية جماعية، تربط ، في إطار المجتمع التقليدي ، الأب مع أولاده المتزوجين . هذا صحيح بالنسبة لبلدان البلطيق ، وكذلك لشعوب القوقاز واسيا الوسطى ، الاختلاف الوحيد الملاحظ ، هو تفضيل الزواج الداخلي ، أحيانا ضعيف بين شعوب مسلمة : مثل

الازيـري ، والاوزبـك ، والكيرجيـز ، والطاجيك والتركمان ، الكـازاك علـى العكـس يفضلون الزواج الخارجي مثل الروس هـذه القـرابة الانتروبولوجـية ، لا يمكنها بأي حال أن تقود إلى نفـي وجـود شـعوب ، الليتوانـيين ، الاسـتونيين ، الليـتون ، والجورجـيين ، والأرمـن ، كلـهم ، مـثل الشـعوب المسـلمة موجـودة ، حتـى لـو أن الأمـم الـتي ولدت عن تفسخ الاتحاد السـوفيتي ، تـدين أحيانا بوجودها ، في أسيا الوسطى كما فسر ذلـك اولـيفوروي ، إلى صـناعة سياسية روسية 1 لكن يجب أن نعـرف أن قـرابة ثقافـية حقيقية توجد دائما بين شعوب الاتحاد السـوفيتي السـابق ، خاصة وجود مشاعر جماعية في كل مكان . تقـدم الديمقـراطية في المـنطقة يجري على خلفية مقاومة الفردية المفـرطة . هـذه القـرابة الانتروبولوجية تسمح لنا ، منذئذ ، أن نفسـر ظاهـرة حديـثة ، وأن نـتوقع ظاهـرة مسـتقبلية ،يتعلقان بـتطور المجـتمع مـا بعـد الشـيوعية في أراضـي الاتحاد السوفيتي السابق .

ظاهـرة حديـثة : الـثورة الليـبرالية ولدت في القلب القائد للـنظام ، في روسـيا ، ولم تصـل سـريعاً إلى الهـوامش ، هـذه الجمهـوريات حـيث الفردية ليست طبيعية ، مثلما هو الحال في روسـيا . استقلال جمهوريات الهامش ، سلاف أو غير سلاف ، حماهـا من الثورة الروسية الثانية الليبرالية ، وشجع فيها تصلب أنظمة أكثر سلطوية منها في روسيا .

ظاهـرة مسـتقبلية : الـتقدم المسـتقبلي للديمقراطية ، خارج المجمـوع الروسـي يدين بالكثير للتأثير الروسي قدر أو اكثر من

1 – أوليفيوروي : اسيا الوسطى الجديدة أو صناعة الأمم – سوي 1997

تأثير غربي ضعيف وسيئ التكيف ، روسيا في طريقها للخروج من الشيوعية ، تبحث عن ، وتحدد نظاما اقتصاديا ليبراليا وسياسيا ديمقراطيا ، لكن يكون قادراً على الأخذ في الاعتبار المشاعر الجماعية القوية ، في هذا المعنى المحدد ، يمكن لروسيا أن تكون نموذجاً بالنسبة للمنطقة .

وجود خلفية انتروبولوجية مشتركة بين كل جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق يفسر لماذا لا زال سهلا الكشف عن وقائع ثقافية مشتركة بين كل المنطقة . في مجال العنف ، مثلا الانتحار أو القتل ، البلد الوحيدة حيث تشهد موتاً عنيفاً قدر ما يوجد منه في روسيا ، هو أوكرانيا ، روسيا البيضاء . كازاخستان وجمهوريات البلطيق الثلاث ، استونيا ، ليتوينا ، ليتوانيا ، التوازي يكون بقدر لا يمكن تفسيره ، كاملا من خلال وجود أقليات روسية فقط ، حتى لو كانت هذه الاقليات كبيرة ، كما في استونيا ، ليتونيا ، في المستوى ما دون الدولة ، وحتى ما دون السياسي ، للعقليات – الفضاء السوفيتي لم يختف تماماً .

عند استقلالها ، جمهوريات البلطيق أسرعت باختراع تاريخ صراع ابدي مع روسيا، هذا ليس واقعياً من زاوية التحليل الانتروبولوجي ، روسيا الشمال ، والوسطى ، هي مهد ولادة الدولة الروسية ، وجمهوريات البلطيق تقوم في نفس الفضاء الثقافي الأصلي ، وهو جماعي بقوة ، من ناحية البنية العائلية كما من ناحية الطموحات الأيديولوجية خلال الانتقال نحو الحداثة . بطاقة التصويت البلشفي ، خلال انتخابات المجلس التأسيسي عام 1917 ، تبين أن الناخبين الشيوعيين ، كانوا

اكثـر قوة في ليتونيا منهم في روسيا الشمالية وروسيا الوسطى ، ومسـاهمة الليـتون في البولـيس السـري السوفيتي ، كانت منذ الأصل ، ذات أهمية كبيرة ، إذن ليس من الغريب أن نلاحظ ، مـن خـلال معايير عقلية كاشفة ، أن معدلات القتل والانتحار مقاربة لما هي عليه في الثقافة الروسية ، والبلطيقية .

معـدلات الانـتحار في اذربيدجان غير ذات أهمية ، هي في المقابل نمطية بالنسبة لبلد إسلامي ، لان الإسلام وبنيته العائلية المغلقـة والعطـوفة، التي ترتبط به ، تبدو على أنها مصدر مناعة ضـد تـدمير الـذات ، لكن جمهوريات أسيا الوسطى الأخرى ، الإسـلامية ، تكـون المعـدلات مـرتفعة جـداً بالنسـبة لـبلدان إسـلامية ، بمـا في ذلـك معـدلات كازاخسـتان ، حـيث نصف السـكان روس . مـثل هـذا الشـذوذ يشير إلى تأثيرات سوفيتية أكثـر أهمية مما يقال عادة . هذا العامل يجب أن يضاف إلى محو الأمـية الكامل ،وإلى ضعف الخصوبة ، وإلى عدم أهمية النزعة الإسـلامية في أسيا الوسطى ما بعد الشيوعية . اوليفير روي ، في أعمالـه القـيمة ، قلـل – ربمـا – مـن أهمـية الـتأثير الثقافي الروسي ، في المنطقة ، إنه لم يكشف عن بقاء اللغة الروسية بين الطـبقات القـيادية ، ويعتـبرها ظاهـرة مؤقـتة [1] بدون الاعتقاد لحظـة واحـدة في الفرضـية المناقضـة ، عـن بقـاء تحـتي للفضاء السـوفيتي ، فأنـي أتقـدم بحـذر شـديد ، إذا كـنت اسـتراتيجي جغـرافي أمريكي ، الألف وخمسمائة جندي أمريكي المتمركزين في أوزبكسـتان ، ليست لهم أهمية كبيرة ، بعيدين عن عالمهم . رأس حربة اليوم ، إلا انهم يمكن أن يصيروا رهائن الغد .

1 – اوليفير روي : أسيا الوسطى الجديدة وأسيا الوسطى المعاصرة . بوف 2001

- المسألة الأوكرانية :

مـا بين عام 1990 – 1998 ، تفسخ روسيا ذهب بعيداً ، وقـاد إلى فقـدان الدولـة الروسـية لسـلطتها وسـيطرتها علـى السـكان الـروس عـرقيا ، في بلـدان البلطـيق والقـوقاز وآسـيا الوسـطى ،وهي مناطق ذات أغلبية غير روسية ، هذا الانحسار يمكـن تفسـيره علـى أنه تراجع إمبريالي أو تصفية الاستعمار ، أمـا في حالـة روسـيا البيضـاء وأوكرانيا والنصف الشمالي من كازاخسـتان ، فـان روسـيا لم تفقـد جـزءاً مـن فضـاء هيمنـتها التقلـيدية . روسـيا البيضـاء لم توجد أبدا ككيان دولة مستقلة . وكـذلك شمـال كازاخستان . في هاتين الحالتين فقدان السيطرة يمكن اعتباره اثراً متناقضاً لفوضى احترمت الحدود التي صنعت خلال الحقبة السوفيتية . حالة أوكرانيا ، مع مكوناتها السكانية الـثلاث : أوكـرانيين ، اونـيات ،في الغـرب ، ارثـوذوكس في الوسـط وروس في الشـرق ، هـي حالـة أشد تعقيداً . انفصال نهائـي يمكـن النظـر إلـيه بواقعـية أكثـر . لكـن هانتينقتون ربما أصاب أكثر من بروزينسكي ، عندما يؤكد قبول التفسير الديني المبسط ، للظاهرة ، تبعية أوكرانيا لروسيا هي نتاج دوام تاريخي كثيف ودقيق .

مـن وجهـة نظر أوكرانيا ، التجديد يأتي دائما من روسيا ، نحن هنا في مواجهة ملاحظة تاريخية ، الثورة البلشفية ولدت في روسـيا ، وبالتخصـيص في جـزئها المهـيمن تاريخاً ، وهو فضاء واسـع حـول محـور موسـكو بطرسـبرج . هـنا ولـدت الدولـة الروسية ، ومنها انطلقت كل موجات التحديث ، في القرن 16 وحتـى القـرن العشرين وهنا أيضا جرى الاختراق الليبرالي في

أعوام 90 سقوط الشيوعية . وموجات الإصلاحات التي تتواصل اليوم ولدت هنا أيضا ، في موسكو ، وحملتها للغة الروسية ، أوكرانيا مقطوعة عن روسيا لا يمكنها إلا السير ببطء في طريق الإصلاحات وهذا مهما كانت المزاعم الأيديولوجية والكلامية التي تصدر عن صندوق النقد الدولي .

أوكرانيا ، تاريخياً واجتماعياً ، ليست إلا منطقة سيئة البنية، مائعة ، لم تكن أبدا مصدر ظاهرة تحديث مهمة ، إنها أساسا هامش روسي خاضع لدوافع المركز . وفي كل الحقب تتسم بطابع المحافظة : ضد البلاشفة ضد السامية عام 1917 – 1918 ، أكثر غرقاً في الستالينية من روسيا منذ 1990 . الغربيون خدعهم وضعها الجغرافي ، نحو الغرب ، ووجدوا أقلية دينية كبيرة من الاونيات ، قريبة من الكاثوليكية . لم يفهموا أن أوكرانيا عندما أعلنت استقلالها ، فإنها تعزل نفسها عن الثورة الديمقراطية في موسكو وفي بطرسبرج حتى لو أنها، هكذا ، وضعت نفسها في وضع يمكنها من الحصول على قروض غربية .

مع ذلك لا يجب المبالغة في النزعة المحافظة الهامشية الأوكرانية ، صعوباتها في الخروج من رئاسة محض سلطوية ، لا تقارن ، مع ذلك ، بصعوبات كازاخستان واوزبكستان .

مع ذلك السيناريو الذي يقترحه بريزنسكي ليس عبثياً ، هناك ما يكفي من الاختلافات الثقافية مع الروس ، لكي تعتبر أوكرانيا نفسها ، ذات خصوصية ، لكن محرومة من دينامية خاصة بها ، فان أوكرانيا لا يمكنها التملص من روسيا إلا بأن تدخل في فلك قوة أخرى. القوة الأمريكية بعيدة جداً ، وماديا

غير محسوسة ، لكي تكون في مقابل القوة الروسية. أوروبا قوة اقتصادية حقيقية ، في قلبها ألمانيا ، لكنها ليست قطب قوة سياسية وعسكرية . لكن إذا أرادت أوروبا أن تصير كذلك ، ليس من صالحها جعل أوكرانيا تابعة لها ذلك لأن أوروبا ، نفسها ، في حاجة إلى توازن روسي لكي تنعتق من الوصاية الأمريكية .

نستطيع هنا قياس الغياب العيني الاقتصادي للولايات المتحدة في قلب أوراسيا ، قوة خطابها لا تستطيع التعويض عن لا مادية إنتاجها ، خاصة بالنسبة لبلدان في طور النمو ، مثل أوكرانيا . إذا وضعنا جانباً صادراتها العسكرية ، وبعض العقول الالية ، فان الولايات المتحدة لا تملك أشياء كثيرة تعرضها ، إنها لا تصدر سلعاً إنتاجية واستهلاكية والتي يحتاجها الأوكرانيون ، أما بالنسبة للرأسمال المالي فإنها على العكس تبتلعه ، حارمة العالم في طور النمو من المصادر الفائضة منه عند اليابان وأوروبا ، كل ما تستطيعه الولايات المتحدة هو إعطاء الوهم بقوتها المالية من خلال السيطرة السياسية والأيدلوجية على صندوق النقد الدولي وعلى البنك العالمي ، وهما مؤسستان يمكن لروسيا الاستغناء عنهما بفضل فائضها التجاري .

لوحة 11

القتل والانتحار في العالم 1550 الف نسمة

اجمالي	انتحار	قتل			اجمالي	انتحار	قتل	
15.1	14.2	0.9	المانيا 98		58.2	35.3	22.9	روسيا 1998
17.9	11.3	6.6	الولايات المتحدة98		44.6	33.5	11.7	روسيا البيضاء 1999
26.2	23.8	2.4	فنلندا 98		41.3	28.8	12.5	أوكرانيا99
19.9	19.0	0.9	فرنسا97		49.3	33.2	16.1	استونيا99
36.0	33.1	2.9	المجر99		44.1	31.4	12.7	ليتونيا 99
19.2	18.6	0.6	اليابان97		50.0	42.0	8.0	ليتوانيا 99
8.1	7.4	0.7	المملكة المتحدة 98		5.4	0.7	407	ازربيدجان 99
15.4	14.2	1.2	السويد96		43.2	26.8	16.4	كازاخستان 99
11.0	6.4	4.6	الأرجنتين 94		18.5	11.5	7.0	كرجيستان 99
76.2	3.2	73.0	كولومبيا 94		10.1	3.3	6.8	اوزبكستان 99
20.4	3.2	17.2	المكسيك 95		6.5	3.4	6.1	طاجكستان 95
20.8	5.1	15.7	فنزويلا 94		15.3	6.4	8.4	تركمنستان98

المصدر : الحولية الديمقرافية للأمم المتحدة .

الـولايات المـتحدة يمكـنها استـهلاك السـلع المنـتجة في أوكـرانيا، وأن تسـدد مقابلـها بالأمـوال التي تمتصها من أوروبا والـيابان، وغيرهمـا . لكـن التبادل التجاري يكشف خصوصاً تبعـية أوكـرانيا لروسـيا ولأوروبـا وإلى غير الولايات المتحدة ، عـام 2000 استـوردت أوكـرانيا ما قيمته 8040 مليون دولار من جماعة البلدان المستقلة ، مقابل 5916 مليون من بقية العالم، خاصـة مـن أوروبـا[1] 190 ملـيون سـلع وخـدمات قادمة من

1 - الوثائق الفرنسية رسالة بلدان الشرق – رقم 1020

الولايات المتحدة والتي تمثل 1.4 ٪ من الإجمالي [1] أوكرانيا صدرت في نفس السنة ما قيمته 4498 مليون دولار إلى جماعة البلدان المستقلة ، و 10075 مليون دوار إلى بقية العالم . منها فقط 872 مليون إلى الولايات المتحدة . أي 6 ٪ من الإجمالي . أوكرانيا لا تغطي تبادلها مع جماعة البلدان المستقلة إلا بنسبة 56 ٪ لكن ميزانها فائض بالنسبة لبقية العالم ، بمعدل غطاء 170 ٪ .

هنا تظهر لا مادية الإمبراطورية الأمريكية ، الولايات المتحدة لا تغطي وارداتها من أوكرانيا إلا بنسبة 22 ٪ لا يجب إهمال السمة الديناميية للعملية ، في تجارتها مع أوكرانيا ، الولايات المتحدة لا تحقق عجزاً إلا منذ عام 1994 عام 92 – 93 حققت بعض الفائض البسيط .

الاستهلاك يصير ، شيئا فشيئاً ، واضحا على أنه تخصص أساسي للاقتصاد الأمريكي في النظام العالمي . الولايات المتحدة ، لم تعد ، وهذا أقل ما يمكن قولة ، في وضع فائض إنتاج الذي كان لها ما بعد الحرب مباشرة ، لهذا لم تعد قادرة على تمويل خطة مارشال جديدة ، والتي البلدان الخارجية من الشيوعية في حاجة إليها . الولايات المتحدة، في وجود الفضاء السوفيتي السابق ، كما بدونه ليست إلا نهابة .

بالنسبة لأوكرانيا ، يقيننا الوحيد هو أنها لن تغير موقعها الجغرافي . اقترابها من روسيا هو أمر ممكن جداً ، كما أنه من المستحيل أن تستعيد روسيا السيطرة عليها تماماً . روسيا ، إذا

1 - مكتب الإحصاء للولايات المتحدة .

أعـاد اقتصـادها الانطلاق ، سوف تصير مركز جذب في فضاء اكثـر اتساعاً منها ، هكذا جماعة البلدان المستقلة يمكن أن تصير ذات شـكل سياسـي حقيقـي وجديـد ، يجمـع القيادة الروسية واستقلالية ذاتية للبلدان الأخرى . روسيا الثانية . الصغيرة أو الجديـدة . مصـطلح كـل الروسـيات يعود إلى الظهور في وعي الفعلـة المحلـيين والدولـيين . أرمينـيا مـا وراء القوقاز ستحافظ على وضعها كحليف مغلق بالنسبة لروسيا ، بسبب الخوف من تركيا الحليف المفضل ، لعدة سنوات قادمة ، للولايات المتحدة. جورجـيا تعـود إلى الصـف ، جمهـوريات أسـيا الوسـطى تعود صـراحة تحـت الـنفوذ الروسـي . كازاخسـتان نصف الروسية تشـغل مكانـا خاصـاً ، عـودة ظهـور روسـيا كفاعل اقتصادي وثقـافي ديناميكي ، في هذه المنطقة ،يضع ، بكل تأكيد ، القوات الأمـريكية المتمركـزة في اوزبكسـتان وكيرجسـتان في وضـع غريب. التعبير جسم غريب يأخذ عندئذ كامل معناه .

عملـية إعـادة التنظـيم هـذه ، تخلـق مباشـرة ، في شمـال الجماعة الأوروبية الموسعة ، كيانا ثانيا متعدد الوطنيات ، يملك قوة قيادة مركزية ، روسيا لكن في الحالتين السمة المعقدة للنظام السياسي ، تجعل كل سلوك عدواني حقاً ، صعباً ، وكل دخول في صراع عسكري كبير يمثل إشكالية كبرى .

- الضعف كعامل قوة :

الصورة التي رسمتها عن روسيا المثالية ، والضرورية للعالم، مبالغ بعض الشيء في خطواتها ، إن الأمة التي وضعتها هي أمة

افتراضية، بالنسبة للوقت الحالي ، رأينا هذا ، العنف الخاص ، في روسيا ، هو الأكثر ارتفاعاً في العالم . الدولة تعمل جاهدة للحفاظ على قدرتها تحصيل الضرائب ، ومن أجل الحفاظ على وحدة أراضيها ، وحدودها القوقازية . إنها تتكبد حصاراً استفزازياً اكثر منه حقيقي من الأمريكان ، في جورجيا وفي اوزبكستان . وسائل الإعلام الغربي ، باسم ملائكية شاذة ، تأخذ على روسيا وسائل إعلامها المنفلتة ، وجماعات شباب اليمين المتطرف ، باختصار كل مساوي أمة تنهض في المعاناة الكثير من وسائل إعلامنا تعودت على راحة التطور الفائق ، نكتفي بصورة روسيا المقلقة .

الاستراتيجيون الأمريكان ، بالنسبة لهم ، لا يتوقفون عن تفسير ، إنه لكي نكفل أمننا على المدى الطويل ، يجب إفهام الروس أن مرحلة إمبراطوريتهم قد ولت ، بزعمهم هذا يكشفون ، بدون شك ، عن خاصية الانشغالات الإمبريالية للولايات المتحدة نفسها ، ليس ثمة حاجة لتفكير سامي المستوى لكي نفهم أن روسيا لم تعد قوة تتوسع . مهما كان الشكل الديمقراطي أو السلطوي الذي يتخذه النظام ، فان روسيا في حالة تراجع ديمقرافي ، سكانها ينخفضون عدداً ، يتقدمون في العمر ، وهذا وحده يأذن لنا بأن ندرك هذه الامة على أنها عامل استقرار أكثر منها عامل تهديد .

من وجهة نظر أمريكية ، هذه الحركة الديمقرافية أنتجت ، مفارقة غريبة ، في مرحلة أولى انكماش السكان الروس مضافاً إلى الانهيار الاقتصادي ، جعل من الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة ، وجعلها تنطلق في حلم إمبريالي مستحيل التحقيق ، عندئذ ظهر الإغراء بانهاء الدب الروسي .

في مرحلة ثانية ، يبدو شيئاً فشيئاً للعالم ، إن روسيا المتدنية، ليست فقط لا تثير القلق ، وإنما صارت آليا طرفا في التوازن ، في مواجهة أمريكية القوية جداً والنهابة ، والمغامرة ، في اللعبة الدولية . هذا أتاح لبوتين أن يصرح في برلين " لا أحد يشكك في قيمة علاقات أوروبا مع أمريكا ، لكني أفكر أن أوروبا تقوى سمعتها ، باعتبارها قوة عالمية مستقلة حقا ، إذا شاركت بقدراتها قدرات روسيا ، مع الموارد البشرية ، والترابية والطبيعية التي لها ، والقدرات الاقتصادية والثقافية والدفاعية التي لروسيا " .

في العمق نحن لسنا متأكدين من أن روسيا سوف تقيم مجتمعاً ديمقراطيا ، والذي يجسد إلى الأبد ، أو لمدة طويلة حلم فوكوياما عن عالمية المجتمع الليبرالي ، في هذا المعنى السياسي لا يمكن الوثوق بها ، لكن يمكن الوثوق بها على المستوى الدبلوماسي ، لسببين أساسيين ، أولا لأنها ضعيفة ، هذه مفارقة ، مضافة إلى الاستقرار الداخلي ، فان عامل القوة الأساسي عند بوتين الذي يسمح له بإعادة الاندماج ، باعتباره حليفاً محتملاً، في لعبة الأوروبيين ، لكن روسيا محل ثقة ، سواء كانت ليبرالية أم لا ، فإنها ذات طابع عالمي ، قادر على إدراك

العلاقـات الدولية بنظرة مساواة وعدالة . هذا الضعف ، الذي يمنع أحلام الهيمنة ، فان العالمية الروسية لا يمكنها إلا المساهمة، إيجابيا ، في توازن العالم .

هـذه الـرؤية المتفائلة جداً لروسيا ، كقطب توازن ، ليست ضرورية بالنسبة للواقعيين من المدرسة الكلاسيكية الأمريكية ، كيسـنجر مـن أولهـم بالنسـبة للواقعـي الاستراتيجي ، التوازن العسكري لا يجب أن يكون أخلاقيا خيراً .

اليونانـيون أخيراً تعبوا من قوة أثينا ، انتهوا بأن طلبوا نجدة سـبرطة ،والـتي وإن لم تكـن نموذج الديمقراطية والحرية إلا أنها كانت تملك صفة وحيدة وهي رفض كل توسع ترابي.

هكذا انتهت الامبراطورية الأثينية التي حطمها اليونانيون وليس الفـرس ، سيكون من قبيل سخرية القدر أن نرى، في السنوات القادمة، روسيا تلعب دور اسبارطة، مدينة أوليقارشية ، دعيت للـدفاع عـن الحـرية ، بعـد أن لعبت دور الفرس ، إمبراطورية متعددة الأعراق مهددة لكل الأمم .

أي مقارنـة لا يجـب أن تـذهب أبعـد مـن هذا ، عالم اليوم أكثـر اتسـاعا وتعقـيداً مـن أن يسـمح بحدوث حرب بيلبونيس جديـدة . بكـل بسـاطة أمريكا لا تملك الوسائل الاقتصادية ، والعسـكرية والاديولوجـية لمـنع حلفائها الأوروبيين واليابانيين من استعادة حريتهم إذا أرادوا ذلك .

الفصل الثامن

انعتاق أوروبا

في مرحلة أولى ، عملية 9/11 كانت للأوروبيين فرصة إظهار تضامنهم ، القادة الأوروبيون التزموا باستخدام حلف الأطلس ، وهو حلف دفاعي ضد دول ، في " الحرب على الإرهاب " والتي لم تحدد بدقة . خلال السنة التي تلت شاهدنا تدهوراً مستمراً في العلاقات الأوروبية الأمريكية ، أسبابه العميقة في الظاهر غامضة ، لكنه حتمياً في تطوره ، عنف العملية الإرهابية كان فرصة الكشف عن التضامن ، لكن الحرب الأمريكية على الإرهاب ، كانت عنيفة وغير فعالة في مناهجها ، وغامضة في أهدافها الحقيقية ، انتهت بان كشفت عن خصومة حقيقية بين أوروبا وأمريكا . التنديد المستمر بمحور الشر ، الدعم الدائم لإسرائيل ، احتقار الفلسطينيين ، غير ، تدريجيا ، من نظرة الأوروبيين للولايات المتحدة ، والتي كانت حتى ذلك الحين عامل سلام صارت مصدر قلاقل . الأوروبيون ، وقتا طويلا أطفال مخلصين لقوة أبوية محترمة ، انتهوا بالشك في السلطة العليا من حيث عدم تقديرها المسؤولية، والذي يمكن أن يكون خطراً . ورأينا أن الذي كان من غير الممكن التفكير فيه يحدث ، إنه الظهور التدريجي ، غير المنجز بعد ، لشعور دولي مشترك ، بين الفرنسيين والألمان والبريطانيين.

بالنسبة للفرنسيين الحذر من أمريكا لم يكن أمرا جديداً ، لكن التطور الذي حدث عند الألمان كان مثيراً للدهشة . طاعة قيادة الحمية الرئيسية في الغرب ، وهي أداة ضرورية للتأثير الأمريكي على القادة ، يعتبرها القادة الأمريكان أمراً مفروغاً منه ، هذا الاعتقاد الضمني يكمن في ما لم يصرح به علنا :

الولايات المتحدة سحقت ألمانيا تحت قصف القنابل ما بين 1943 – 1945 . وأن الألمان مطيعون بطبيعتهم ، يخضعون للأقوى ، ومن ناحية أخرى ، إنهم يعترفون بفضل الأمريكان في حمايتهم من الشيوعية وأن الأمريكان أتاحوا لهم تطوراً اقتصاديا. هكذا إخلاص ألمانيا بدا مكفولاً للأبد ، من خلال علاقات القوة ، بما في ذلك المصالح .

التردد الجديد عند الحليف البريطاني ، ليس اقل إثارة للدهشة انحياز بريطانياً للولايات المتحدة ، كان بالنسبة للمحللين الاستراتيجيين الأمريكان ، واقعة طبيعية ، أو لنقول واقعة وراثية ، نتاج لغة مشتركة ، وطباع وحضارة مشتركة ، ما ذهب اليه بريزنسكي ، عندما تطرق إلى الدعم البريطاني يعتبر نمطياً ، ظهور نزعة جديدة معادية للأمريكان ، في اليسار وفي اليمين من المشهد السياسي ، ظاهرة متناقضة ، لأنها تحدث غداة التزام لا سابق له بجانب الأمريكان . المملكة المتحدة ، مع ذلك، نجحت في البقاء بعيداً خلال حرب فيتنام ، لكن مفارقة الاقتراب والابتعاد المتواليين ، وعلى فترات قصيرة ، تعتبر كلاسيكية ، لقد مست بدرجات مختلفة كل الأمم الأوروبية : الاقتراب أكثر من شئ أو شخص ما يعطينا الوعي باختلاف لا يمكن تحمله .

تحليلات مفصلة لصحافة كل بلد من القارة القديمة ، أعضاء حلف الأطلسي ، تشهد على صعود مشاعر الخوف ، ثم الغضب ، هذا يجعل سهلاً البرهنة على الانقلاب العاطفي ، من خلال هذه الآثار . رغم مشاعر الغضب عند القادة والمدنيين الأمريكان ، انتهى الأوروبيون بالاتفاق على صناعة ايرباص

مخصصة للنقل العسكري ، وأطلقوا أيضا مشروع غاليليو ، الخاص بتوجيه البحث والملاحة ، بواسطة أقمار صناعية ، والذي يهدف إلى تحطيم احتكار النظام الأمريكي G.P.S. . هذا أظهر القوة الاقتصادية والتقنية العينية الأوروبية . لأن هذا القرار يتطلب وضع 30 قمراً في مسارها . عندما تريد ، أي عندما ألمانيا وبريطانيا وفرنسا تتفق ، فان أوروبا تستطيع . في يونية عام 2002 ، أوروبا ، بموافقة المملكة المتحدة ، وألمانيا ، تبينت قادرة على تهديد الولايات المتحدة بإجراءات مضادة مفصلة ، بعد زيادة رسوم الجمارك الأمريكية على الصلب المستورد ، المؤتمرات الدولية صارت منذئذ مليئة بالمسؤولين الأمريكان – جامعيين ، عسكريين صحفيين ، الذين يشعرون بالمرارة ، لكي لا نقول بالغضب ، يلومون الأوروبيين صراحة على عدم فهمهم أو عدم وفائهم ، وضمنياً ثرائهم ، وقوتهم ، واستقلاليتهم الذاتية المتعاظمة .

لا يمكن تفسير هذا التطور من خلال أحداث عام واحد ، والتي لا تمثل إلا سطح الأشياء . وصف سوء التفاهم السياسي الحديث ، يعني دراسة آليات الوعي أكثر من جوهر الخصومة . قوى عميقة تعمل ، بعضها يقرب الأوروبيين من الأمريكان ، والآخر يبعدهم . سمة مهمة في العملية الجارية تجعل التحليل معقداً : قوى التقارب وقوى التباعد تزداد معاً في أوروبا ، الرغبة في الاندماج مع الولايات المتحدة ، والتي تتعاظم ، تواجهها بفعالية أكثر فأكثر الحاجة إلى الانفصال التي تتقدم بقوة أيضا . هذا النوع من التوتر شبيه باقتراب الطلاق .

الخياران : اندماج إمبريالي أو انفصال ؟

منذ الحرب ، علاقة القادة الأوروبيين بالولايات المتحدة، متناقضة . تماما مثل علاقة قيادات واشنطون مع البناء الأوروبي، الأمريكان في حاجة إلى مصالحة فرنسية ألمانية ، من أجل انسجام حلف الأطلسي ، على مستوى القارة في مواجهة الروس . لكنهم لم يتوقعوا أبدا أن المصالحة ستقود إلى ولادة كيان استراتيجي منافس . انزلاقهم من التعاطف والتشجيع إلى الحذر والريبة ، ثم إلى الغضب ، وأخيرا المعارضة ، هو عملية مفهومة .

المسؤولون الأوروبيون ، بالنسبة لهم ، شعروا بالحاجة للحماية الأمريكية غداة ضربة براغ ، وتحول أوروبا الشرقية إلى السوفيتية مخاوف الحرب العالمية الثانية مرت ، الشيوعية سقطت، بدأ الشك يخامرهم ، والحنين إلى الاستقلال يراودهم ، بعد كل شيء ، من وجهة نظر كل طبقة قيادية أوروبية ، في القارة القديمة ، التاريخ الوطني ، لكل بلد أوروبي أضخم وأكثر ثراء وأهمية من تاريخ الولايات المتحدة ، التي عمرها ثلاثة قرون فقط . وصول الأوروبيين إلى مستوى الحياة في أمريكا ، لا يمكنه إلا إنعاش مشاعر الشك في شرعية قيادة الولايات المتحدة، ويعطي مصداقية لحركة الانعتاق ، كل هذا يصدق ، بدون أي تغيير على اليابان من الجانب الآخر في أوراسيا .

لكن قوى متناقضة تدفع إلى الاندماج التام في النظام الأمريكي ، ظهرت خلال العشرين سنة الأخيرة . الثورة الليبرالية – رد فعل ليبرالي متطرف وفق المصطلح اليساري – ظهرت في الفضاء الأوروبي كإغراء جديد ، العالم المتقدم رأينا

ذلـك ، تـتفاعل فـيه تـيارات اوليقادشـية صـاعدة ، القـوى الاجتماعـية الجديـدة ، هـذه ، في طـور ا لتكوين ، في حاجة إلى قـيادة . في نفـس الـوقت الذي فيه دورها العسكري بدأ يتوقف عـن كـونه ضـرورياً ، فـإن الولايات المتحدة صارت بطلا عالميا لـثورة اللامسـاواة ،ولـتحولات اوليقارشـية ، والـتي ندرك إنها مغـرية للطـبقات القـيادية في كـل مجتمعات العـالم ، ما تقترحه الـولايات المـتحدة ، منذئذ ، لم يعد حماية الديمقراطية الليبرالية ، وإنمـا نفـوذاً أكثـر وسـلطاناً أكبر لاولائك الذين هم الأكثر ثراء والاقوى سلطاناً .

القـادة الأوروبـيون لم يختاروا أحد الخيارين ، بين الاندماج والانعتاق ، لقد حرروا معاً الاقتصاد ووحدوا القارة ، واضعين الأمـريكان في موقـف أصيل في بداية القرن الواحد والعشرين : إنه عدم معرفة ما إذا كان أتباعم خونة أو رعايا مخلصين .

أوروبـا صارت ، هكذا ، كما يريد قادتها ، منطقة تبادل حر بـدون حمايـة جمـركية . إذا وضـعنا جانـبا بقايا السياسة الزراعية المشـتركة ، فان الاورو وجد ، وانهار أمام الدولار بمقدار 25 ٪ مـا بـين فـترة ولادته وفبراير عام 2002 . هذا أعاد إقامة حماية الاقتصـاد الأوروبي واقعياً مقابل الولايات المتحدة ، بان خفض كـل أسـعاره التصديرية ، ورفع من كل أسعار السلع الأمريكية المسـتوردة ، بنسـبة متكافئة . صراخ المسؤولين وصحفيي القارة القديمـة خـلال النصـف الأول مـن عـام 2000 ، ضـد قـرار الأوروبـيين لم يكونـوا مـدركين تماماً لنتائج أفعالهم ، لا يريدون رؤيـة الاورو يعمـل وحـده ضد الولايات المتحدة ، من خلال انخفاض قيمته في البداية ، كما من خلال ارتفاع قيمته في مرحلة

لاحقة . ذلك لانهم لم يختاروا حقاً بين الاندماج في النظام الأمريكي وبين الانعتاق .

خيار الاندماج الامبريالي ، يتضمن ، من وجهة نظر الطبقة القيادية ، الأوروبية ، ثورة عقلية مزدوجه : دفن الامة وزواج إمبريالي ، من ناحية التخلي عن الدفاع عن استقلال شعوبهم ، لكن في المقابل ، بالنسبة لهم اندماج كامل الحقوق في الطبقة القيادية الأمريكية . كان هذا دافع جزء كبير من النخبة الفرنسية والأوروبية في 11/9 عندما شعر الكل بأنه أمريكي . إنه وهم جان ماري ميسير .

سلب الاثرياء الأوروبيين المتكرر أكثر فأكثر ، من طرف وال ستريت ، فان الشركات والبنوك الأمريكية جعلت هذا الخيار أقل جاذبية ، وفوق كل شئ ظهر اليمين على المشهد السياسي الأمريكي ، وخوف حقيقي من أوروبا ، قاد إلى طرح السؤال : عما إذا كانت الولايات المتحدة في طريقها لحسم المسألة بنفسها ، بأن تجعل حلفاءها الأوروبيين يفهمون أنهم لن يكونوا في المستقبل أكثر من كونهم مواطني درجة ثانية . تصاعد النزعة الاختلافية الأمريكية لا يمس ، سلبياً ، السود والهزبانيك والعرب فقط ، بدرجة أقل سيمس الأوروبين واليابانيين .

خيار الانعتاق ينتج عن القوة الاقتصادية الموضوعية للقارة ، ومن الإقرار بقيم مشتركة ومتميزة عن القيم الأمريكية ، ويفترض أن أوروبا قادرة على كفالة الدفاع العسكري عن نفسها وحدها . هذا الخيار ممكن على المدى القصير ، أوروبا اكبر قوة صناعياً من الولايات المتحدة . يجب عليها مع ذلك . وهذا ما لم يصرح به أبداً ، الوصول إلى استقلالية استراتيجية

حقيقية بأن تزيد في قدرتها النووية الضاربة . مع ذلك توازن الرعب الذي لازال قائماً واقعياً ، بين الولايات المتحدة وروسيا، يعطيها متسعاً من الوقت لكي تنجز هذه الزيادة في وقتها ، إذا كانت ترغب في ذلك ، المشكلة العميقة الوحيدة ، التي تعرفها أوروبا ، هي عجزها السكاني ، وبالتالي ضعفها التوجهي ، ليس بالنسبة لروسيا وإنما بالنسبة للولايات المتحدة .

عرض خيارات يعنى الإيحاء بإمكانية الاختيار ، إنه تخيل طبقات قيادية تحولت إلى فعلة واعين ، يقررون ، وفق مصالحهم وذوقهم وقيمهم ، الاتجاه المطلوب اتباعه ، مثل هذه المعجزات وجدت في التاريخ ، مجلس الشيوخ في جمهورية روما ، قيادات الديمقراطية الاثينية في حقبة بركليس ، الكنفدسيون الفرنسي عام 1793 بالنخبة الإمبريالية الفكتورية زمن قلادستون ودزرائيلي ، الأرستقراطية البروسية تحت بسمارك نحن لا نعيش إحدى هذه الفترات العظيمة ، يمكن ، كحد أقصى ، أن نتحدث عن وعي من هذا النمط ، بالنسبة للطبقات العليا الأمريكية ، مع بعض التحفظات . لان الخيار الذي تتمسك به ، عندما يكون هناك اختيار ، هو دائماً الحل الأسهل ، والذي لا يمكن تأكيد أنه حقا اختيار . لكن في حالة الطبقات القيادية الأوروبية، والتي تحتفظ ببعض القدرة على اتخاذ قرارات صعبة وإرغامية ، فان التشتت الوطني يستبعد مقدماً كل وهم بالنسبة لوجود تفكير جماعي .

إنها عوامل ذات وزن ولا واعية ، والتي سوف تقرر المواقف كلاً بالنسبة للآخر ، أوروبا وأمريكا . قوة الأشياء ، كما يقال فيما مضى ، سوف تفصل أوروبا عن أمريكا .

- صدام حضارات بين أوروبا والولايات المتحدة .

قوى الانفصال ليست مع ذلك اقتصادية فقط ، البعد الثقافي يلعب دوره . ودون أن يكون بالامكان تمييز ما هو ثقافي وما هو اقتصادي في أوروبا تسيطر قيم غنوصية ، وسلام وتوازن ، الغريبة هذه الأيام على المجتمع الأمريكي .

هنا ربما أكبر أخطاء هانتينقتون ، عندما أراد حصر مجال الهيمنة الأمريكية فيما أسماه الغرب ، باحثا عن ثوب حضاري للعدوانية الأمريكية ، المستهدفة العالم الإسلامي والصين الكونفو شيوسية ، وروسيا الارثوذوكسية ، لكنه يسلم بوجود فضاء غربي ، والذي طبيعته غير يقينية حتى وفق السمات التي يحددها نفسه . هذا الغرب السوقي يدمج الكاثوليك والبروتستانت في نظام ثقافي وديني واحد. هذا الدمج يصدم كل من درس التعارض اللاهوتي والطقوسي ، أو ببساطة الصراعات الدامية بين المؤمنين من الديانتين ، في القرن 16-17.

تاركين جانبا عدم إخلاص هانينغتون للمتغير الذي يقول به ، أي الدين ، فإنه من السهل ، تقريبا ، الكشف عن تعارض كامن بين أوروبا وأمريكا ،انطلاقا من نفس السمات المستخدمة، هذه المرة بشكل صحيح . في الزمن الحاضر ،أمريكا غارقة في كلام ديني ، نصف سكانها يقولون إنهم يذهبون للصلاة نهاية الأسبوع ، لكن الربع فقط يفعلون هذا حقاً . أوروبا فضاء غنوصي ، حيث الممارسة الدينية تتجه إلى الصفر ، لكن الاتحاد الأوروبي يطبق أوامر الإنجيل أفضل : انك لا تقتل ابداً ، عقوبة الإعدام أُلغيت ، ومعدلات القتل

منخفضة فيها جداً . تقريبا 1 لكل مائة الف نسمة في السنة . بينما تنفيذ حكم الإعدام هو عمل روتيني في الولايات المتحدة، حيث معدلات القتل ، بعد انخفاض طفيف ، ظلت ما ين 6-7 لكل مائة الف نسمة . أمريكا تبهر من خلال اختلافها قدر أو اكثر من عالميتها . العنف فيها يبدو مهما في السينما ، لكن لا يمكن تحمله عندما يصدر في شكل إجراءات دبلوماسية أو عسكرية ، عالم الاختلافات الثقافية بين الاوروبيين والامريكان ، تقريبا لا متناهي . لكن عالم الانتروبولوجيا يجب عليه الإشارة إلى وضع المرأة الأمريكية ، ذات نزعة طائفية ، ومهددة ، تقلق الذكور الأوروبيين ، كما تقلق قوة الذكر العربي النساء الأوروبيات .

يجب ، فوق كل شئ ، التطرق إلى ما يوجد أكثر عمقاً وأكثر اتساعاً .في اختلاف التصورات الأمريكية والأوروبية عملية تكوين المجتمعات نفسها ، مستوى تحليل حيث لم يعد بالإمكان تمييز الأخلاق عن الاقتصاد ، والتي يمكن أن يطلق عليها تصور الحضارة .

المجتمعات الأوروبية ولدت عن عمل أجيال الفلاحين البؤساء ، عانت خلال عدة قرون من العادات الحربية لطبقاتها القيادية ، لم تكتشف إلا متأخراً الثروة والسلام . يمكن القول نفس الشيء بالنسبة لليابان ، وعن معظم بلدان العالم القديم ، كل هذه المجتمعات تحتفظ في شكل شفرة جينية ، بفهم غريزي لمفهوم التوازن الاقتصادي . وعلى مستوى الأخلاق العملية ، يجر فيها المزج بين مفهوم العمل والمكافأة ، وعلى المستوى المحاسبي مفهوم الإنتاج والاستهلاك .

المجتمع الأمريكي ، على العكس ، نتاج حديث لتجربة استعمارية ناجحة جداً ، لكن الزمن لم يمتحنها . لقد تطورت في ثلاثة قرون من خلال استيراد سكان محيت أميتهم مسبقاً ، إلى ارض ذات موارد منجميه هائلة ، ومنتجة جداً في المجال الزراعي لأنها بكر . أمريكا ربما لم تفهم أن نجاحها نتاج عملية استغلال وانفاق بدون مقابل لثروة لم تصنعها .

الإدراك الذي عند الأوروبيين واليابانيين ، أو أي شعب من أوراسيا ، لضرورة توازن بيئي – ايكولوجي – أو توازن الميزان التجاري ، هو نتاج تاريخ فلاحي طويل ، منذ العصر الوسيط . أوروبيون ، يابانيون ، صينيون ، هنود ، مثلا ، توجب عليه الكفاح ضد إنهاك الأرض ، وأن يدركوا من خلال الوقائع ندرة الموارد الطبيعية .

في الولايات المتحدة سكان تحرروا من الماضي ، اكتشفوا طبيعة في الظاهر لا تنضب . الاقتصاد ، فيها ، توقف عن كونه عالماً يدرس التخصيص الأمثل للموارد النادرة ، لكي يصير فيها ديناً دينامية لا تهتم بمفهوم التوازن . رفض الولايات المتحدة لاتفاقية كيوتو ، مثل عقيدة اوناي حول السمة المتساهلة مع العجز التجاري ، ينتج في جزء منه عن تقليد ثقافي . أمريكا تطورت دائما بان أنهكت أرضها ، وبذرت نفطها ، وبالبحث ، في الخارج ، عن العمال الذي تحتاجهم للعمل .

- **النموذج الاجتماعي الأمريكي يهدد أوروبا .**

المجتمعات الأوروبية متجذرة بقوة ، الحراك الجغرافي للسكان، فيها ، مرتين أقل مما هو في الولايات المتحدة ، بما في ذلك إنجلترا ، حيث نسبة السكان الذين يغيرون إقامتهم ، في السنة ، لم تكن عام 1981 إلا 9.6 ٪ ، مثل فرنسا 9.4 ٪ وفي اليابان 9.5 مقابل 17.5 ٪ في الولايات المتحدة.[1] عدم استقرار إقامة السكان الأمريكان ، اعتبر أحيانا ، دليل دينامية ، لكن لا إنتاجية الولايات المتحدة الصناعة حاليا ، تطرح شكوكا حول الفعالية الاقتصادية الباطنية لهذه الحركات المستمرة ، اليابانيون ، بعد كل شيء ، ينتجون مرتين أكثر من الولايات المتحدة ، ويتحركون مرتين أقل .

علاقة المواطن بالدولة ، كانت في أوروبا ، وتبقى ، في مستوى مادون الأيديولوجي للعقليات ، علاقة ثقة . مختلف المؤسسات التي تجسد هذه العلاقة ، لم تعبر أبداً على أنها عدوة ، على خلاف ما يمكن ملاحظته في الولايات المتحدة ، حيث الأيديولوجيا الليبرالية ليست إلا الجزء الظاهر والممكن تقديمة ، لعلاقة مع الدولة ، والتي في مستوى ما دون الأيديولوجي للعقليات ، يمكن اعتبارها عصابية **PARANOIAQUE** ، حتى في بريطانيا حيث الثورة الليبرالية كانت أكثر أهمية منها في فرنسا وفي ألمانيا وفي إيطاليا ، لا نلاحظ ، كما في الولايات المتحدة ، ميليشيات مسلحة لمقاومة المحاولات المفترضة من

1 - ل - لونق : اختلاف الحراك في البلدان المتطورة / مجلة العالم الدولي الاقليمي 1991 .

الدولـة المركـزية ، الفيدرالـية في المصطلح الأمريكي[1] ، الضمان الاجتماعـي هو في قلب توازن كل مجتمع أوروبي ، لهذا السبب تصـدير الـولايات المـتحدة لـنموذجها الخـاص عـن رأسمالـية مـنغلقة، يمثل تهديداً بالنسبة للمجتمعات الأوروبية كما بالنسبة للمجـتمع اليابانـي ، القريب جداً ، وفق هذه المعايير ، من أبناء عمومته البعيدين الأوروبيين .

خـلال سـنوات 90-2000 جـرى الـنقاش كـثيرا ، حـول تـنوعات الـرأسمالية وحـول وجـود نمـوذج رينانـي في ألمانـيا ، صـناعي يفضـل الانسجام الاجتماعي والاستقرار وتكوين اليد العاملـة ،والاسـتثمار الـتقني علـى مـدى طـويل ، يتعارض مع الـنموذج الليبرالـي الانجلوساكسـوني ، الـذي يشـجع الـربح ، وحركية العمل والرأسمال ، والمدى القصير ، اليابان ، بالتأكيد ، مـع بعـض الاخـتلافات ، قـريبة مـن ألمانـيا ، حـيث الـنموذج الاقتصـادي كما من حيث النمط الانتروبولوجي . العائلة جذر العزيز على قلب فريدريك لويلمي .

تضـاربت الآراء حـول ميـزات وعـيوب كـل مـن هـذين الـنموذجين ، معظم الدارسين كشفوا ، في سنوات 80-90 عن فعالـية أكـبر في النموذج الألماني ، أو الياباني ، في سنوات 90-2000 صـعود ظاهـري ، أيديولوجي أكثر منه صناعي ، للنمط الانجلوساكسوني .

مسـألة الميـزات والعـيوب الاقتصـادية صـارت ، بمعنى من المعانـي ، ثانـوية ، الـنظام الأمريكـي لم يعـد بإمكانـه ضـمان

1 - انسـتوني كينق : عدم الثقة في الحكومة تفسير الاستثناء الأمريكي . في الديمقراطيات الناقصة . سوسان ج فاد . روبير بوتنام . برينستون مطبعة الجامعة 2000 ص 74-98

إمدادات سكانه ، الأخطر من وجهة نظر أوروبية ، هو محاولات متواصلة لتكييف مجتمعات متجذرة بقوة ، وذات دول ، في العالم القديم ، مع هذا النموذج الليبرالي ، يقود إلى تفجيرها . منذئذ يمكن ملاحظة ظاهرة صعود منتظم لليمين المتطرف من خلال توالي الانتخابات . الدانمارك ، هولندا ، بلجيكا فرنسا ، سويسرا ،إيطاليا ، التي طالتها هذه الظاهرة . دائرة سوداء تحيط بألمانيا ، والتي تحولت ، بشكل غير متوقع ، إذا فكرنا في سنوات الثلاثين الى قطب مقاومة الفاشية . إنجلترا لم تطالها الظاهرة ، وهذا يمكن تفسيره ، باقتراب أولى ، بسبب قدرتها على التكيف مع النموذج الليبرالي المتطرف . لكنها قلقة ، وتبدي عاطفة متجددة من أجل تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، سواء فيما يتعلق بالتعليم ، بالصحة ، وإدارة السكك الحديد ، أما أسبانيا ، والبرتغال فإننا نعرف أنها تدين بحصانتها المؤقتة ، ضد اليمين المتطرف ، لتأخرها الاقتصادي النسبي .

في الوقت الحالي ألمانيا واليابان قاوما ، ليس لان هذين البلدين أكثر استعداداً للمرونة وللاضمان اجتماعي ، وإنما لإن اقتصادها ، القوي جداً ، وفر حماية ، الى وقت قريب ، لجماهير العمال والشعب . نستطيع أن نكون واثقين من أن انفلاتاً على الطريقة الأمريكية ، في هذين البلدين ، ذات الانسجام الاجتماعي القوي ، سوف ينتج عنه صعود اليمين المتطرف . هنا بالضبط التوازن الأيديولوجي والاستراتيجي ينزلق : نمط الرأسمالية الذي يتقمص النموذج الأمريكي يصير تهديداً للمجتمعات الأوروبية التي قاومته أفضل ، حينا مستفيدة من

التبادل الحر ، القوى الصناعية الكبرى وهي ألمانيا واليابان ، صارت حالياً تختنق بسبب عدم كفاية الطلب العالمي ، معدل البطالة يرتفع حتى في اليابان ، الطبقة العاملة لم يعد بإمكانها أن تكون محمية ضد ضغط العولمة . الهيمنة الأيديولوجية لليبرالية المتطرفة ، تقود إلى ظهور ، في داخل هذه المجتمعات نفسها ، إلى خطاب احتجاجي ، والذي فرضياً يدمر التوازن العقلي والسياسي .

الصحافة الأمريكية لا تتوقف عن المطالبة بإصلاح هذه النظم " غير الحديثة " " المغلقة " لكن عيبها في الحقيقة إنها منتجة أكثر في مراحل الكساد العالمي ، الاقتصاديات الصناعية الأكثر قوة ، تعاني دائماً أكثر من الاقتصاديات المتخلفة أو قليلة الإنتاج . أزمة 1929 أصابت قلب الاقتصاد الأمريكي بسبب قوة أمريكا الصناعية آنذاك . الولايات المتحدة ضعيفة الإنتاجية عام 2000 ، مسلحة جداً من أجل مواجهة عجز الطلب ، مقالات الصحف الاقتصادية الأمريكية ، التي تطالب بتحديث النظام الألماني والياباني ، مصبوغة بسخرية لإدارته ، لأننا يمكن أن نسأل جدياً ، كيف يعمل الاقتصاد العالمي إذا ألمانيا واليابان بدأتا في تحقيق عجز تجاري من النمط الأمريكي ؟ الضغط الأيديولوجي الأمريكي وهيمنة التصورات الليبرالية في تنظيم التبادل على مستوى عالمي ، صار مشكلة أساسية بالنسبة للحليفين الأكثر أهمية للولايات المتحدة ، بالنسبة لهذين الاقتصاديين الصناعيين ، الأكثر تصديراً ، استقرار النظام الأمريكي يقوم في البداية على هيمنة واشنطون على هاتين الدعامتين الأساسيتين ، وهما ألمانيا واليابان ، فتحاً في الحرب

العالمية الثانية ، ثم روضاً . أمريكا ، يجرها عجزها التجاري وفشلها ، وقلقها إلى لا تسامح جديد مع العالم ، في طريقها لان تخسرهما .

في أوروبا السلوك ا لجديد لألمانيا ، كقوة اقتصادية مهيمنة ، هو الظاهرة المهمة . الثورة الليبرالية الأمريكية ، تهدد الانسجام الاجتماعي الألماني أكثر مما يهدده النموذج الجمهوري الفرنسي، الأكثر ليبرالية في عاداته ، ويجمع بين فردية ودولة تمنح الأمان.

إذا فكرنا من خلال قيم اجتماعية ، فان الصراع بين فرنسا والولايات المتحدة هو نصف صراع ، بينما التعارض بين التصورات الأمريكية والألمانية هو مطلق . رحلة جورج بوش في أوروبا ، مايو 2002 ، عكست هذا التباين الفرنسي الألماني . المظاهرات ضد زيارته كانت اكثر أهمية فهماً وراء الراين منها في فرنسا . الفرنسيون مستغرقون في ذكريات الجنرال ديجول اعتقدوا أنفسهم ، حتى وقت قريب ، الوحيدين القادرين على الاستقلال ، يجدون صعوبة في تخيل ألمانيا تتمرد باسم قيمها الخاصة . لكن انعتاق أوروبا ، إذا تحقق ، بدين لحركة ألمانيا بقدر ما يدين لحركة فرنسا .

الأوروبيون واعون جداً بالمشاكل التي تطرحها عليهم أمريكا، والتي حجمها يحميهم ويضغط عليهم معاً منذ سنوات طويلة ، لكنهم أقل وعياً بالمشاكل التي يطرحونها على الولايات المتحدة . أحيانا البعض يسخر من أوروبا ، عملاق اقتصادي بدون وعي ولا فعل سياسي . هذا النقد له في الغالب ما يبرره ، لكنه مع ذلك ينسى أن القوة الاقتصادية توجد بذاتها ، وأن آليات الاندماج والتركيز التي تترتب عليها ، تنتج آليا آثارا

استراتيجية على المدى المتوسط أو الطويل . لهذا فان أمريكا تشعر بالتهديد حتى قبل إنجاز الاورو ، من خلال صعود قوة أوروبا الاقتصادية .

- القوة الاقتصادية الأوروبية :

التبادل الحر لا ينتج في الواقع العملي ، عالماً موحداً ، حتى لو أنه يحفز تبادل السلع بين القارات . العولمة عالمياً ليست إلا بعد ثانوي للعملية الحقيقية الاحصائية هي أولوية تعاظم التبادل بين بلدان الجوار ، وبناء مناطق اقتصادية مندمجة ، على مستوى قاري ، أوروبا ، أمريكا الشمالية والوسطى ، أمريكا الجنوبية ، الشرق الأقصى . قواعد اللعبة الليبرالية التي تحددت تحت قيادة أمريكية تدمر هكذا هيمنة الولايات المتحدة ، بان تؤسس كتل إقليمية مفصولة عن أمريكا الشمالية .

أوروبا تصير ، هكذا ، قوة مستقلة ذاتيا ، تقريبا ، رغما عنها ، من وجهة نظر أمريكية هناك ما هو أسوأ : لعبة القوى الاقتصادية تجعل أوروبا مجبرة أيضا على ضم فضاءات جديدة، على هامشها ، من خلال الانتشار والجوار . إنها تعبر عن قوتها ، تقريبا ، رغماً عنها ، وزنها الاقتصادي القوي يقودها الى محو السلطان السياسي والعسكري للولايات المتحدة ، تدريجيا ، وأن تحتوي ، من خلال كتلتها الفيزيقية الحقيقية ، القواعد الأمريكية ، عندما توجد مثلاً .

من وجهة نظر استراتيجية ، يمكن النظر الى العالم بطريقتين : الأولى عسكرية تفترض وجود الولايات المتحدة في العالم

القـديم، والثانـية اقتصـادية تجعـل واضـحاً السـمة الأكثـر أكثر هامشـية لوجـودها ، ليس فقط في أوروبا ، وإنما أيضا في مجموع أوراسيا .

في مـنظور عسكري ، سوف نعدد قواعد أمريكية جديدة في العـالم ، في أوروبـا ، الـيابان ، كـوريا أو غيرهـا . إذا كـان مـن السـهل الـتأثير علينـا فسـوف نعتقد أن 1500 جندي تائهين في اوزبكستان ، أو 12 الف محصورين في قاعدة باقرام بأفغانستان، يمـثلون شيئا مهما على المستوى الاستراتيجي ، شعوري الخاص أن هـاتين القاعـدتين همـا محطـات مصـرفية ، قليلة الإنتاجية ، يسـتخدمان في توزيـع بعـض الهـبات المالـية على قادة الطوائف المحلـية ، هـؤلاء يملكـون دائمـاً السلطان الحقيقي ، بمعنى سلطة عـدم تسـليم الإرهابـيين الـذين يـبحث عـنهم الأمـريكان ، أو يتظاهـرون بـذلك . هـذه الـتحويلات المالـية متواضعة ، ولكن كافـية ، تخلـف هـذه المناطق يسمح بدفع أجور خدمات المرتزقة المحليين بتكاليف متواضعة .

إذا تبنيـنا نظرة اقتصادية للمسائل الاستراتيجية ، وإذا عبرنا إلى جـزء العـالم الـذي يتطور حقاً ، هناك حيث الصناعة تولد ، والمجـتمع يسـتيقظ ويتدمقـرط ، علـى هامش أوروبا مثلا ، فان غياب أمريكا الاقتصادي والمادي يعد ظاهرة صارخة .

لنضـع أنفسـنا علـى هامش منطقة الاورد ، وننظر في ثلاث بلدان مهمة للولايات المتحدة ، على المستوى العسكري :

- تـركيا حلـيف أساسـي ، حلقـة وصل بين أوروبا ، روسيا والشرق الأوسط .

- بولـندا تستعجل الدخول إلى حلف الأطلسي ، لكي تنسى نهائـياً الهيمـنة الروسـية السـابقة حتـى علـى الدكـتاتورية الشيوعية .
- المملكة المتحدة حليف طبيعي للولايات المتحدة .

يمكـن بالطبع ، على طريقة الأطفال الكبار ، الذين هم ، في العمـق ، الاسـتراتيجيون العسـكريون ، أن نتصور هذه البلدان علـى أنهـا مواقـع قوية ومستقرة للأمريكان في لعبتهم من أجل السيطرة على العالم . في عالم رونالد رامسفيلد الطفولي ، مثلا ، القـوة الفيـزيقية وحـدها ذات اعتـبار ، لكـن إذا عـبرنا سـاحة الفسـحة العسكرية إلى عالم علاقات القوة الاقتصادية الحقيقية ، فإنـنا نميـز تـركيا بولـندا والمملكة المتحدة ، على أنها ثلاث دول صـارت تقع في مجال نفوذ منطقة اليورو . المملكة ا لمتحدة تتاجر مـن 3.5 إلى 12 مـرة مـع أوروبـا أكثر من الولايات المتحدة . تـركيا 4.5 مـرة أكثـر ، بولـندا 15 مـرة اكثـر ، في حالة صراع تجاري خطير بين أوروبا والولايات المتحدة ، فان بولندا لا تملك أي خيار ، أما تركيا فبعض الخيار ، أما بالنسبة للمملكة المتحدة فـإن كـل مـواجهة مـع أوروبـا القارة تتطلب جرعة من البطولة الاقتصادية ، وهي قادرة على هذا تماماً .

لوحة 12

التبادل التجاري لتركيا ، بولندا ، المملكة المتحدة (ملايين الدولارات)

سنة2000	تركيا		بولندا		المملكة المتحدة	
	استيراد	تصدير	استيراد	تصدير	استيراد	تصدير
الولايات المتحدة	7.2	11.3	4.4	3.1	13.4	15.8
أوروبا 12	40.8	43.4	52.3	60	46.6	53.5
روسيا	7.1	2.3	9.4	2.7	0.7	0.4
اليابان	3	0.4	2.2	0.2	4.7	2
الصين	2.5	0.3	2.8	0.3	2.2	0.8

المصـدر : منظمة التعاون والتطور الأوروبي إحصاءات شهرية للتجارة الدولية نوفمبر 2001

الوضـع لـيس جامـداً ، إذا أدخلنا معطيات تاريخية ، تتعلق بـالفترة 1995 – 2000 ، فإنـنا نـرى بولـندا في طـريقها لان تسـتوعبها مـنطقة الأورو ، تـركيا مثل معظم بلدان العالم تصدر أكثر بعض الشيء نحو الولايات المتحدة ، وتستورد أقل ، هنا كما في غـير ذلـك ، أمـريكا تجتهد أن تلعب دورها كمستهلك عالمي يـبلع كـل شـيء . المملكـة المـتحدة ، رغـم انتمائها الأولي لمنطقة التـبادل الأوروبـي ، اقتربت قليلاً من الولايات المتحدة ، خلال

الخمس سنوات الأخيرة ، المسار نحو الاورو ،سيئ الاعداد . والانكماشي كان له من هذه الزاوية آثار طاردة أكثر منها جاذبة .

دراسة هذه الأرقام تجعل واضحة قوة العامل الترابي – الجغرافي . أي الجوار ، في تطور التبادل التجاري . العولمة توجد على مستويين ، أحدهما عالمي ، والآخر إقليمي . لكنها ، قبل كل شيء ، وكما يخشاه المحللون الاستراتيجيون الامريكان ، إقليمية ، على مستوى قارة أو فرع قارة .

بالقدر الذي فيه العولمة حقا عالمية ، فانها تجعل الولايات المتحدة تبدو على أنها مستهلك السلع والمالية أكثر من كونها مساهماً ايجابياً ، المنطق الرياضي المحض يشير إلى أنه من خلال تفاعلات الجوار الجغرافي ، فإن العولمة ، في آثارها الأكثر عمقاً تنقل إلى أوراسيا مركز الجذب الاقتصادي للعالم ، وأنها تتوجه الى عزل أمريكا .

لعبة هذه القوة ، التي تجد تشجيعاً ، في البداية ، من أمريكا نفسها ، تكون في صالح ظهور أوروبا قوية وموحدة ، وذات هيمنة ، بسبب أنها منطقة استراتيجيا أفضل وضعية من تلك التي تكون الولايات المتحدة مركزها ، تطور أوروبا الشرقية وروسيا والبلدان الإسلامية ، مثل إيران وتركيا ، وافتراضاً مجموع بلدان حوض البحر المتوسط ، يبدو أنه يجعل من أوروبا قطباً طبيعياً للنمو وللقوة . قربها من الخليج الفارسي- العربي – يبدو بدون شك بالنسبة للمفكرين السياسيين الأمريكان ، على أنه التهديد الأكبر مأساوية لوضع الولايات المتحدة في العالم .

تقنية سيناريو الأزمات تسمح أفضل بتصور تفاعلات علاقات القوة الاقتصادية والعسكرية . ماذا يحدث لو أن أوروبا، قوة اقتصادية مهيمنة ، بالنسبة لتركيا ، ضغط على تركيا لكي لا تسمح للجيش الأمريكي باستخدام قاعدة انجيرليك في إطار عدوان على العراق .. اليوم .. غدا .. بعد غد ؟ انحياز تركيا لأوروبا يقود بالنسبة لأمريكا ، الى انهيار مأساوي لقوتها العسكرية في الشرق الأوسط ، الأوروبيون حاليا لا يتصورون مثل هذا السيناريو ، بينما الأمريكان يتخيلونه .

- السلام مع روسيا والعالم الإسلامي :

عل خلاف الولايات المتحدة ، أوروبا ليس لها مشكلات خاصة مع العالم الخارجي ، إنها في تفاعل تجاري اعتيادي مع بقية الكوكب ، تشتري المواد الأولية والطاقة لتي تحتاجها ، وتسدد مقابل وارداتها من الدخل المتحقق من صادراتها . مصلحتها الإستراتيجية ، على المدى الطويل هي إذن السلام ، لكن السياسة الخارجية للولايات المتحدة ، تصير أكثر أكثر مبنية على صراعين أساسيين مع خصمين هما الجارين المباشرين لأوروبا ، أحدهما روسيا ، وهي عقبة أساسية في طريق الهيمنة الأمريكية ، لكنها أقوى من أن تهزم ، الآخر هو العالم الإسلامي ، وهو خصم مسرحي يستخدم في الإخراج المسرحي للقوة العسكرية الأمريكية ، أوروبا من مصلحتها السلام ، خاصة مع هذين الجارين الرئيسين ، أهدافها الاستراتيجية ، ذات الأولوية ، هي منذئذ في تعارض جذري مع الاختيار الأمريكي.

بالقدر الذي فيه بلدان الخليج ملزمة ببيع نفطها ، لان شعوبها تزداد عدداً ، فان أوروبا لا تخشى أي مقاطعة ، في المقابل لا يمكن القبول باللا نظام الذي تسببه الولايات المتحدة وإسرائيل في العالم العربي ، إلى مالا نهاية الواقع الاقتصادي يفترض أن هذا الجزء من العالم ، يجب أن يدخل في فضاء تعاوني يتمحور حول أوروبا ، ويستبعد ، بشكل واسع . الولايات المتحدة تركيا وإيران. لكن لا يجب إساءة التقدير ، هنا تكمن كل عناصر خصومة حقيقية ، على المدى المتوسط ، بين أوروبا والولايات المتحدة .

مع روسيا ، التي كل شئ يبرهن ، على انها صارت طرفا عاقلا ، ضعيفاً جداً اقتصاديا وعسكريا . لكن مصدر كبير للنفط والغاز الطبيعي ، فان أوروبا لا تستطيع إلا مضاعفة مجالات التفاهم . العجز الاستراتيجي للولايات المتحدة في مواجهة روسيا يخفف من التناقض ، أمريكا دائما مرغمة ، بعد أعمال عدوانية ، على أن تقدم مبادرات ودية نحو روسيا هذه المبادرات يفرضها الخوف من رؤية الأوروبيين والروس يستبعدونها نهائياً من المفاوضات المستقلة .

من ناحية الإسلام ، الإزعاج الأمريكي يستمر في التفاقم ، ويصير يمينياً جداً ، العالم الإسلامي يقدم لأوروبا جزءاً مهما من المهاجرين إليها ، باكستان في إنجلترا ، مغاربة في فرنسا ، أتراك في ألمانيا ، أطفال هؤلاء المهاجرين يصيرون مواطنين في البلدان المستقبلة لهم ، بما في ذلك في ألمانيا حيث تم تبني " حق الأرض " والذي يجعلها تقترب من فرنسا . أوروبا عليها بناء علاقات سلام وتفاهم . ليس فقط لأسباب الجوار الجغرافي ، ولكن

أيضـا مـن أجـل ضـمان سـلامها الداخلي . هنا تبدو الولايات المـتحدة مصدر فوضى داخلية بقدر ما هي دولية . مع هجمات شـباب المقاومـة ، الـذين يعيشـون اوضـاعاً سيئة ، على المعابد اليهودية ، خلال الفصل الأول من عام 2002 ، فان فرنسا أول مـن حـارب زعـزعة الاسـتقرار الـناتجة عن السياسة الأمريكية الإسـرائيلية حتـى لـو ان الأسباب العميقة لهذا التمرد تأتي من البنـية القائمة ، أكثر فأكثر ، على اللامساواة في المجتمع الفرنسي نفسه . نحن لا نرى أن ألمانيا مع الأتراك وإنجلترا مع الباكستانيين سـيكونان بمنجـى عن الأعمال المزعزعة للاستقرار التي تقوم به الولايات المتحدة في السنوات القادمة .

- الزوج الفرنسي الألماني .. وعشيقته الإنجليزية :

الحـديث عـن أوروبـا ، قـوتها ، خصـومتها المتـزايدة مـع الـولايات المـتحدة ، يعنى استخدام تصور لم يتحدد معناه بعد : أهـو منطقة اقتصادية .. فضاء حضارة أمم .. ؟ باختصار ، لكي نبقـى في عـدم تحديـد مطلق ، هو كيان في حالة حركة ، في هذه الأيـام الانـدماج الاقتصادي يتواصل ، والكيان يجذب ، بفضل كتلـته ، ونجاحـه أعضـاء جـدد ، في أوروبـا الشرقية . ويبدو أنه رغـم كـل الصعوبات ، يتوجه نحو استيعاب تركيا . لكن عملية التوسـع الاقتصـادي التلقائـية هـذه ، لها ، كأثـر سياسي أولي تفكـيك الـنظام.التوسـع الاقتصـادي يضع النظام المؤسساتي في حالـة عجـز ، اسـتمرار وجود الأمم ، متجسداً في اللغات ، في الـنظم السياسـية ، وفي العقلـيات ، يجعـل صعباً إقامة اجراءات اتخاذ القرارات المقبولة من الأعضاء .

من وجهة نظر استراتيجية عالمية ، مثل هذا التطور ، يمكن أن يظهر على أنه تدعيم عملية تفكيك الاندماج ، وربما يجعل ممكناً ظهور عملية مبسطة لقيادة ثلاثية للقيادة . المملكة المتحدة، تمثل في الواقع ، مع ألمانيا وفرنسا الثلاثي القائد . تقارب فرنسي ألماني ، بعد بضع سنوات سوء التفاهم ، صار واقعاً ، أما دور المملكة المتحدة فسيكون جديداً بإطلاق ، لكن يجب النظر إليه على أنه إمكانية . لا يجب الوقوع في نفس خطأ بريزنسكي ، عندما أكد لنا أن المملكة المتحدة ، بالاختلاف عن فرنسا وألمانيا، ليست لاعباً جيوستراتيجياً ، وأن سياستها لا تستدعي اهتماماً دائماً . دور التعاون الفرنسي البريطاني في إعداد سياسة عسكرية أوروبية ، يجعلنا نصف ما ذهب اليه بريزنسكي على إنه تعيس .

ما بين 1990 – 2001 العلاقات الفرنسية الألمانية لم تكن جيدة ، توحيد ألمانيا زعزع أوروبا ، عندما صنع ألمانيا الثمانين مليون نسمه مقابل فرنسا الستين مليون ، الوحدة النقدية – وحدة العملة – التي كانت مثل خطوة متفائلة إلى الأمام ، صممت لكي تكبح ألمانيا . من أجل طمأنة ألمانيا قبل الأوروبيون معايير إدارية ذات حزم مبالغ فيه ، وسنوات من الركود ، ألمانيا من جانبها ، سكرى بنشوة وحدتها المستعادة ، لم تلعب دوراً مهدئاً خلال الحقبة ، خاصة خلال حقبة تفكك يوغسلافيا . هذه الحقبة انتهت ، أولا لأن ألمانيا تتطور نحو المزيد من المرونة ومن رغد العيش ، ولأنها ، ثانيا ، تقترب من فرنسا على مستوى العقليات .

لكـن لنـرجع إلى مجـال السياسـة الواقعـية لعلاقات القوة ، أزمتها الديمقرافية، تقود حتماً إلى المستوى العام للأمم الأوروبية الكـبرى ، عـدد الـولادات ، في ألمانـيا اليوم أقل مما هو عليه في فرنسـا ، افتراضياً البلدان – ألمانيا – فرنسا – سيكون لهما نفس الحجـم . النخبـة الألمـان يعون هذه العودة الى الحجم المتوسط ، حمى الوحدة مرت ، القادة الألمان يعرفون أن بلادهم لن تكون القوة الكبرى في قلب أوروبا ، الصعوبات العينية إعادة البناء في ألمانيا الشرقية، ساهمت في العودة الى مبدأ الواقعية .

فرنسـا ، مـن جهتها ، منذ أن لم تعد مشلولة بسبب الفرنك القـوي ، مـنذ تحريـرها اقتصـاديا بواسـطة اورو ضـعيف ، استعادت، بفضـل وضـعها الديمقـرافي الجـيد ، شكلا معيناً من الدينامية ومن الثقة في النفس ، هكذا كل الشروط اجتمعت من اجل انطلاق تعاون فرنسي ألماني في مناخ ثقة حقيقي .

لكـن مـرة أخرى يتوجب علينا ملاحظة أولوية بعض قوى الأشـياء ، إعـادة الـتوازن الديمقـرافي لم تتقـرر بعـد ، إنها تجري بواسطة تطور المجتمعات ، وتطرح على القادة على أنها معطاة . إعـادة التوازن السكاني الفرنسي الألماني ليست إلا أحد سمات استقرار ديمقـرافي عالمي . في الشرق التراجع الديمقرافي الروسي يخفـف اليا من القلق الألماني أو الأوروبي القديم ، من الإغراق من طرف أمة – قارة في توسع ديمقرافي .

الانهـيار الديمقـرافي الروسـي ، الركود الألماني ، والتماسك السكاني الفرنسي ، يعيد توازن مجموع أوروبا ، بالمعنى الواسع، وفـق عملـية عكسـية ، عكـس تلك التي زعزعت استقرارها في بدايـة القـرن العشـرين . آنـذاك الركود السكاني في فرنسا ، مع

التوسع السكاني الألماني ، جعل من فرنسا أمة خائفة . في الشرق التوسع السريع جداً لروسيا أدى الى خوف شديد جدا في ألمانيا،

الخصوبة منذئذ منخفضة في كل مكان ، هذا الانخفاض يطرح مشكلات خاصة ، لكن له على الأقل ميزة تهدئة هذا الجزء من العالم بطريقة تقريبا آلية . اذاً الخصوبة المنخفضة جداً استمرت وقتاً طويلاً ، فإننا سنشاهد ، في أوروبا أزمة ديمقرافية حقيقية ، وتهديداً لازدهار القارة . في المرحلة الأولى ، انهيار الضغط الديمقرافي ، سهل دون الانتباه لذلك ، عملية دمج الاقتصاديات الوطنية الأوروبية من خلال التبادل الحر ، وأزال من وعي الفعلة ، الخوف من اختلال التوازن ، ومن العدوان .

كل فرضيات حول السلوك المستقبلي للمملكة المتحدة ، لا يمكن أن تكون إلا اجتماعية ، الانتماء الى فضائيين معاً ، أحدهما أنجلو ساكسوني والآخر أوروبي ، هو بالنسبة لها واقعة طبيعية .

الثورة الليبرالية مست انجلترا بعنف أكبر من كل الشعوب الأوروبية ، حتى لو أن البريطانيين ، اليوم ، لا يحلمون إلا بإعادة تأميم السكك الحديدية ، وأن يدعموا ، من خلال الخزانة، نظامهم الصحي . الروابط بين إنجلترا والولايات المتحدة تذهب أبعد من هذا البعد الاجتماعي الاقتصادي الضيق ، إنها روابط اللغة ، والفردية ، وحس فطري بالحرية السياسية ، كل هذا يكون واضحاً ، لكن يمكنه أن يجعلنا لا ننتبه لبديهية أخرى . الإنجليز يرون أفضل من كل الأوروبي ليس فقط تطور أمريكا وإنما أيضا عيوبها . إذا أمريكا صارت في

وضع سيئ فانهم أول من يعي هذا . إنهم أول الحلفاء المفضلين من أمريكا . لكنهم الأكثر تعرضا من الجميع للضغوط الأيديولوجية والثقافية القادمة من الجانب الآخر من الأطلسي ، لأنهم على خلاف الألمان والفرنسيين ، أو غيرهم ، لا تتوفر لهم أي حماية طبيعية من خلال اللغة . هذه هي المعضلة البريطانية : إنها ليست فقط ممزقة بين أوروبا والولايات المتحدة ، وإنما أيضاً علاقتها مع أمريكا إشكالية بشكل خاص .

ما هو مؤكد هو أن الاختيار البريطاني الواقعي ، بالدخول أو رفض الدخول في الأورو ، سيكون حاسماً ، ليس فقط بالنسبة لأوروبا ، وإنما أيضا بالنسبة للولايات المتحدة ، اندماج لندن المالي والمصرفي في منطقة الأورو ، ولندن قطب مالي رئيسي في العالم القديم ، سيكون ضربة قاصمة بالنسبة لنيويورك ولأمريكا ، آخذاً في الاعتبار اعتماد أمريكا على التدفق المالي العالمي إليها ، في الظرف الحالي من الخلل الإنتاجي في الاقتصاد الأمريكي ، دخول مدينة لندن في النظام الأوروبي المركزي ، يمكنه إحداث خلخلة في توازن العالم ، سيكون هزلياً كفاية أن نرى بريطانيا ، التي تجاهلها بريزنسكي ، من خلال اختيارها أوروبا ، تنهي بضربة قاسمة الهيمنة الأمريكية .

نهاية الجولة

في خضم معاناة مرحلة انتقال ، تعليمية ، ديمقرافية ، في طريقها للانتهاء ، يتجه الكوكب نحو الاستقرار ، العالم الثالث ، من خلال اندفاعاته المحمومة الأيديولوجية والدينية ، يسير نحو التطور ونحو ديمقراطية أكثر ، وليس هناك تهديد كلي يتطلب نشاطاً خاصاً من الولايات المتحدة من أجل حماية الحريات . تهديد وحيد باختلال توازن كلي يواجه الكوكب اليوم : إنه أمريكا نفسها ، والتي من حامية تصير مهابة ومثيرة للاضطراب في الوقت نفسه ، فائدتها لسياسية والعسكرية تتوقف عن كونها بديهية ، إنها تدرك عدم امكانتها الاستغناء عن السلع المنتجة في الكوكب ، لكن العالم واسع جدا ، كثير السكان ، كثير التنوع ، تتفاعل فيه قوى لا يمكن السيطرة عليها ، أي إستراتيجية ، مهما كانت ذكية ، لا يمكنها أن تتيح لأمريكا تحويل وضعها النصف إمبريالي ، الى إمبراطورية في الواقع والقانون . انها ضعيفة جداً اقتصاديا وعسكريا وأيديولوجيا ، لهذا فان أي حركة تستهدف منها إعادة تأكيد سيطرتها على العالم ، سوف ترتب ردود فعل سلبية ، والتي تضعف اكثر وضعها الاستراتيجي .

ماذا حدث خلال العشر سنوات الأخيرة ؟ .

إمبراطوريتان حقيقيتان كانتا وجهاً لوجه . احدهما انهار ، الإمبراطورية السوفيتية . الأخرى الأمريكية ، كانت أيضا قد دخلت مرحلة التفسخ ، السقوط العنيف للشيوعية ، مع ذلك ولد وهم صعود مطلق للولايات المتحدة . بعد الانهيار السوفيتي ثم الروسي ، اعتقدت أمريكا انها تستطيع توسيع

هيمنتها على مجموع الكوكب ، بينما هيمنتها على مجموع، بينما هيمنتها على فضائها الخاص كانت في طريقها الى الضعف.

من أجل توسيع هيمنة عالمية مستقرة ، شرطان كانا ضروريين في مجال علاقات القوة الحقيقية .

أولا الحفاظ على السيطرة على المحميات الأوروبية واليابانية، والتي تمثل منذئذ ، أقطاب قوة اقتصادية حقيقية . الاقتصاد الحقيقي يعرف من خلال الإنتاج أكثر منه بالاستهلاك .

ثانياً : هزيمة القوة الاستراتيجية الروسية نهائيا. انجاز تفكيك تام للفضاء السوفيتي السابق ، واختفاء توازن الرعب تماماً . مما يجعل الولايات المتحدة وحدها قادرة على ضرب ، بطريقة وحيدة الطرف ، وبدون خطر الانتقام أي بلد من بلدان العالم .

لكن لا هذا الهدف ولاذاك تحقق ، مسيرة أوروبا نحو الوحدة والاستقلال الذاتي لم يكن من الممكن إيقافها ، اليابان ، بدون إعلان ، تحتفظ بقدرتها على العمل وحيدة إذا رغبت يوما في ذلك أما بالنسبة لروسيا فإنها تستقر ، وتواجه المسرحية الليبرالية الجديدة للولايات المتحدة ، لقد بدأت تحديث جهازها العسكري ، وبدأت تلعب الشطرنج بفعالية وبمهارة ، على المستوى الدبلوماسي .

غير قادرة على السيطرة على القوى الحقيقية في زمنها ، أي ضبط اليابان وأوروبا في المجال الصناعي ، تحطيم روسيا في المجال النووي العسكري ، فإن امريكا ، اضطرت ، من أجل الاخراج المسرحي لإمبراطورية وهمية ، أن تختار ممارسة العمل العسكري والدبلوماسي في عالم غير الأقوياء : محور الشر ، والعالم العربي ،

فضاءان رابطهما العراق . العمل العسكري ، من حيث مستوى كثافته ومخاطره ، يقع منذئذ بين الحرب الحقيقية ولعبة الفيديو ، يجرى قصف جيوش غير ذات أهمية بالقنابل ، ويزعم تصميم وإنتاج أسلحة أكثر فأكثر تعقيداً وتقدماً . وبالطبع ذات دقة تناظر العاب الفيديو ، لكن في الواقع العملي ، يُضرب سكان مدنيون بدون سلاح بقنابل ثقيلة جديرة بالحرب العالمية الثانية . مستوى الخطر بالنسبة لجيش الولايات المتحدة هو تقريبا صفر ، لكنه ليس كذلك بالنسبة للسكان المدنيين الأمريكان . لان الهيمنة تقود الى ردود فعل إرهابية تأتي من المناطق الخاضعة للهيمنة ، ومنها الأكثر نجاحاً كان عملية 11/ 9/ 2001 هذه العسكرية الاستعراضية ، التي يفترض أنها تبرهن على عدم القدرة التقنية العسكرية لكل الفعلة الآخرين في العالم ، انتهت بان أقلقت القوة الحقيقية ، وهي أوروبا واليابان وروسيا ، ودفعتهم منذئذ الى التقارب ، هنا اللعبة الأمريكية تتكشف غير بناءة ، قادة الولايات المتحدة اعتقدوا ان ما يخاطرون به ، كان في الحد الأقصى ، تقارب بين روسيا ، قوة كبرى ، والصين وإيران ، قوى متوسطة . والذي يكون نتاجه الاحتفاظ بسيطرتهم على المحميات الأوروبية واليابانية . لكن ما يخاطرون به حقيقة ، إذا لم يهدّئوا اللعبة، هو تقارب بين قوة نووية كبرى، روسيا، وقوتين صناعيتين مهمتين، هما أوروبا واليابان.

أوروبا بدأت تعي ببطء أن روسيا لم تعد تمثل تهديداً استراتيجيا ، وإنما صارت مساهمة في أمنها العسكري . من يستطيع التأكيد ، بنية طيبة ، أن الولايات المتحدة ، في غياب مقابل استراتيجي ، روسي ، كانت ستسمح للأوروبيين بإطلاق

الأورو ، وهو تهديد هائل ، على المستوى المتوسط ، لإمداداتها المالية ؟ . لهذا السبب توسع حلف الأطلسي نحو الشرق يفقد معناه أو يغير من معناه ، في الأصل اندماج الديمقراطيات الشعبية السابقة ، في حلف الأطلسي . لا يمكن أن يفسر إلا على انه حركة عدوانية ضد روسيا ، وهو أمر غريب في محتوى انهيار سلمي للاتحاد السوفيتي . آنذاك جرى الحديث عن مشاركة رمزية روسية في الحلف ، هذه اليوم تحققت في النصوص ، مشيرة إلى عملية حصار عن قرب . لكن دمج روسيا في المجال الاستشاري ، ولم لا في قرارات الحلف بدا للأوروبيين ، شيئاً فشيئاً فكرة جذابة حقاً ، بالقدر الذي فيه الاندماج في الحلف يقود الى منح وضع قانوني لوجود مقابل استراتيجي للولايات المتحدة ، وهو روسيا . فإننا نفهم لماذا الأمريكان يفقدون شيئاً فشيئاً اهتمامهم بالحلف ، ويرغبون ، أكثر فأكثر العمل وحدهم في مجال المسرحية العسكرية .

السيطرة على حقول نفط الخليج العربي ، الفارسي ، أو في أسيا الوسطى يبدو هدفاً عقلانيا للعمل الأمريكي في فضاء البلدان الضعيفة ، لكنه ليس عقلانيا إلا في الظاهر ، لان تبعية أمريكا منذئذ عالمية ، وليس فقط نفطية . لكن هنا بالضبط ، عمل الولايات المتحدة ينتج ردود فعل سلبية ، أكثر إثارة للدهشة . القلق والاضطرابات التي يثيرها الأمريكان في الخليج، إرادتهم ، المعلنة ، السيطرة على موارد النفط بالنسبة للأوروبيين واليابانيين ، لا يمكن إلا أن تقود المحميات الى إعادة النظر ، أكثر فأكثر، واعتبار روسيا ، وقد صارت ثاني منتج للنفط عالميا ، والتي تبقي أول منتج للغاز الطبيعي، على أنها طرف ضروري.

روسيا بالنسبة لها تجد نفسها مستفيدة من مساندة واقعية وعالم أسعار النفط والتي تختل في فترات منتظمة بسبب الحمى الأمريكية في الشرق الأوسط . هدية قيمة لا يمكنها إلا ان تهنئ نفسها عليها.الاضطراب ، وعدم اليقين المترتب عن الدبلوماسية الأمريكية لا يمكن أن يقود إلا الى زيادة مداخيل روسيا من العملات الناتجة عن تصدير نفطها .

مشاورات أكثر منهجية ، بين الأوروبيين واليابانيين ، الذين يتكبدون آثار السيطرة الأمريكية على إمداداتهم من الطاقة ، بدت أكثر فأكثر أمراً لا يمكن تفاديه . التشابه بين الاقتصاديات الأوروبية واليابانية ، دائما صناعية ، لا يمكنه إلا أن يقود إلى تقارب ، هذا ما تكشف عنه ، بشكل خاص حركة الاستثمارات اليابانية المباشرة ، في الخارج ، حديثا – شراء أو تأسيس شركات – عام 93 استثمرت اليابان مبلغ 17500 مليار ين في أمريكا . ولكن من 92 مليار ين في أوروبا . عام 2000 النسب انعكست ، 27000 مليار في أوروبا ، وفقط 13500 مليار ين في أمريكا الشمالية .

بالنسبة لمن يهتم بالنماذج النظرية ، العمل الأمريكي فرصة رائعة لدراسة حتمية ردود أفعال سلبية ، عندما يضع فاعل استراتيجي لنفسه هدفاً ليس في مقدوره. كل خطوة أمريكية تهدف الى ضمان السيطرة على الكوكب ، تقود إلى مشاكل جديدة .

اللعبة بطيئة لان كل قوة من القوى ، وليس أمريكا فقط ، لها عيوب أساسية ، أوروبا هشة بسبب عدم وحدتها ، وبسبب أزمتها الديمقرافية ، روسيا بسبب ضعفها الاقتصادي

والديمقـرافي، اليابان بسبب عزلتها ووضعها الديمقرافي . لهذا فان الجولة لن تنته بانتصار قوة واحدة ، كل منها سيكون عاجزاً عن السيطرة وحـده . معـاً أوروبـا وروسيا واليابان ، تمثل أكثر من مـرتين ونصـف القـوة الأمـريكية . النشـاط الغـريب للولايات المتحدة ، في العـالم الإسلامي ، يدفع بدون توقف قوى الشمال الثلاث الى التقارب على المدى الطويل . العالم الذي سوف ينشأ لـن يكـون إمـبراطورية ، تحت سيطرة قوة واحدة . الأمر يتعلق بـنظام معقـد فـيه تـتوازن مجمـوعة أمـم أو مـا وراء أمم ، ذات أحجـام متكافـئة ، حتـى وإن لم تكـن متسـاوية بمعنـى الكلمة ، بعـض الكيانات ، مثل القطب الروسي ، تحتفظ في مركزها بأمة واحـدة ، وهكـذا الحال بالنسبة لليابان ، صغيرة على الخارطة ، لكـن إنـتاجها الصـناعي يسـاوي إنـتاج الـولايات المـتحدة ، وتستطيع الـيابان ، إن أرادت ، في خمـس عشـرة سـنة بـناء قوة عسـكرية ذات تقنـية معادلـة أو أعلـى مـن الـولايات المتحدة . وعلـى مـدى طـويل جـداً سـوف تلحق الصين بهذه المجموعة . أوروبا مجموعة أمم ، في قلبها زوج قيادي ، ألماني فرنسي ، لكن قـوتها الحقيقـية تـتوقف على مشاركة بريطانية ، أمريكا الجنوبية يبدو أنها سوف تنتظم تحت قيادة برازيلية .

- ديمقراطيات وأوليقارشيات :

العالم الناتج عن انهيار الإمبراطورية السوفيتية ، وعن تفسخ الـنظام الأمريكـي ، لـن يكـون نمطـيا ديمقراطيا وليبراليا حسب حلـم فوكـوياما ، لكـنه لـن يسـتطيع ، بـأي شكل ، العودة إلى توتاليـتارية على النمط النازي أو الفاشي ، او الشيوعي . حركة

مـزدوجة تكفـل مواصـلة سير التاريخ الإنساني . العالم في طور الـتطور يـتوجه نحـو الديمقراطي ، مدفوعاً ، في هذا الاتجاه ، من خـلال محو أمية الجماهير ، والتي تنتج مجتمعات ثقافية متجانسة، أما عالم الثلاثي المتطور ، بدرجات مختلفة ، يعيش فيه توجها نحو الاوليقارشـية . ظاهـرة تـولدت عـن ظهـور تصـنيفات تعليمية جديـدة ، والـتي تقسـم المجـتمع إلى " أعلـى " وإلى " أدنـى " وتنوعات مختلفه من " الوسط " .

مـع ذلـك لا يجـب المـبالغة في الأثر المضاد للديمقراطية لهذا التصـنيف التعليمـي اللا متساوي ، البلدان المتطورة تبقى بدون أمـية ، وتبقـى مجـبرة علـى إدارة التـناقض الموجود بين محو أمية الجمـاهير ذات الـتوجه الديمقراطـي وتصنيف جامعي ذي توجه أوليقارش .

إقامـة نظـام حمايـة جديـدة ، على أساس أقاليم كبرى أو ما وراء الأمم ، المحدد أعلاه ، يشجع التوجه الديمقراطي ، ولصالح العمـال والمهندسـين في مجال النشاط الاقتصادي وتوزيع الدخل الوطني أو ما وراء الوطني .

التـبادل الحـر المطلـق ، الـذي يـزيد في حـدة الحـركة نحـو اللامسـاواة الدخـول ، يجـر ، إلى العكـس ، إلى انتصـار مـبدأ أولـيقارش . السـيطرة الأمـريكية علـى النظام تولد ظاهرة رأينا ظهـورها مـا بـين عـام 95 – 2000 ، أي بعـد تحـول الشعب الأمريكـي إلى شـعب إمبريالـي يـتغذى على صناعة العالم كله ، لكـن كمـا حاولـت شـرحه ، الوصـول إلى اكـتمال العملـية الإمبريالية ليس أمراً محتملاً .

- الفهم قبل الفعل :

ماذا نستطيع أن نعمل ، على مستوى المواطن ، كما على مستوى رجل الدولة ، إذا كنا ، لهذه الدرجة ، مجرورين بقوى اقتصادية اجتماعية وتاريخية تتجاوزنا ؟

أولا أن نتعلم رؤية العالم كما هو ، ونتخلص من سيطرة الأيديولوجيا ووهم اللحظة والإنذار الوهمي الدائم ، كما يقول نيتشه ، الذي تشيعه وسائل الإعلام . وأن ندرك علاقات القوة الحقيقية . هذا كثير . على كل حال نمنح أنفسنا إمكانية عدم الفعل ضد الاتجاه . أمريكا ليست قوة مفرطة ، إنها في المرحلة الحالية لن تستطيع أكثر من إخافة الأمم الضعيفة ، أما فيما يتعلق بمواجهة شاملة حقاً ، فإنها هي التي تحت رحمة تفاهم أوروبي ، روسي ، ياباني . هؤلاء يملكون الإمكانية النظرية لخنقها . أمريكا لا تستطيع الحياة معتمدة على نشاطها الاقتصادي وحده ، إنها في حاجة إلى إعانات للحفاظ على مستوى الاستهلاك لديها ، في الدرجة وفي النسق الحالي ، فأنها تحتاج إلى 1.2 مليار دولار يوميا ، إذن أمريكا هي التي يجب أن تخشى الحصار إذا صارت مقلقة أكثر .

بعض الاستراتيجيين يعرفون هذا ، لكني أخشى أن الأوروبيين ليسوا دائما واعين بالعنف الاستراتيجي لبعض قراراتهم ، الأورو خاصة ولد في الصراع وفي عدم اليقين ، سيكون في المستقبل ، إذا نجح في البقاء ، تهديداً دائماً للنظام الأمريكي . لقد خلق فعليا جماعة اقتصادية ذات حجم مساوي أو أكثر من حجم الولايات المتحدة . قادراً على فعل نمطي في

اتجـاه واحـد ، وبقوة كافية ، لكي يخل بالتوازنات ، أو بالأحرى زيادة حدة اختلال توازن الولايات المتحدة .

قـبل الأورو ، أمريكا يمكنها الاعتماد على ظاهرة لا توافقية تـنوعات الـدولار تؤثـر علـى مجموع العالم ، تنوعات العملات الصغيرة تعوض نفسها ، وليس لها تأثير على الولايات المتحدة . الولايات المتحدة ، منذئذ صارت تحت رحمة حركات عالمية ذات اتجاه واحد مثلاً انهيار الأورو في الفترة منذ نشأته وحتى فبراير 2002 . هذه العملية ليست مقصودة وليست متوقعة ، تواكبت بالطبـع مع هروب رؤوس الاموال نحو أمريكا . لكن أثرها كان عملـيا خفـض الأسـعار الأوروبـية بنسـبة 25 ٪ . الأورو أقام عملـياً حاجـزاً تعـريفياً . الاحتجاج بعد ذلك ضد رفع الرسوم الجمـركية الأمـريكية على الصلب ، يكشف على نوايا سيئة من جانـب الأوروبـيين . الأسـوأ هـذا يكشـف عدم وعيهم بقوتهم الفعلـية . السادة يحتجون كما لو كانوا خدماً . صعود الأورو ، يمكـنه علـى المـدى الطويل تشجيع الصناعة الأمريكية ، لكنه في المقابـل يقلـل مـن إمـدادات الـولايات المـتحدة من الرأسمال ، وبشكل عنيف ، على المدى القصير .

وجـود الـيورو يقـود إلى تشـاور اقتصـادي أكثـر بين الأمـم الأوروبـية ، وإلى إمكانـية ظهـور سياسـة ميـزانية مشـتركة ، في أشـكال لـيس لها سابق . إذاً هذه العملية لم تنجح ، فان اليورو سـوف يختفـي ، لكـن علـى الأوروبيين إدراك أن ظهور سياسة موازنة على المستوى القاري – ميزانية أوروبية – ستكون له آثار علـى الاقتصـاد الكلـي العالمـي ويحطـم عملـيات الاحـتكار الأمريكـي للانـتظام الـراهن . إذا بـدا الأوروبـيون في وضـع

سياسة انطلاق كلي ، فانهم سيقضون على الخدمة الوحيدة الحقيقية التي تقدمها الولايات المتحدة للعالم ، وهي السند أو الدعم الكنزي للطلب . إذاً أوروبا صارت قطباً مستقلا ذاتيا للانتظام الكنزي ، وهو أمر مطلوب ، فانها عمليا تحطم النظام الأمريكي .

لا أجرؤ ، في بضعة صفحات ، على تناول الآثار اللا محدودة أو التفاعلات التي مثل هذا التغيير في السلوك يثيرها ، بالنسبة للتدفق التجاري والمالي ، والهجرة ، على مستوى العالم . لكن النتيجة العامة من السهل توقعها : قطب انتظام يظهر في أوراسيا ، قريباً جداً من قلب العالم ، ويمكن عندئذ توقع نضوب التدفق المادي والنقودي ، المهاجر ، الذي يغذي اليوم أمريكا . الولايات المتحدة يتوجب عليها حنيئذ أن تحيا مثل الأمم الأخرى ، بأن توازن حساباتها الخارجية ، هذا يتضمن ضرورة خفض مقداره من 15-20 ٪ من مستوى المعيشة الفعلي لسكانها . هذا التقدير يدمج واقعة أن السلع المستوردة والصادرة والخدمات ذات القيمة الدولية وحدها . أغلب السلع والخدمات الداخلة في حساب الناتج الوطني الخام الأمريكي ، ليس لها قيمة في الأسواق الدولية ، وهي بهذا مبالغ جداً فيها .

آفاق هذا التعديل ليس بها ما يخيف ، مثل هذا الانهيار لمستوى المعيشة ، لا يمكن مقارنته بما تكبده الروس (أكثر من 50 ٪) حال الخروج من الشيوعية ، على أساس ناتج وطني خام لكل رأس أدنى كثيرا منه في الولايات المتحدة . الاقتصاد الأمريكي بطبيعته مرن ، ويمكن أن نتوقع منه تكيفاً سريعاً ، بكل ثقة، وفي صالح مجموع النظام العالمي .

التحليل النقدي للتوجهات التي قدمناها ، لا يجب أن ينسينا الصفات الباطنية في أمريكا . سواء تعلق الأمر بالمرونة الاقتصادية ، أو التمسك بمبدأ الحرية السياسية . أن نفكر عقليا في أمريكا لا يمكن أن يكون إرادة التخلص منها أو الحط منها ، أو أي موقف آخر عنيف ووهمي. ما يحتاجه العالم ليس اختفاء أمريكا ، وأما أن تصير هي نفسها ديمقراطية ليبرالية ومنتجة ، قدر الإمكان ، لأنه ليس في التاريخ الإنساني كما ليس في التاريخ الحيواني عودة كاملة إلى الوراء ، الديناصورات لن ترجع أبداً ، أمريكا التي حقيقة إمبريالية وكريمة ، في سنوات الخمسين ، لن تعود أبداً .

ما وراء إدراك جيد لحقيقة العالم ، ماذا نستطيع فعله ؟ بتواضع العمل على الهامش من أجل تسهيل مرحلة انتقال ، والتي تجري من تلقاء ذاتها ولا سياسة دولية ، في حالة علاقات القوة الاقتصادية والديمقرافية والثقافية العالمية الراهنة ، تستطيع التأثير على مسار التاريخ . تستطيع فقط محاولة تسهيل ظهور بنية فوقية سياسية عاقلة ، وبان تتفادى إلى أقصى حد المواجهات العنيفة .

وجود توازن رعب نووي يظل ضرورة ، في حالة عدم اليقين حيث يوجد المجتمع والاقتصاد الأمريكي . سواء هذا التوازن كان بفضل القدرات الروسية أو بفضل إقامة قوة ردع نووي أوروبية .

أوروبا واليابان ، التي تستطيع تسديد وارداتها ، يجب عليها التفاوض مباشرة مع روسيا وإيران والعالم العربي ، حول أمن

إمـداداتها مـن الـنفط ، لـيس لديها أي سبب للتورط في تدخل عسكري مسرحي أمريكي .

الأمم المتحدة ، سواء باعتبارها ممثل أيديولوجي . أو منظمة سياسية ، يجب أن تكون أداة تعديل عام . من وجهة النظر هذه، الـولايات المـتحدة ، المعاديـة جـدا للأمـم المتحدة ، أصابت بأن أسـرعت بالـتهديد ، لكـي تجعـل المـنظمة الدولـية الكبرى أكثر فاعلـية . يجـب أن تستوعب وأن تصـيغ أفضـل علاقات القوة الاقتصـادية الحقيقـية ، في عـالم حـيث الحرب اقتصادية . غياب أُمـتين كـبرتين ، وهمـا ألمانـيا والـيابان ، عـن مجلـس الأمـن ، باعتـبارهما أعضـاء دائمين ، يظل شذوذاً . غيابهما يعبر ببساطة عن خضوعهما للنظام الأمريكي .

المطالبة بمقعد لليابان يكشف عن منطق سليم ، البلد الوحيد الـذي تكبد هجوم نووي ، صار أساسا مسالماً . إنه يملك شرعية حقيقـية ، تصـوراتها ، المخـتلفة جداً عن تصورات عالم الانجلو ساكسـون ، لا يمكـن إلا أن تكـون معـادلاً مفـيداً للكـوكب . بالنسـبة لألمانـيا الحـل ليس بهذه السهولة ، لأن الأمم الأوروبية ممـثلة كفايـة في مجلـس الأمن ، ومن غير الممكن زيادة حدة عدم الـتوازن بـان تعطـى مقعـداً إضافيا . هنا فرصة فرنسا أن تكون ذكـية ، وان تقـترح تقاسـم مقعدها مع ألمانيا ، مقعد مشترك مع ألمانـيا سـيكون أكثـر وزن مـن المقعـد الحالـي . هكـذا الـزوج الفرنسي الألماني يمكنه حقاً ممارسة حق الفيتو .

نقـل بعـض المؤسسـات الدولـية مـن الـولايات المتحدة إلى أوراسـيا ، يساهم أيضا في تعديل البنية السياسية العليا العالمية . وفـق الواقع الاقتصادي للعالم ، إنشاء مؤسسات دولية جديدة ،

هو بدون شك الطريق الأكثر بساطة وسهولة ، واقل إثارة للصراع ، من نقل صندوق النقد الدولي أو البنك العالمي ، وهما مؤسستان فقدتا قيمتهما اليوم في عقول المجتمع .

مقترحات العمل هذه ، ليست إلا صياغة مؤسساتية لما هو أساسي ، الوعي بحقيقة علاقات القوة الاقتصادية في العالم إذا كان الكوكب يتوجه نحو التوازن والهدوء ، بفضل اللعبة الطبيعية لقوى ديمقرافية ، ثقافية اجتماعية وسياسية ، ليس إذن ثمة حاجة لأي استراتيجية كبرى . أمر واحد يجب مطلقاً تفاديه: ان ننسى ان اليوم والأمس ، القوى الحقيقية هي ديمقرافية وتعليمية وان السلطان الحقيقي اقتصادي . ليس من المفيد الضياع وراء وهم منافسة عسكرية مع الولايات المتحدة ، منافسة عسكرية وهمية تقود إلى التدخل الدائم في بلدان بدون أهمية استراتيجية حقيقية ، لا يجب علينا عقب تغيير الجيش الأمريكي لمسرح العمليات ان نقوم بتصور عمليات مسرحية . التدخل في العراق ، إلى جانب الأمريكان لن يكون إلا القيام بدور صغير في مسرحية دموية .

ولا بلد ، في القرن العشرين ، نجح في تعظيم قوته بواسطة الحرب ، ولا حتى بواسطة زيادة قواته المسلحة وحدها . فرنسا، ألمانيا اليابان روسيا ، خسرت كثيراً في هذه اللعبة . الولايات المتحدة خرجت منتصرة ، في القرن العشرين ، لأنها عرفت ، على مدى فترة طويلة ، كيف ترفض التورط في صراعات العالم القديم العسكرية . لنقتدي بهذا المثل الذي تقدمه أمريكا الأولى، تلك التي نجحت . ولنجرؤ على أن نكون أقوياء بأن نرفض العسكرية ، وأن نقبل تركيز جهودنا على المشاكل الاقتصادية

والاجتماعية ، داخل مجتمعاتنا . لنترك أمريكا الحالية ، إذا رغبت في ذلك ، تستنفذ ما بقي لها من طاقة في " حربها على الإرهاب " حرب بديلة من أجل الحفاظ على هيمنة لم يعد لها وجود . إذا أصرت أمريكا على إظهار قوتها العظمى فإنها لن تنجح إلا في الكشف عن ضعفها للعالم .

لوحة اللوحات

1 - الخصوبة في العالم

2 - الخصوبة في البلدان الإسلامية

3 - نسبة الزواج بين أبناء العم في النصف الأول من سنوات 90

4 - قطاعات الاقتصاد ومعدلات النمو في الولايات المتحدة

5 - تطور الدخول في الولايات المتحدة .

6 - العسكريون الأمريكان في الخارج عام 1998 .

7 - شراء سندات والاستثمار الأجنبي المباشر في الولايات المتحدة .

8 - الرسملة البورصية .

9 - استيراد أمريكا من النفط عام 2001 .

10 - وفيات الأطفال والأمل في الحياة عند الذكور في روسيا .

11 - القتل والانتحار في العالم .

12 - التبادل التجاري التركي ، البولندي والمملكة المتحدة .

أعمال المؤلف

1 - السقوط النهائي : دراسة في تفسخ الفضاء السوفيتي 1976 . (نشر روبيرافون)

2 - الجنون والبروليتاري : 1979 – نشر روبيرلافون .

3 - اختراع فرنسا : بالتعاون مع هيرفي لوبرا . 1981 – نشر هاشيت .

4 - الكوكب الثالث : بنى أسرية ونظم أيديولوجية 1983 – نشر لوسي .

5 - طفولة العالم : بنى اسرية والتطور – 1984نشر لوسي

6 - فرنسا الجديدة : 1988 - نشر لوسي

7 - اختراع أوروبا : 1990 – نشر لوسي

8 - مصير المهاجرين : 1994 – نشر لوسي

9 - الوهم الاقتصادي : دراسة في ركود المجتمعات المتطور : 1997 ، طبعة جديدة منقحة 1999 – نشر قاليمار .